جمال الغيطانى

شطح المدينة

رواية

دار الشروق

شطح المدينَة

طبعة دار الشروق الأولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م

© دار الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

.. وسن للحيظات قبل توقف القطار مباشرة ، انتبه إلى صرير العجلات وتباطؤ السرعة . تغير ايقاع الحركة وخشيته من المجهول .

خمس ساعات وعشر دقائق ، اندفاع متصل ، سرعة قصوى معدنية الضجيج ، لا تتغير وتيرتها إلا عند عبور المدن ، والدنو من المنحنيات ، واختراق الأنفاق ، ومواضع الحذر التى تحددها العلامات وخبرة القيادة ، آثر ذلك ، اتصال رحلته مباشرة ، بدلا من قضاء ليلة فاصلة فى عاصمة يجهلها ، مستوجبة للحذر ، خلو من معارفه ، سمع وقرأ عن رواج أمر اللصوص بها ، استهدافهم للغرباء ، خاصة القادمين من الشرق ، ما هو فى هذه الديار النائية عن موطنه ، عن أهله ، وصحبه ، إلا أجنبى .. غريب .

من المطار إلى محطة السكك الحديدية المركزية رأسا ، لم يطل انتظاره . المدينة تقع على الطريق الرئيسى المؤدى إلى الغرب . كل نصف ساعة يقصدها قطار ، أنها المدينة الوحيدة بعد العاصمة الاتحادية التى تقف بها كل القطارات العابرة ، حتى الدولية منها المتجهة أو القادمة عبر الحدود .

جاء فى كتيبات ادارة تنشيط السياحة التابعة للبلدية أن ذلك لأهمية المدينة بالنسبة للموقع ، ولما تتضمنه من آثار قديمة ، وتراث معمارى ذى خصوصية وفرادة ، ولانخفاض نسبة الحوادث .

مصادر الجامعة ترجع السبب الى المركز العلمى ، إلى وجود الكليات العريقة التى درس بها مشاهير الأدب والفن والعلم .

يقوم واقفا ، مستوفزا ، متوقعا ما لم يعد له العدة ، فى غربته يتوقع دائما

المفاجأة الضارة ، يخشى نزول أذى ما من حيث لا يدرى ، ما طبيعته؟ ما كنهه ؟ ما مصدره ؟.

لا يمكنه القطع ، لا يستطيع التعيين أو التحديد ، أنما يلزم الحذر ، ويهيمن عليه التوجس ، ما يوده الآن انهاء وضعية المسافر، بلوغ الفندق فى أقصر وقت .

حقيبة السفر فى يده وتطلعه حوله يعنى أنه لم يستقر بعد ، ان نقوده مكتملة وجواز سفره ، وشئونه بحوزته ، يرغب الوصول إلى مأواه ، إلى مستقرة المؤقت حيث سيمضى أيامه المعدودات هنا .

العنوان موضح ضمن خطاب الدعوة ، الحق أنهم لم يغفلوا التفاصيل ، المواعيد ، الحفلات ، الندوات ، أوقات الفراغ موضحة حتى يمكنه اللقيا بمن يشاء . لكن .. بمن ؟.

ما من أحد هنا ، ما من معارف من قريب أو بعيد ، احتاط لأوقات الفراغ فاصطحب كتابين ليخلو اليهما فى الليالى السبع المقدر له أن يمضيها هنا ، ينزل درجا يؤدى إلى نفق يمتد تحت الأرصفة ، يتبع لافتات دالة على المخرج، إلى مكان عربات الأجرة ، طابور من العربات الصفراء ، حديثة الطرز ، يهبط السائق ، يرتدى سترة جلدية توحى بالملاكمة ، بالشروع فى منازلة ، يحمل الحقيبة ، يضعها فى خزانة السيارة الخلفية ، الركوب إلى جواره غير ممكن ، لا تسمح قوانين البلدية بذلك ، ولم يدر السبب ! . لا يمكنه رؤية العداد من مقعده ، نقوده محدودة ، لكن الأمر ضرورة ، لا مفر فى البداية ، يجهل الدروب والطرق ،اضافة إلى اجهاد السفر ، وعبء الحقيبة ، وحذره .

الميدان فسيح ، قديم ، والمبانى عتيقة ، بالتأكيد .. تمت كلها إلى ما قبل القرن التاسع عشر ، عجوز يرتدى معطفا بنى اللون ، يتوكأ على عصا

ويمسك لفافـة ، يتابعه بعينيه ، يلتفت ، لكن اتجاه العـربة يحول بينه وبين الرجل متمهل الخطى ، بادى الرجعة ، لا يعرفه ، لا يدرى مقصده ، ربما يعبر الموضـــع ذاته فى هــذه اللحـظة .

يثـق أن ملامحه العـابرة جـدا ستعلق بـذهنـه ، أول ما سيـذكره عنـد استعادة أيـامه هنـا ، عندما تـولى هذه الأوقـات كلها ويتحـول المحسوس ، المرئى إلى مجرد صور ، بعضـها واضـح ، ومعظمها مضبب ، باهت .

لكنه لن ينسى أبدا اللحظات الأولى ، الانطباع الأول ، رسوخ كامن ، وأيام عديـدة مدثـرة ، قوم متبـاعدون . ورائحــة خفية تمت بشكـل ما إلى زهــور صفراء ، دقيقة ، رهيفة ، تتوسطها دوائر صغيرة بنفسجية ، هكذا عيّن ، مع أن اليقين معدوم ، والأسباب منفية .

لماذا العجوز ؟ لماذا التفكير فى هذه الزهور ؟ وأغصان جافة فى ممر حديقة لا وجـود لها ، أنما تتشكل عنـاصرها مـن أنحاء شتـى لا رابط بينهـا ، أنـها البدايات ، يشبه الـوصول إلى أرض لم يطأها بولوج العـالم الحسى لامرأة ، مبهر أكتشاف دقائق الخصائص الصغـرى فى المرة الأولى ، كل منهن عالـم ، منظومة بمفردها ، أما طرق التعبير عن ذروة النشوة أو سلوك السبل إليها ، فلا تتشابه أبدا ، تماما كالبلـدان والامصار والأراضى المعمورة ، ترى .. من القائل ؟ أغترب تتجدد . تستعصى عليه الذاكرة المجهدة .

تـدور العربـة على مهـل حول الميـدان المبلـط بحجارة صغيرة ، أعمــدة الأقواس الحجرية ، قمم أشجار تطل من سور مرتفع ، درج رخامى مؤدى ، تمثال شيخ معصـوب العينين يمسك قنديلا ، تتجه السيارة صـوب الطريق لمبنى المحطـة من الطرف الآخـر ، يتوقف أمام المبنـى الرابع ، يظنهـا اشـارة مرور ، أو سبب ما ، لكنه يفاجأ بالسائق يشير إلى مدخل قديم :

« الفندق الدولى »

هكذا؟.

أقل مـن دقيقة ، مفاجـأ بقصر المسافة ، حقا .. الغـريب أعمى ولـو كان بصيرا ، لـو أطلع على الموقـع لعبر الميدان ، لادخـر مـا دفعه ، مبلـغ مرتفـع بالقياس ، فيما بعد عـرف أن البداية مرتفعة القيمة ، مجرد فتـح الباب ، بعد انتهاء مدته ، بعـد انقضاء اقامته ، يوم سفره إلى العاصمـة ، بعد سبع ليال سيمضى مشيا إلى المحطة .

يتطلع إلى الـواجهة ، نوافـد مستطيلة مؤطـرة بزخارف جصيـة ، تتخلل الفراغات تماثيـل صغيرة وزهور حجرية ، يجتـاز الرصيف ، بلاطـه مربع مصقول ، مـا بين جدران البيوت والأقواس الحجـرية ممر طويـل ، يستعيد شارع محمد على ، لكن أقواسه أغلظ ، تهدمت فى مسافات عديدة ، لا تتصل ، يبدو كفم تتخلـل أسنانه فجوات غير منتظمة ،يستعيد مـآذن مسجد محمد على فوق القلعة التى تسد الأفق والروائح المنبعثة من سوق الخضار والتى تطغى عليها أحيانا رائحة الاسماك النفاذة ، خاصة فى شهور الصيف ، يرى مقهى التجـارة القديم بعينى طـائر محلق ، ينزل على مهل حتـى يحط فوق منضدة فى الـركن المعتـم ، لسبب لا يـدرى كنهه ، لا يـرى إلا ملامـح رجل تجاوز الخمسين ، نحيل ، يـرتدى جلبـابا ، يحتضـن عودا مغطـى بقماش أخضر حـائل ، يحملق إلى شـىء حيث أيام منسيـة تتـوالى خلالها صـور غامضـة باهتة ، لا يـدرى متى رأى الرجـل ، متى قابلـه ، لكنه بالتـأكيد لم يتبادل معه حوارا عندما أنس إلى المقهى زمنا وأمضى أوقاتا طويلة إلى عازف كمان ضرير أنبأه عـن الحان وضعها لو أتيح لها الظهـور لغطت على شهرة محمد عبد الوهاب ولنسيه الناس خلال أسابيع ، لكنه مواجه بعقبات صعبة

فى الاذاعة والتليفزيون نتيجة مبالغ ثابتة يدفعها كبار الملحنين إلى المسئولين للحيلولة دون لقائه الجمهور الواسع ، الجمهور الواسع ، آه .. لو تتاح الفرصة ، لا يذكر من ملامح الضرير إلا حجمه ، كان بدينا ، متهدل الكتفين .

يجتاز مدخل الفندق الضيق ، لا يتناسب مع رحابة بهو الاستقبال وحداثته ، مقاعد حادة الحواف ، خطوط مستقيمة ، لا يمت الداخل إلى الخارج ، بعد الليلة الأولى ، فى صباح أول أيامه أدرك استمرارية وذيوع التناقض ، الواجهة عتيقة وداخل المبنى حديث جدا ، تعرض الواجهة ثلاثة طوابق ، بينما يتكون البناء من ستة ، الحفاظ على الطابع المتوارث تنظمه قوانين صارمة ، واضحة ، لا تحتمل التفسيرات الخاطئة ، أو التأويلات سيئة القصد ، أو الحزق المتعمد ، المضمون جلى جدا ، احتفظ بالمظهر القديم، أو أتبعه ، وأفعل فى الداخل ماشئت . ولأنها المرة الأولى التى يرى فيها وضعا كهذا ، اهتم بتتبعه ، بتقصيه ، بعد استقراره داخل الغرفة ، وأتمامه طقوسه ، رص أوراقه بجوار السرير ، وعدة حلاقته فوق الرف الزجاجى فى الحمام ، والملابس من الحقيبة إلى الصوان ، أما جواز السفر وحافظة النقود فتحت الوسادة التى سيسند إليها رأسه ، عندما خيره موظف الاستقبال بين ايداعه فى المكتب أو حفظه معه ، لم يتردد ، أومأ برأسه شاكرا دسه فى جيب جاكتته ، لا يمكنه مفارقته . شيئان لا يتخلى عنهما ، الجواز وبطاقة الطائرة ، يخشى دائما فقدهما ، وما يستتبع ذلك من متاهات شتى .

بعد أن رتب حاجاته ليضفى خصوصيته على الغرفة المشاع ، تمدد فوق السرير ، مستمتعا بوحدته فى حيز غريب ، نائيا عن موطنه . التمدد على الظهر والحملقة إلى السقف ومحاولة فرز الأصوات الشاحبة النائية ، عادة أكتسبها منذ اعتقاله قبل ربع قرن وحبسه انفراديا لمدة أربعة وأربعين يوما

قبل تحويله إلى السجن الجماعى . وتعذيبه لاجباره على الاعتراف بالتهمة الموجهة إليه وإلى صحبه ، قلب نظام الحكم من خلال انشاء تنظيم سرى يعتنق الأفكار الهدامة ويدعو إلى الصراع الطبقى وينكر الأديان السماوية جميعا ، وذلك أثناء جلوسهم فى مقهى يحتسون فيه البيرة ، وأكواب الشاى الافرنجي المعبأ فى أكياس من ورق رهيف ، ثم انتقالهم الليلى إلى مقهى شعبى قرب مسجد الإمام الحسين ، وتبادلهم الحوار همسا معظم الوقت ، وبصوت مرتفع أحيانا للتمويه على مراقبيهم الأكفاء ، وتدخينهم المعسل أثناء ذلك .

على شفتيه تلوح ابتسامة ، سرعان ما تتوارى ليبدو تعبير أسيان ممتزج بدهشة طفولية بكر ، يقوم واقفا ، يتناول الأوراق التى وجدها فى انتظاره ، مضطر لقضاء الليلة فى الغرفة ، يجهل المدينة ، كما أنه متعب ، لن يطول سهره.

يتأمل الملفين الأنيقين ، الأول من الجامعة التى تستضيفه بمناسبة البرنامج الاحتفالى لمرور تسعة قرون على تأسيسها ، والثانى من البلدية معلومات شتى عن المدينة ، موقعها ، تخطيطها ، خصائصها التاريخية والفنية ، المعمارية . أهم الصناعات والأنشطة والمشاهير الذين قضوا فترات من حياتهم بها ، طالت أو قصرت .

الأمور المرعية
عند إعادة البناء

.. الموضوع خلافى ، غير محسوم ، يتبلور خلال فترات ، يغيب حينا لكن لحضوره وشيش دائم ، جوهره ذلك السؤال : أيهما أسبق ، المدينة أو الجامعة ؟.

مؤلفات ، ودوريات ، وأبحاث ، ومناقشات ، وتصريحات علنية وأخرى خفية تتناول هذه النقطة ، ليس على المستوى المحلى ، انما فى اطار التاريخ القومى للبلاد الموحدة منذ قرنين لا غير .

تتداخل عناصر عديدة لتصيفه ، أو لتعيد ترتيب أولوياته ومحاوره وتفاصيله من فترة إلى أخرى . ومن مرحلة إلى مرحلة . وعند أى تغير يصاحب صعود طبقة ، أو سيطرة فئة ، أو بروز عنصر معين . أو نشوء أتجاه سياسى جديد ، ليس بالضرورة داخل البلاد ، وإنما النظر فى مناهجه ، أو بزوغ نجم أستاذ جامعى كبير .

ما تم تدوينه فى العصر الامبراطورى ، مختلف عما تردد فى زمن الولايات، لا يتفق مع التفاصيل التى ذكرت فى العصر الملكى ، وبعد اعلان الجمهورية تغير هذا كله .

لكن .. هذا الموضوع بالذات لم يتغير جوهره ، هل شيدت المدينة أولا ، أو

ظهرت الجامعة ، ثم نشأ وضع يلبى احتياجاتها وتطور ليتخذ شكل المدينة؟ والواجهات من الأمور التى تعكس القضية بوضوح .

أقدم المنشآت هنا مبانى الجامعة ، بعضها يرجع إلى السنين الأولى ، أى قبل تسعة قرون ، ومنذ تشكيل أول بلدية قبل بدء مجلس ادارة الجامعة ممارسته لمهامه - كما تؤكد مصادر البلدية - أو بعد ظهور أول كلية قبل نشوء المدينة - تؤكد الدراسات الجامعية - وثمة اتفاق على احتفاظ المدينة بطابعها القديم ، العريق ، هنا يقول رجال البلدية أن ذلك من صميم عملهم ، وأن أسلافهم هم الذين أرسوا التقاليد والأعراف والأصول والقوانين التى تكفل ذلك ، بل تكبدوا مشاقا ومخاطر ، ويضربون المثل بما جرى مع الادارة المركزية للتخطيط العمرانى فى العاصمة الاتحادية عندما شرع رجل أعمال كبير ، منبسط النفوذ ، فى بناء مصنع بأحدى ضواحى المدينة ، اشترى عددا من المبانى فى المنطقة القديمة لاعدادها كمقار للادارة ، بدأ فى الهدم ، عندئذ طلب منه مهندسو البلدية الالتزام ، الحفاظ على الواجهات القديمة ، والبناء كما يشاء خلفها ، غير أنه لم يعبأ ، بل هزأ من ذلك فى تصريح أدلى به إلى مجلة أسبوعية ، واسعة الانتشار ، راديكالية الاتجاه ، وقيل أنه دفع !. وصف ما طلب منه بأنه عبث ، وقال إن الناس يجب أن تعيش فى مكان حقيقى يعكس روح العصر ، وليس فى متحف .

رئيس البلدية أنذره بالتوقف فورا ، وسحب معدات الهدم ، وأعلن أنه سيرفع الأمر إلى المحكمة الدستورية الاتحادية ، قبل أن يخرج المادة السابعة من دستور الولاية إلى حيز التنفيذ أعمالا لحقه ، وهذا نذير بحرب أهلية .

ترددت شائعات عن محاولات رجل الاعمال رشوة القضاة وكبار المسئولين ، بل .. وبعض أعضاء المجلس البلدى . فوقعت الخشية لتعاظم أمر الرشوة فى البلاد .

خـلال أيام المؤتمر سمـع الكثير ، ودون التفـاصيـل ، أمر مهـم عنـده ، لتناقضه مـع ظاهر ما يبدو له ، منـذ وصوله إلى المطار ، ثم ركـوبه القطار ، وحتى استقراره فى غرفته ، بدا كل شىء صارم الانضباط ، قاسى التقاطيع، لكن ما اطلع عليه عكس ذلك ، فالرشوة فاشية ، لا يوجد ما يستعصى عليها، يمكن الحصول على أدق المعلـومات وأشدها حساسية ، بما فيهـا مؤسسات الأمن العام . وأجهزة مكافحة أنشطة التجسـس ، ولجنة اعادة كتابة التاريخ المشكلة عقب انتخاب رئيس الجمهورية الحالى للمرة الثانية .

كل له قدر معلوم ، حتى تكليف ضبـاط بالخدمة السرية لجمع معلومات دقيقة عـن شئون المواطنين الحسـاسة ، كذلـك الظهور فى وسـائل الإعلام المركزية والمحلية مقابل مبالغ معينـة يتم الاتفاق عليها مع مخرجى البرامج ومسئـولى التخطيط المركـزى ، أمـوال أخرى متفـاوتة المقـاديـر تدفـع إلى المصورين وعمال الاضاءة مقابل تـركيز آلات التصوير على شخصية معينة أو زوايا خاصة تبرز جمال ممثلـة ، أو ملامح خاصة لرجـل سياسة تظهره قاسيا ، صارما ، قادرا على أرهاب خصومه ، ثمة امكانية لتخفيض الأعمار ، بعد تغيير شهادات الميلاد ، طبعا .. المستفيد هن النساء .

فى وقت مضـى تحدثت المدينـة عن طبيـب أسنان مشهـور ، وصدمتـه الحادة التى ألـزمته الاقـامة حتى الآن بقسـم الأمراض العصبيـة والنفسية بالمستشفى الجامعى ، وذلك أنه اكتشف بعد وفاة زوجته أنها تكبره بخمس عشرة سنة ، بعكس الوثائق ، بدءا من شهـادة الميلاد ، وحتى بطاقة الاقامة ، وجواز السفر ، وأوراق العضوية فى النادى الاجتماعى ، اتضح له أنها دفعت أموالا لتغيير البيـانات حتى تصبح رسميـا أصغر منه بسبع سنـوات . كان افتضاح الأمر بعد هذه السنوات الطوال ثقيل الوطأة ، فلم يحتمل .

كل شــىء ممكن إذا مــا دفع مقابــلا ، مبالغ معينــة ، هدايــا ، أو تسهيل الحصول على أشيــاء عينية ، كتمريــر صفقات ، او امتلاك أراض عــامة ، أو الوصول إلى منصب .

ما تــوقف عنــده ، ضرورة احتفاظه بنقــود لدفعهــا مناصفــة بين رجال الجوازات والجمارك ، مع ســلامة الاجــراءات ، واستيفاء جميــع الخطوات ، والالتزام بــالمدة المحددة لــلإقامة ، وانعــدام المخالفة كليــة ، انما يتم الــدفع لتيسير المتعارف عليه ، وإلا وقع التباطؤ ، ربما يطلب منه الانتظار حتى تتم مراجعة بعض البيانات ، يتم تأخيره عمدا ، حتى تقلع الطائرة ، يفاجأ بوقت لم يعد له العــدة ، قرر اتخاذ الحيطة ، ومما أدهشه أن تلك الأمــور معروفة ، متداولــة ، حتى بــالنسبة للأجــانب القادمين لتمضيــة إجازات ، أو الاقــامة فترات أطول .

جهة واحدة تستعصى على الرشوة .

انها الجامعة ، ويضرب المثــل دائما بابن أمير الــولاية الغــربية فى العصر الملكى ، عــرض والده هــدايا ثمينــة تتضمن مجوهــرات وتــحفا ثمينــة ، لكن المجلس رفــض قبولــه بعد رســوبه فى الاختبــار الشخصى ، وتتردد وقــائع أخرى مشــابهة ، لكن بعض رجــال البلدية يــؤكدون أن ثمة أشكــالا أخرى ومسارب خفية ، ويضربــون مثلا بأستاذ مــادة الاعلام الموجه الذى ســاعد زوجة رئيس الجمهورية السابق وسهل لها الحصول على شــهادة التخرج فى كلية العلــوم الإنسانية ، مقــابل وعــده بمنصب كبير ، ولكن رجــال الجامعة يردون فورا ، إذ تقــرر احالة هذا الاستــاذ إلى لجنة التأديب السريــة . ولكن مصــادر البلديــة تؤكــد أن السبب مختلــف ، ذلك أنــه ضبط فى دورة الميــاه الخاصة بالسيدات يمارس الجنس واقفا مع طالبة من الصف الأول .

والحديث فى هذا يطول .

نعود لذكر ما جرى من رجل الأعمال . اذ يبدو أن جهود البلدية لوقفه لم تنجح ، أو لم تلق صدى فى العاصمة الاتحادية ، عندئذ لوح رئيس المجلس بالمادة السابعة ، وبعد أيام قليلة نفذ مضمونها بدون الاعلان عن العمل بها .

استنفر قوات الأمن المحلية واستدعى جميع أفرادها الذين خرجوا من الخدمة طوال السنوات العشر الماضية ، ورفع الراية القرمزية فوق البرج المائل ، وأمر باشعال تسعة وثلاثين شمعة رسمية على أضرحة الفلاسفة ، واضاءة شمعة كبرى تزن ربع قنطار تحية لروح رئيس الفلاسفة الذى لم تعرف مقبرته حتى الآن ، وما زال البحث جادا عنها ، ومثل هذه الشمعة لم توقد منذ أربعة قرون ، بعد وقوع الوباء الكبير فى القرن السادس عشر .

يبدو أن هذه الاجراءات لاقت أصداء طيبة وأيقظت أسبابا طال ركودها ، فالمدينة كانت فى الأصل امارة مستقلة حتى القرن السابع عشر ، ثم جرى فى القرن التالى توحيد البلاد بالقوة بعد حروب دامت أربعين سنة متصلة ، سالت خلالها دماء ، واستبيحت أعراض ، وثروات ، وتغيرت معالم ، إلا أن المدينة القديمة عامة ، ومبانى الجامعة خاصة لم يلحق بها ما جرى فى المدن الأخرى التى محي بعضها تماما ، ترجع مصادر البلدية ذلك إلى حكمة رئيسها ، ودهائه السياسى الذى مكنه تجنب الأطراف المتحاربة ، أما وثائق الجامعة فتؤكد أن السبب الرئيسى يرجع إلى مجلسها الأعلى ، عندما وجه نداء للحفاظ على الجامعة وتراثها الحضارى والإنسانى ، نص النداء المكتوب على رق من جلد الغزال محفوظ فى العاصمة ، معروض فى مركز الوثائق الاتحادى .

هكذا .. لم تغلق الجامعة أبوابها واستمرت تستقبل الطلاب طوال زمن

الحرب ، بعد انتهاء المعارك ، وضم المدينة إلى الولاية ، وضم الولاية إلى الاتحاد ، لم يفقد الاهالى احساسهم القديم بالتميز ، وحافظوا جاهدين على مظاهر شتى خاصة بهم ، مثل اللباس التقليدى ، وترتيب أصابع المقانق فى الطبق ، ونوعية النبيذ الذى ظل ينتج طبقا للاساليب القديمة فى براميل من خشب عتيق . رغم تطور وسائل الانتاج ، كذلك الموسيقى التقليدية والطقوس المتبعة فى الأعراس والجنائز . وكعك العيد الكبير .

هنا تشير كتب علم الاجتماع إلى دور الجامعة وحضورها القوى ، وتقاليدها الصارمة فى الحفاظ على الطابع ، ومما اشتهر وذاع أمره وأقبل الناس على رؤيته خاصة فى المناسبات ، أزياء الاساتذة والطلبة ، والحفاظ على الازياء أصعب من واجهات المبانى ، العمارات لا تتغير إلا عبر حقب متباعدة ، أما الملابس فتتبدل من سنة إلى أخرى . بل .. من فصل إلى آخر ، لكن نجحت الادارة الجامعية وحولت بعض العناصر إلى شعار ودلالة .

خلال أيام اقامته الأولى وأثناء جلسات المؤتمر الاحتفالى دون العديد من الملاحظات المتعلقة بالأزياء ، خاصة الأقدم ..

لمحة وجيزة

..بداية ، يجب القول ان ما يبدو اليوم طريفا ، غرائبيا ، عبئا على الراهن ، كان فى الماضى المندثر جزءا من سدى الحياة ولحمتها .

عندما أسس أول معهد ، نواة الجامعة ، وخصص لدراسة العلوم الدينية والشئون الفقهية ، والمعاملات الشرعية ، كان من الطبيعى أن يتماثل الزى وقتئذ مع رجال الدين ، إلا أن كبير الاساتذة رغب فى التمييز ، أضاف إلى الرداء القاتم الفضفاض حزاما من القماش عرضه مقدار قبضة اليد ، أبيض للاساتذة ، أحمر للطلبة ، كذا غطاء للرأس .

زى ذكورى طبعا ، فلم يحدث أن قبل المعهد أناثا بين صفوفه طوال ثمانية قرون ونصف القرن ، فقط .. جرى التحاق بعض الطالبات منذ خمسين عاما عقب مناقشات حادة ، ومعارك لفظية وارجاءات متتالية ، ومحاولات شتى للتعطيل ، حتى انتهى الأمر بعد ثلاثين عاما من النقاش بقبول عدد من الطالبات اللواتى اعتبرن فى البداية منتسبات ، وخضعن لشروط صعبة ، واختبارات عديدة ، وتفاصيل الأمر مطولة ، لو أوردناها لغطت وأملت .

منذ أربعين سنة وقع خلاف محوره الحزام الذى أضيف فى الأزمنة البعيدة، المصادر وكتب الرحالة تؤكد أنه من الحرير ، بعض الباحثين أثبتوا

أنه صنع من الجلد المدبوغ ، يتوسطه قفل من نحاس أصفر محكم ، وفى قول أحدهم ، نحاس أحمر ..

بعد استمرار النقاش أعلن المجلس الأعلى عن وجود زى كامل فى قبو المخلفات الجامعية ، تقرر ترميمه وعرضه فى المتحف المتاح للجميع والمحتوى على نفائس جمة ، لكن .. لم يتم ذلك حتى الآن ، وقيل فى سبب ذلك أن الجلباب ولوازمه موجود فى نقطة عميقة من القبو تختلف فيها الرطوبة ودرجة الحرارة اختلافا جما . ولابد من عمليات دقيقة لحفظه عند تعرضه للهواء العادى ، مقال واحد ظهر فى جريدة البلدية الاسبوعية شكك ولمح إلى احتمال عدم وجود الزى ، ولم يعلق أحد ، لكن المقطوع به ، المفروغ منه ، وجود أشياء نفيسة ، نادرة ، بعضها يعد من الأعاجيب ، داخل القبو .

انه شق طبيعى تحت الأرض يتشعب إلى عدة ممرات أوسعها شبه دائرى، ثم يبدأ منه نفقان يقال أنهما غير مستكشفين إلى النهاية لانعدام الهواء الصالح عند مسافة معينة ، ولارتفاع درجة الحرارة ، يضم كنوز الجامعة المتوارثة ، بدءا من المخطوطات النادرة . والألواح المنقوشة بلغات منقرضة ، وكراسات قديمة بالقلم الغريب ، والأشكال الهندسية التى تؤول وتفسر ، وأدوات الكتابة المندثرة ، وأول كتب طبعت ، ورسائل ملوك وسلاطين وأباطرة ، وسيدات مشهورات وأدباء كبار ، ورسائل شخصية لاساتذة أو طلبة ، أو بعض أهالى المدينة ، عاشوا فى حقب مختلفة ولكن أوراقهم الآن قريبة متجاورة ، كذا دفاتر حوليات ، ويوميات تجار ، وفهارس، ومخطوطات كتب على ورق البردى القديم ، حتى الهدايا التى تلقتها الادارة عبر تسعة قرون من الحكام والاثرياء والمؤسسات ، والهيئات الدينية .

يؤكد العـارفون أنه من المستحيـل تماما الاحاطة بما يحويـه القبو حتى وأن زعمت الادارة وجود سجلات دقيقة ، متوارثة ، دون فيها كل شيء .

من فترة إلى أخـرى ، وفى مناسبات محددة . يجرى عـرض نوعـى ، مرة للأوسمـة التى تلقـاها رجال الجامعـة البارزين . أو شهـادات التقديـر من الهيئات العلمية المماثلـة ، أو للتحف النادرة ، أو لمخطوطـات مشاهير قضوا سنوات هنـا كدارسين ، تـوجد مطبـوعات صـدرت فى نهاية القـرن الماضى توضح بعـض محتويات القبو ، مـن ذلك مجلد ثمين يتسابـق هواة السجاد والمتخصصـون فيه إلى أقتنـائه مع نـدرة نسخـه الآن ، وارتفاع السعـر أن وجدت ، وآخر عن المصـابيح اليدوية ، سواء المهداة ، أو تلـك التى علقت على مدى قرون عدة فى قاعات الجامعة وحجـراتها ، وثالث عن المحابر الفضية ، والنحاسية ، والمصنوعـة من عاج الفيلة الهندية ، ومـن حجر أسود صلب لا يوجد إلا فى جبال الأنديز ، ورابع عن المنمنمات الشرقية ، ويضم أقدم صور معروفـة لأبطال شـاهنامة الفـردوسى ، وقصة فيرهـاد وشيرين ، والـزير سالم، والظاهر بيبرس ، وسيف بن ذى يزن ، ومجلـد خامس رسم لوحاته فنانون مجهولون اصطحبهـم سلاطين الأتراك سرا فى حملاتهم العسكرية ، وسهراتهم . وخلواتهم ليرسموا ملامحهم ، وليمسكوا بلحظاتهم الفانية .

لم تنشر هذه اللوحات من قبل خشية غضب بعض رجال الدين الاشداء ، المتعصبين ، وان كان الأمر صار إلى غير ذلك فيما بعد .

هـذه المجلدات تطبـع بـأعـداد محدودة جدا ، وكثير منهـا الآن فى نـدرة المخطوطات ، منـذ عدة سنوات بيع فى صالـة إحدى المزادات الشهيرة نسخة من مجلد صدر فى منتصف القرن الثـامن عشر يحوى صورا وسجلا بأنواع السيوف النادرة التى تقلدها رؤسـاء الجامعة عبر أزمنة مختلفة عند افتتاح

المراحل الدراسية ، بيع بمبلغ تجاوز المليون ، تناقلته الصحف ، لكن .. لم تعرف شخصية المشترى ، قيل أنه ثرى ، وتردد أنها هيئة ما ، وأكد البعض أنه متحف عالمى ، لكن .. لم يثبت شيء .

تغييرات ضئيلة جرت على الأزياء خلال فترات متباعدة ، لا يلحظها إلا الباحث المدقق ، عدا تلك المرتبطة بضجة كبرى أو حوادث استثنائية . مثل الدوائر الثلاث وتلك مرتبطة برداء رئيس الجامعة ، خاصة الذى يظهر به عند حفل التنصيب ، وافتتاح العام الدراسي ، واختتامه ، غطاء رأس مرتفع ، بنى اللون ، مقبب ، تتقدمه ريشة كتابة من النوع العتيق ، فوقه عباءة رمادية تنسدل إلى ما بعد الركبتين مقدار شبر واحد ، تتخللها ثلاثة خطوط حمراء ، يتوسط كل منها عند الخصر ثلاث دوائر مذهبة ، تحمل الحرف الأول من اسم الجامعة ، أنه الأول أيضا من اسم العاصمة المركزية .

مشكلة كبرى حول تلك الدوائر ، لا تزال تفاصيلها تروى ، يقال أن أول رئيس اتحادى كان شخصا مهيبا ، صارما ، قاسيا فى معاملاته ، ضاريا فى عدائه لخصومه حتى أنه صفى الكثيرين خنقا بيديه ، كان كثيف اللحية ، عظيم الشارب ، محبا للنساء ، مكثرا من أكل العصافير المحشوة بالفستق ، ونوع صغير من السمك لا يعيش إلا فى المياه النقية جدا المتوافرة فى برك طبيعية فوق مرتفعات جبلية شاهقة فى أمريكا الجنوبية .

فى المتحف القومى لوحات عدة تسجل ملامحه فى مراحل عمره المختلفة منذ بدء ظهوره فى حياة البلاد السياسية . وضعت عشرات الكتب فى سيرته ، وأعماله ، ومعاركه ، تطرق بعضها إلى أدق شئونه ، حتى ذكر أحدهم أن التحاليل العلمية التى أجريت على ثلاث شعيرات من رأسه فى مختبرات كلية العلوم أثبتت اختلال غدده وضعفه ، أما ما أشيع حول فحولته فالغرض منه

أضفاء الهيبة . أمتعض رجال البلدية ، واعتبروا ذلك محاولة لتشويه التاريخ القومى للبلاد ، همس البعض بوجود صلة بين ما أعلن والدوائر الذهبية .

بدأ الأمر عندما أصر على اضافة رموز الدولة إلى المؤسسات الاقليمية حتى لو تمتع بعضها بذيوع الصيت ، وسمعة دولية ، اختار بنفسه هذه الدائرة الذهبية على أن تتوسط العلم ، ويوضع ثلاث منها على عباءة رئيس الجامعة .

رئيس الجامعة كان عالما ، متمكنا ، راسخا ، قوى الحضور ، موفور النظر . تجاوز التسعين بذهن لم يهن ، ومهابة ، أمضى فى منصبه العلمى أربعين سنة متصلة ، لم يفارق خلالها أسوار المنطقة الجامعية ، لكم دعى إلى مؤتمرات ، إلى احتفالات ، ومناسبات ، لكنه لم يستجب قط ، سعى إليه القصاد وأصحاب المسائل من كل فج .

عندما بلغه القرار ، أطرق مقدار ساعة ، ثم قام إلى مقر خلوته واحتجب يومين ، لم يره أحد ، لم يقابل إنسانا ، ثم خرج معلنا دعوة المجلس الأعلى ، المكون من عمداء الكليات والاساتذة المتخصصين وأقدم خريج محلى على قيد الحياة .

قال باختصار دال . أنه لن يسمح أبدا باضافة هذه الدوائر ما دام حيا ، سابقة خطيرة لو مرت ستفقد الجامعة استقلاليتها . ستهدر تقاليد عريقة أفنى خيرة أبناء الجامعة أعمارهم للحفاظ عليها وتأصيلها . والعبور بها من زمن إلى زمن .

جرى الاجتماع فى حال شديد من التأثر ، حتى أن بعض الحاضرين ذرف دمعا ، طبعا كل مادار فيه بلغ رئيس الدولة ، تعاظم غضبه ، أرسى العزم وأكد التصميم . قال إن اضافة هذه الدائرة قرار سيادى ، لم يصدره

للمناقشة ، انما للتنفيذ ، وإذا لم تقع الاستجابة سيغلقها إلى الأبد، .. نعم ، سيوقف أعمال الجامعة تماما ، ولو هب العالم كله ضده . سيحول مقاراتها إلى متاجر لبيع الاقمشة ، والأطعمة الطازجة ، بعض ممن يحيطون به وعرفوا بالقدرة على مناقشته أشاروا عليه بتجنب الصدام والسعى بالحيلة . أما الاجراءات العنيفة فستضر الدولة الجديدة .. ولا داعى !.

من هنا بدأ الدهاة سعيهم .

كان فى المجلس الأعلى أستاذ مشهور فى عالم المنطق الأرسطى ، عنده شهرة ، ولأمره ذيوع ، تجاوز السبعين بعامين ، وعنده تطلع إلى المنصب الرئاسى ، مضمر لغيرة قصوى ، وقلق عصبى ، يخشى أن تدركه المنية قبل أدراج أسمه بين من تولوا أمور الجامعة والذين تصطف اللوحات الزيتية مبرزة ملامحهم فى القاعة الرئيسية ، تلك عادة قديمة مرعية ، من مراسيم التنصيب رسم لوحة زيتية تعلق فى اطار خشبى قاتم يخلو من الزخارف .

كان هو المرشح الأول ، صحيح أن ثمة انتخابات تجرى ، لها طقوس وأصول مرعية ، غير أنها شكلية طبقا للعرف ، دائما هناك شبه اتفاق غير معلن حول شخص بعينه .

صحيح أن الرئيس معمر ، طاعن فى السن ، لكنه يبدو صحيح البنية، غير ذى علة ، يتبع نظاما غذائيا غريبا ، إذ يتناول فى افطاره ، حبة ثوم ، ونصف كيلو بصل مشوى ، وفى الغذاء طبق خضار مسلوقا ، وفى العشاء كوبا من عصير التوت البرى ، لا يقرب اللحم ، أو البيض ، أى شىء حى يمت إلى البر أو البحر ، يغطى رأسه بطاقية من صوف الغنم المغزول يدويا ، ويتمدد فوق لوح خشبى مغطى بملاءة رقيقة ، ثم يروح فى سبات عميق لا يوقظه منه قرع الطبول ، فى الصباح الباكر وبعد أطلالة قرص الشمس يرى فى الحدائق

الفسيحة المحيطة ماشيا لمدة ساعة ، الدلائل تشير إلى عنفوانه ، وأنه سيتجاوز المائة ، أنه الشقيق الاصغر لسبعة ذكور عاش أقلهم مائة وعشرين سنة .

متى سيعلو أستاذ المنطق الأرسطى كرسى الاستاذية اذن ؟. أنه معتل ، نحيف ، رقيق البنية ، غير قادر على مضاجعة امرأة منذ ثلاثين عاما ، كان فى ضيق ، ولم يخف ذلك أحيانا . غير أن البعض يذكرون أسبابا أخرى ربما تبدو موضوعية . ذلك أن رئيس الجامعة كان منتميا إلى أساتذة العلوم العملية . وهؤلاء يشغلون المنصب الرئاسى منذ قرن ، أدى ذلك إلى تذمر خفى بين أساتذة العلوم النظرية . هؤلاء يعتبرون أنفسهم أجدر ، ولهم حجج شتى ، منها أن الجامعة بدأت بالكليات النظرية ، المعهد الدينى ، ثم الفلسفى، ثم الأدبى وتحولت المعاهد إلى كليات ، أما كلية الفلك فالنقاش حولها لم يحسم ، عملية أو نظرية ؟. أما التاريخ الرسمى فيعتبر الطب أول كلية عملية.

من حججهم أيضا أن تخصصاتهم تسمح لهم باتقان فنون الادارة ، لكنهم هم أنفسهم كانوا على خلاف فيما بينهم ، ذلك أن شقاقا قديما بين كليات الفلسفة والآداب والتاريخ من ناحية ، وبين كليات العلوم السياسية والادارية والتجارية . .والأسباب عديدة ، لكنها لم تصل درجة الحدة قط ، حتى الخلاف بين النظريين والعلميين ، ذلك أن الصراع الأعم بين البلدية والجامعة.

المهم .. جرى اتصال ما ، غير معروف حتى الآن . بين أستاذ المنطق الأرسطى وبين رئيس الدولة الاتحادية . تم خفية طبعا ، ولم يعرف أحد ماذا جرى فيه ؟ ثم تفجر الموضوع أثناء الاجتماع الشهرى الموسع . فيه يتناول الاساتذة العشاء معا مع طقوس معينة ، قديمة ، يتم تقديم أنواع معينة من

الطعام مطهية فى أوان فخارية قديمة ، مع أصناف من النبيذ المحلى غير الموجودة خارج الجامعة ، عن البدء فى تناول كل طبق تتلى فقرات من نصوص أدبية مجهولة المؤلف ، بعد تناولهم العشاء يطرقون فى أحاديثهم موضوعات شتى .

أبدى أستاذ المنطق الارسطى وجهة نظر تهون من اضافة الدوائر الذهبية الثلاث إلى العباءة الرئاسية ، التفت الحاضرون ليروا وقع الكلمات غير المنتظرة ، رأوا رئيسهم الصارم مرهوب الجانب يتطلع إلى نقطة غير محددة بعينين زجاجيتين .

استمر أستاذ المنطق مشيرا إلى لا معقولية تعريض وجود الجامعة واستقلالها للخطر مقابل ثلاث دوائر وهمية ، توقف منتظرا رد الفعل ، إلا أن الصمت الغريب ، المريب ، استمر ، عندئذ قال باختصار أنه لا يرى ضررا فى اضافتها ، ثم قال ، يجب الافلات من أسر الماضى المندثر .

احتدم النقاش ، طق الخلاف ، علت الأصوات فى اجتماع لم تكن تسمع فيه إلا همسا ، العجيب .. أن الرئيس لم يفه حرفا ، أنما بقى قابعا فى مقعده عند مقدمة المائدة البيضاوية ، الشهيرة ، والتى ظهرت فى العديد من لوحات فنانى المرحلة الكلاسيكية .

يذكر أحد الأساتذة أن صمته بدأ لحظة اثارة الموضوع . لم يسمع صوته فيما تلا ذلك ، أرجعوا ذلك إلى صدمة ماحقة نزلت به ، لم يتوقع أن يسفر الشقاق كما جرى هذه الليلة ، هو من اعتاد تسيير الأمور باشارات من ملامحه أو نظراته بدون لفظ . قال آخرون أنه أدرك بوضوح ادبار أمره ، وأن ما كان لن يكون ، لذا لم يتحمل فسكت ، ولما طال صمته ونظره إلى نقطة غير محددة ، وشرد بوجوده الحسى ، فلم يعد يره أحد ، اجتمع المجلس الأعلى

وعزله ، تفاصيل ما جرى مبهمة ، ترد فى مصادر الجامعة من خلال عبارات عامة ، بشكل ما ، كان الأمر مثيرا للخجل ، فلم تحدث اقالة قسرية إلا مرة واحدة منذ خمسة قرون ، وتفصيل ذلك مثير .

إذ تولى أمور الجامعة عالم كبير بمقاييس عصره ، اشتهر أمره فى علم الفلك ، والأرصاد وتحديد الأنواء ، له معرفة بفن الخط وبعض آثاره موجودة الآن فى القبو ، وله فى هذا المجال تفانين عجيبة ، منها أنه كتب أعمال شكسبير كاملة على حبة أرز ، وخط الكتاب المقدس على بيضة حمامة مفرغة ، كان خبيرا بأنواع السفن ، وطرق بنائها ، هاويا لصناعة نماذج دقيقة تثير الاعجاب ، مع أن المدينة فى منطقة شبه جبلية ، والبحر ناء ، بعيد ، لم يفارقه حلم الرحيل يوما ، أتقن حرفا عديدة مارسها فى فراغه ، منها نجارة الخرط ، والتطعيم بأنواعه، الفضة بالذهب ، والنحاس بالفضة ، والخشب بالعاج ، ونقش الفولاذ .

ومن آثاره المعروضة بالمتحف الصغير ، قفل بدون مفتاح ، يغلق ويفك وفقا لحركات معينة ، وعد هذا من الأعاجيب فى وقته ، عرف بقوة ذاكرته ، إذا قرأ كتابا حفظه ، وإذا سمع قصيدة شعر مرة تلاها ولو بعد عشر سنوات ، يذكر الملامح وأن التقى بصاحبها بسرعة . كما اشتهر بقدرته الفائقة على اجراء العمليات الحسابية بما فيها أعقد عمليات الضرب والجمع والقسمة شفويا دون استخدام قلم .

فى السادسة عشرة قام بشرح كتاب « الجديد فى الحكمة » لابن كمونه فى عشر مجلدات ، ترجم إلى عشر لغات منها الأوردية ، ثم وضع شرحا للشرح فى خمسة عشر مجلدا لكنه لم يطبع ولم يترجم . ويقال أنه عقد العزم على اعداد شرح لشرح الشرح ، ووضع خطته بالفعل . والأصول لا تزال محفوظة ، لكن لم يمتد به الوقت ، بعد أن جرى له ما سنذكره .

من آثاره أيضـا قاموس للغة الاكديـة القديمة ، لم يستعن بمـرجع واحد أثناء اعداده . بوبه وقسمه وصنفه ورتبه مـن الذاكرة . هذا قاموس لم يظهر قبله ولا بعـده ، ومازال مرجعا لا قـرين له ، أتقـن من اللغات القديمـة ستة عشرة منها الأشورية والحميرية والسريانيـة القديمة ، والمسمارية ، كما برع فى علم الطب ، وتوصـل إلى معرفة مسار الدورة الدمـوية فى الأذن الوسطى ، كما وضع تبسيطا لكتاب الحسن بن الهيثم « المناظر » والذى قام فيه العالم العربى القـديم بتشريح العين الإنسانيـة . ورسم مكوناتها ، ومسـار الدماء داخلها ، تؤكد المصادر أنه كان على وشك التوصل إلى تحليل التركيب الطيفى لألوان قوس قزح خلال الدقائق الخمس الأولى بعد نزول المطر مباشرة ، لكن ما جـرى أعاق هـذا كله ، ودفـع البعض إلى التشكيـك فيما تركـه من آثـار متنوعة، مختلفة ، طرقت كل علم . وأحاطت بشتى الفنون .

لا تزال سيرتـه تدرس حتى الآن لطـلاب الصفوف الأولى وتعـد مثالا لما يجب أن يحتذى به الساعـون كل مراتب العلم المختلفة ، وتـركز على مرحلة التكويـن خاصة التـى يشرح فيها كيف بـدأ تحصيله العلم فى سـن مبكرة ، واستيعابه العلوم المختلفة ، وشعوره الحاد بضيـق الوقت ، وقصر العمر عن المطلوب ، وشح الزمـن ، مما دفعه إلى عمل متصل لمدة أربع وعشريـن ساعة أحيانا ، ولجوئه إلى صـب الماء البارد فى أيام الشتاء عنـدما يوشك أن يـدركه الوسـن.

فى فتوته لم تتجـاوز ساعات نومـه ثلاث ساعات ، بعـد العشرين.. أربع ساعات ، وبعد الأربعين.. خمسا ، إلا أنـه بعد الستين عرف الأرق ، حتى بلغ به الأمر أنه لشدة تعبه أحيانا لا يمكنه النوم !.

يبدو أنه انعدام الوسن مع تقـدم العمر وضعف البنية الفاعلة ، وأسباب

شتى ، أوصله هذا كله إلى ظهور أعراض تجاهلتها السيرة الرسمية المقررة ، لكن تشير إليها حوليات البلدية والتى تضم تراجم عديدة لأساتذة الجامعة باعتبارهم من مواطنى المدينة ، وبالطبع مغايرة تماما لما تذكره المصادر الجامعية .

بدأ الأمر بشرود مستمر ، متصل . خلال ساعات الدرس ، ثم ضحكه المفاجئ فى مواقيت الصلاة ، ثم تغير مشيته الوقور ، محددة الخطى ، وتثنيه وتمايله عند اجتيازه الفناء الرئيسى ، ثم محاولته التلصص ليلا على بيوت المدينة ، والتسلل إلى حمام النساء الجماعى نهارا ، فى الليل يخصص للرجال، أعتبر من مفاخر البلدية وانجازاتها الهامة وقتئذ ، أحد أساتذة الجامعة ، بكلية الهندسة قال إنه لولا أسهام الجامعة فى بنائه لما ظهر على خريطة المدينة.

تخفى فى ثياب النساء ، دخل نهارا ، ثم خلع ما يرتديه وراح يجرى وراءهن مثيرا الذعر ، طبعا .. رويت هذه الواقعة بصيغ شتى ، واعتبرت من أسوأ المحن ، حتى أن وفدا من كبار الأساتذة توجه إلى البلدية واجتمع برئيسها لمدة سبع ساعات ، تم الاتفاق على بقاء عدد من التفاصيل سرا على أساس أن شيوعها سوف ينال من سمعة الجامعة ، وربما أدى هذا إلى توقف مجىء الطلاب الأثرياء من الدول الأخرى ، وهؤلاء يحدثون رواجا فى المدينة، أن أتفاقا تم التوصل إليه ، لكن .. بقيت تفاصيله غامضة .

المهم .. تم عزل رئيس الجامعة لأول مرة وهو على قيد الحياة ، حبسوه فى بناء قديم مهجور ، لا يعرف أحد من شيده ، أو أقام به ، ولا تزال آثار من جدرانه باقية ، إذ أقيم مكانه المستشفى الجامعى الذى بدأ نشاطه منذ القرن السابع عشر . ومازال محور خلاف أساسى ، فالبلدية تطالب بالاشراف

عليه لغموض ما يجرى داخلـه ، وهذا أمـر يطول شرحـه ، الجامعة تـؤكد تبعيته المطلقـة لكلية الطب التى لا يتـوقف أسـاتذتها عـن أجراء الابحـاث والتجارب.

ان قرونا خمسـة مرت على عزل رئيس الجامعة ، رغم طـول الحقبة فإن الاستفسار حول مـرضه مما يثير ضيق الأساتذة حتـى الآن . أنها السابقة الوحيدة قبل عزل الرئيس العجوز الذى لم يحتمل امتداد العمر به حتى يرى بعينيه أضـافة الدوائر الثـلاث إلى العباءة الـرئاسية ، اعتزل بغـرفته ، ولم يخرج منها إلا محمولا ، هامدا .

حكايتـه تروى الآن لافـواج السائحين ، أحيـانا يبتسـم البعض عنـدما يصغى إلى تفاصيل الأمـر ، ولكنه عندما ألم به تساءل ، مـن قال على مسمع منه ذات يوم بعيد أن الموت قرار داخلى ؟ وأن الإنسـان يقرر فى لحظة معينة مـن مسيرته البشريـة ،لكن تختلـف المدة ، يبدأ الاحتضـار عند البعـض فى الثلاثين ولا يكتمـل إلا بعد السبعين أو الثمانين ، البعـض يمضى فجـأة إذا وقع خلل بعالمه ، لكـن المفروغ منه ، المقطوع به ، أن لكل أجـل كتاب ، ولكل عمر مقدار مجهول ، لا يزيد أو ينقص عما هو مقدر .

ما جرى لـرئيس الجامعة بسبب اضـافة الدوائر الثلاث ذكـره بصاحب المقهى القـديم ، المشهـور فى مدينتـه ، وكيف قضـى ؟. تعجب للتشـابه بين العنـاصر مع تبـاعـد الأمكنة واختـلاف الأزمنة ، ولا بـأس مـن ذكر الأمـر لانشغاله به ، واستعادته له ، وتأملـه فيه ، إذ أمضى فى زواياه أوقاتا عندما أدركه مكتملا قبل نقصانه ، عندمـا أقام سنين عدة على مقربة ، لكم حن إلى استعادة ولو إلى لحظات دقاق من توهـج مشاعر أو ترقرق صفو ، أو طيب مزاج بصحبة آخرين أحبهم وأحبوه ، ثم ولى عنهم وتباعدوا عنه لأسباب .

لكم حـن وهفا مـع أكتمال ادراكه أن ما فـات لن يعـود ، وما مضـى لن يرجع، أحيانا اذ يستعيد لحيظات حميميته يتعجب ، يتساءل . أحقا كانت ؟ . أحقا اجتزتها بجسـدى هذا ؟ هل يمت حضورى المحسـوس الآن إلى ما كان منى ؟.

تبدو أزمنتـه المستعادة بـالمخيلة كـأنها تخص غيره ، لكنها تلـح عليه ، تتكـأكأ على ذاكـرته ، وتلـغ فى الأوردة المؤدية إلى غـرارة قلبه خـاصة عنـد اغترابه، وسـعيـه إلى ديار بعيـدة عن أصـل نشأتـه ، حيث تقـل الصحبة أو تنعدم الرفقة ، فيسـعى ولا يستقر ، يمضى ولا يقيم إلا فيما لم يعد موجودا.

المقهى وصاحبه ...

.. اختلف عامة الناس والمتخصصون فى عمره ، قدره البعض بمائتين ، وزاد آخرون قرنا كاملا ، وأثبت أجانب أنه كان قائما زمن الحملة الفرنسية ، ثمة لوحة تصور جانبا منه فى كتاب وصف مصر ، الذى أعده علماء الحملة عن البلاد وما تحوى ، وأن بونابرت زاره واحتسى مشروب الحلبة وأبدى أعجابه بنكهته .

فيما بعد اشتهر المقهى بالشاى الأخضر المعطر بالنعناع ، وهذا من عناصر الحنين القوية عند صاحبنا خلال اغترابه ، مهما اختلفت المدة ، طالت أو قصرت ، بمجرد عودته ، يمضى إلى ركنه الذى اعتاد الجلوس فيه ، يبادر إلى احتساء كوب أو اثنين ، ليس مقصودا لذاته ، انما سعيا إلى ما يثيره التوحد من أستدعاء للحظات مندثرة ، وأخرى لا تزال فى رحم الغيب ، تهدئة لاتقاد الجذوة ، ودرءا لعصف الحنين . كثيرا ما ردد : أنه مأوى وليس مقهى. موقعه فى الحى القديم ، القادمون إلى أضرحة الأولياء الصالحين يقصدونه ، خاصة يوم الجمعة ، منهم أهل الريف ، كذا طلبة العلم وشيوخهم ، هذا اليوم بالذات يصعب وجود مقعد خال حتى ما قبل المغيب.

أزمنة شتى تتابعت ، كل منها ترك بقايا أو أودع آثارا علقت بالجدران ، أو رصت فوق الأرفف ، أو تدلت من السقف ، فمن ذلك المرايا الضخمة ،

بلجيكية المصدر ذات الأطر المدججة بزخارف أغريقية ، أهداها أمير من العائلة المالكة فى نهاية القرن ، اعتاد تدخين النرجيلة فى مقصورة خصصت له ، نهاية الممر ، قرب الزهور الصناعية التى أطلعت عليها . وتوقفت أمامها الامبراطورة أوجينى، عندما ثقل جسد الأمير . وقلت حركته ، ذهب المعلم الكبير إلى قصره المطل على النيل لاعدادها له ، يوميا يجىء خادم حبشى يقود عربة ذات جوادين أصيلين ، مرة فى الصباح ، ومرة قبل العشاء ، يصحب المعلم الذى يمضى مباشرة إلى الحجرة الخاصة ، حيث يوقد الجمرات ، ويضبط التمباك ، ثم يشعل الدخان بأنفاسه القوية حتى تسلس ولا ترهق الأمير ، كانا فى البداية يتبادلان كلمات قليلة ، ثم طالت خلوتهما ، وحدثه الأمير عن أدق شئونه ، وأفضى بأسرار جمة ، يقال أن المعلم الكبير كان يخشى مجرد التفكير فيها ، فما البال بترديدها أو الافصاح عنها ، حتى بعد دخول الأمير مرض الموت ، ورحيله ، يتعلق الأمر بدقائق ، بعضها يخص أميرات من العائلة ، لم يفض قط .

فى المقهى أوان خزفية من صنع تركيا ، وبلدان أواسط آسيا ، وسيوف أغمدت منذ أزمنة طويلة ، وقوارير عطور نادرة من زجاج ملون . وسجادة صغيرة من حرير ، عليها رسم مشكاة تطل منها زهور ، صنعت فى هيرات ، أهداهاملك الأفغان المنفى قبل عودته إلى بلاده منتصرا ، علقت إلى الجدار بحيث تعلو المكان الذى اعتاد صاحب المقهى الجلوس فيه ، ولم يغيره منذ ستين سنة ، وقطع خشب مخروط توقف صنعها لبطلان اليد العاملة التى كانت تبدعها وتسويها ، فمن ذلك دولاب صغير يعلق إلى الجدار ، تتخلله زوايا صغيرة من العاج ،وأرفف من خشب أشجار ذى رائحة لا تنفذ ، قوية ، تعبق فراغ المقهى كله خاصة فى صباح الايام الشتوية المشمسة ، تنبعث

هادئة ، راسخة ، تطغى على سائر الـروائح ، حتى التمباك المحترق على مهل بجمرات الفحم ، تبعث راحة وترسل خـدرا ، العجيب أن هذه الرائحة اختفت تماما من الخشب بعد رحيل ابـن المعلم الكبير ، آخر ملاك المقهى ، ولم يفسر أحد سر ذلك .

احتوى المقهـى أيضا على أوان نحـاسية منقـوشة بـالزخـرف الدقيـق ، بعضـها صنـع لاحتواء الماء ، أو لترص فـوقه الأكـواب والأوانى ، ومـن ذلك صينية منقـوشة ، زخارفهـا مورقة ، متفـرعة ، متـداخلة ، تتغير مع حـركة الناظر ، فيصبح المثلث دائرة ، والخط المجرد مـورقا ، والنجمة هلالا ، حدت الزخارف بخيوط الفضـة الممسوسة بالـذهب ، وعدها البعض من العجائب ، هذه الصينية آخر مـا أنجزه واحد من قدامى الصنـاع اشتهر أمره ، لم يكن يعمل إلا قبل غـروب الشمس بساعتين ، وبمجرد غوص قرصهـا عند الأفق يتوقف أيا كان الوضع الذى يعمل فيه ، حتى اعتبر بعض معارفه والمحيطين بـه توقـف يده عـن طرق المسطـح النحاسـى أو المعدنـى علامـة على تمام الغروب، خـاصة فى رمضان ، لم يكـن يعمل وفقـا لتصميمات مسبقة ، أنما كان ينحنـى محملقا فى الفراغ ثـم يبدأ النقـش ، مستخدما أدوات معـدنية ، مدببة بعضـها غليظ كالمطارق ، وآخر نحيـل كالابر ، من بين أصابعه تتخلق النقـوش ، لا يجور شكـل على آخـر ، لم تخرج مـن بين يـديـه قطعتـان متشابهتان ، قلده بعض صغار الصناع ونقلوا عنه ، لكنه لم ينسخ ذاته قط ، مات عن أربع وثمانين سنة . مال رأسه فـوق هذه الصينية التى علقت زمنا طويـلا فى صدارة المقصورة الـرئيسية بالمقهى ، بعـد انتهائه من حفـر آخر نقطة أغلقـت الدائرة الوسطـى التى تتفـرع منها الخطوط والأشكـال . ظنه البعض نـائما ، وعندما حددوه وجـدوا صعوبة فى فـك أصابعه عن المطـرقة الصغيرة والأزميل ، حتى أنه دفن بهما .

احتوى المقهى على ستائر نادرة من الخرز الملون ، صغير الحجم كحبات الذرة ، تتخلله فصوص من مرجان البحر الهندى الأعظم ، تنسدل على فراغات المقصورات المتجاورة على جانبى الممر الرئيسى ، فتحجب وتشى فى عين اللحظة ، هذه الستائر أهداها طالب علم من جزر القمر درس فى الأزهر سبع سنوات قبل عودته إلى بلاده ، واعتاد القدوم بعد صلاة الفجر مباشرة والجلوس صامتا مقدار ساعة داخل المقاصير ، صفت نراجيل عتيقة ، متنوعة الطرز ، أما التى اعتز بها صاحب المقهى ، وحنا عليها ، وأكثر من عنايته بها ، وترفق بوضعها ، فكانت تخص فى الأصل السلطان أحمد العثمانى ، خاتمه وطرة توقيعه على زجاجها الأزرق ، الشفاف ، الرقيق ، كيف وجدت طريقها إلى هنا ؟ . هذا ما لا يعرفه أحد .

حدث أقدم العمال ــ رحمه الله رحمة واسعة ، اذ كان غندورا ، طيب المظهر ، رائق المزاج ، قوى الاهتمام بزبائن المقهى ، قال إن الحاج إذا طرب أو انتشى أو مر بلحظات صفو ، يأمر باعداد هذه النرجيلة ، يضعها أمامه ، يتأمل صور السلطان المرسومة على الوعاء الزجاجى ، وتوقيعه ، يهز رأسه هزتين قصيرتين موجزتين ، متتابعتين ، يعرف الأقربون أنه يمر بذرا صفوه وخلوته مع ذاته ودنوه الأقصى من لب راحته الإنسانية .

أغرب ما يروى عنه ، ما يتعلق بغرفة الزهور والامبراطورة أوجينى ، فى نهاية الممر حجرة جدارها زجاجى . الناظر داخلها يرى ورود الدنيا كلها ، المعروفة فى مصر ، وفى أقصى المعمورة . عندما جاءت الامبراطورة أثناء احتفالات افتتاح قناة السويس ، زارت المنطقة القديمة وأثناء تفقدها المآذن العتيقة والجدران الزمنية للمبانى القادمة من عصور بعيدة ، توعكت قليلا ، وشحب لونها ، رفعت يدها إلى جبهتها ، لم يكن هناك مكان مناسب إلا

المقهى القريب . طبعا سبقها رجال القصر لتنظيفه وتهيئته والتأكد من ابتعاد الشحاذين والدجالين والفضوليين ، اقترح أحدهم على الحاج أحضار أطقم الشاى والقهوة من القصر ، كذا الأكواب الزجاجية الملونة التى لا تخرج من الخزائن إلا فى المناسبات الكبرى ، مثل مولد النبى ، وعيد الجلوس ، أو الحفلات التى تقام للملوك . لكنه أبى ، وقال صراحة أن بعض ما عنده لا يوجد فى القصر .

وقف عند رأس الطريق القصير المؤدى من الميدان إلى المقهى ، وبالتحديد أمام المطعم الايرانى الذى أغلق بسرعة وسدت منافذه لدواع أمنية وخوفا من نفور الامبراطورية أو غثيانها إذا استنشقت روائح التقلية والمرق ، ربما أزعجها ما لم تعتد عليه ، كان المعلم ، شابا فى العشرين ، كان طويلا ، له مهابة ، غليظ الرقبة ، ضخم الشارب ، ورث عن والده حبه وشرهه للأكل والنكاح ، فى هذه السن المبكرة كان يلقب بالألفى ، لأنه ضاجع منذ بلوغه الف امرأة ، زاد عليهن فيما بعد ، لكنه ظل يعرف بذلك ، وأمر فحولته معروف ، وله أطوار غريبة تروى أمرها شائع .

لحظة لقائه بها بدا ثابتا ، راسخا ، قسماتها هى التى اختلجت مسفرة عن رغبة أنثى ، وعندما مد ذراعه لتتكئ عليها طبقا لنصيحة باشا كبير سبق الركب وأطلعه على السلوك الواجب اتباعه وحذره مغبة التقصير . برغم ذلك عند وصولهما إلى المدخل انفصل عنها، فرد يده داعيا للدخول ، ثم تقدمها كما اعتاد رجال الفترة عندما يصحبون زوجاتهم ، لوحظ أنها أفسحت الخطى حتى تلحق به ، وطوال جلوسها بالمقصورة لم ترفع نظرها عنه ، حتى زعم البعض أنها قضت غلمتها بالبصر ، بعد دقائق من الراحة ، وقفت ، مشت فى الممر متعجبة مما تراه ، آهاتها تخفى نشوة أخرى ، يجمع الكل على

تعجبها مما رأته من أزهار فى الغرفة الزجاجية ، فل ونرجس وشقائق نعمان، ولوتس وياسمين ، وأنواع أخرى لم ترهـا ، تعجبت وتطلعت ، أخبرها من له دراية ممن كـانوا برفقتها أن بعض هـذه الأنواع لا ينبت إلا فى الصـين ، أو فى قمم الجبال النائية .

لدقـائق استمر المعلـم يتطلع إليهـم هادئا ، مبتسما ، غير عـابئ بجمال السيدة التى استضافها مليك بلاده وشيد من أجلها القصور واليخوت سعيا وتقربا ، حتى قيـل أنه أشرف بنفسه على رصف طريق ستمـر به عربتهما ، بحيث يميل الارتفـاع بمقدار معين فتضطر طبقا لموضـع جلـوسها المدبر إلى الاتكاء عليه ، هكذا يدنو ويلامس ، لعل وعسى !.

تطلع المرافقون ، أبدوا الدهشـة ، كيف تنمو الزهور فى هذا الحيز الضيق ، ما الذى يجمـع ورود الشتاء مع الصيف ؟ . بعد أن هدأ الكـل ، تقدم المعلم ، فتح الباب والتفت إلى الامبراطورة وعندما هم كبير حاشيتها منعه من اجتياز العتبـة ، أغلق البـاب ، رآه الـواقفـون ، يشير إلى الأزهار ، مـومئـا ، مفسرا ، شارحـا ، لا يدرى أحد أى لغـة نطق ، قال إن هـذا كله مصنوع مـن خيوط الحرير الـدقيقة التى لا يمكـن رؤيتها متفـرقة ، نسجت وصيغـت بمهارة ، أعتى خبراء الـزهور لا يمكنه اكتشـاف حقيقتها إلا بعد اللمـس والفحص ، يبدو بعضـهـا مبلولا بالندى ، ومـا القطيرات إلا مهارة صـانـع ، هذا السر لم يبح به المعلم ولم يفصح عنه إلا للامبراطـورة ، لكنه لم ينطق به علنا إلا بعد الغارة العنيفة التى جرت احدى ليالى الشهـر الأول من السنة الثالثة للحرب العظمى ، تسبب أنفجار قريب فى تدمير الجدار الزجاجى الأمامى الذى توقف عنده خلق مـن شتى الاجناس والملل ، تعجبـوا وتأملوا ، سرعان مـا تلاشت الزهور والألوان ، بـدأ شحوب ثم ذبول ، ثم تحللت ، عنـدما اكتشف العمال

ذلك فـزعوا إليه ، طـالعهم بعينين صامتتين تفيضـان أسى لم يفارقـه حتى يومــه الأخير الذى أوفى به عـامه الرابع والعشريـن بعد المائة وثلاثـة شهور وستة أيام ، هكـذا يؤكد العارفـون ، خاصة رجلا أكبر منـه بعشر سنوات ، قصير القامة ، نحيلهـا ، عنده دكان خياطة بلدى ، ومـازال قادرا على تمرير الخيط الحريرى من سم الابرة ، أكد أنه حضر مولده ، وخاصة يوم السبوع ، أقام والده ليلة ظلت المنطقـة تذكرها لسنوات تالية ، كل فقـراء الناحية أكلوا طبيخا ولحما وحلوى طيبة وأخذوا كفايتهـم لمدة أربعة أو خمسة أيام أخر ، وزع الجنيهـات الـذهبيـة على كـل من حضر ، وغنـى المطـربـون ، وأنشـد المنشدون ، لا عجب .. أنه الولد الأول بعد سـت بنات جثن متعاقبات ، حتى فكر المعلـم الكبير فى تصفية المقهـى عند شعـوره بوهـن الكبر ، لم يقدر على تخيـل شـخص غـريب يقعـد فى نفس الموضـع عند المدخـل ، وينفث دخـان النرجيلة ، ويـدير شئون المكان، لكن ربنـا أكرمه ورزقه بغـلام ، قدر له أن ينمو ويصبح ذائع السيرة ، مشهـور بحسن الخلق ، ورجولـة فياضة ، ألم تفتتن به الامبراطورة أو جينى إحـدى حسناوات عصرها ؟. اعجابها لهج به رجال القصر وأعضاء السلك الدبلوماسـى وقتئذ ، وذكره قنصل إيطاليا فى مذكراته التى نشرت قبل تولى موسولينى السلطة .

بعد انصرافها أبـدت رغبتها فى استدعاء المعلم إلى قصر ضيـافتها لاعداد الشـاى الأخضر المحلى بـالسكر النبات ، والمعطر بـالنعناع ، وبالفعـل .. ركب عربتـه الخاصة التـى يجرها جـواد أسود فـاحم ذو غـرة بيضاء ، أعـد لها الشـاى وسقاها بيديه ، لكن .. هل خلا بها ؟.

لا يمكن لأحد الجزم بالنفى أو الاثبات . أمر صعب ، طبعا رويت عشرات التفاصيل ، خاض أبناء الحى القديم فى الأمر ، طبعا اختلط الواقعى بالمتخيل،

بعد سبعين سنة جاء ممثل الاذاعة البريطانية ، عرض فى البداية عليه شيكا مصرفيا بالعملة الانجليزية ، مقبول الدفع ، على بياض ، مقابل الاجابة على سؤال واحد : عندما مضى إلى القصر ليعد الشاى وخلا بها ، هل نال المعلم ما لم يتمكن منه الخديوى ؟. تطلع المعلم إليه ، أشار بنصف أصبعه أن يقدم ، أن يقترب منه ، فرح الانجليزى ، ظن أنه سيستمع إلى الإجابة ، أشرع جهاز التسجيل ، وعندما دنا متأهبا للجلوس على مقربة ، فوجئ بالمعلم يمسكه من ياقته ، يهزه ثلاث مرات ، ثم يرفعه فى الهواء ويبقيه معلقا بينما الرجل يفرفط برجليه ، لعنه ولعن الاذاعة البريطانية والفضول الذى لا يرحم الحى أو الميت ، ثم قال بصوت سمعه الجميع أنه لو رأى الانجليزى مرة أخرى فسيجعل وجهه مطرح قفاه !.

هرب الخواجه ، ويؤكد الحاضرون أنه بال على نفسه . وامتلأ رعبا ، غير أن السؤال ظل يتردد ، والإجابات عنه تتنوع ، لزم الصمت فلم يفصح ولم يشف غليلا حتى بعد أن طعن فى السن وتداخلت عليه الرؤى ، تهدلت أطرافه. وتثاقلت نظراته ، وصار تحديقه إلى مالا يرى أكثر من نظره إلى المحسوسات ، إلا أنه فى أقصى حالات ضعفه كان يوحى ببنيان قوى قام يوما ، لم يعد يفارق موضعه فوق الدكة الخشبية التى حفر عليها تاريخ صنعها قبل قرنين من الزمان ، حتى الأيام الأخيرة حافظ على ذهابه إلى الحمام التركى مرة كل أسبوع ، ولم يمنعه الوهن عن قضاء حاجته بدورة المياة الملحقة بالمقهى والتى جددها وسواها .

فى شبابه هابه الجميع ، وخشيه القريب والبعيد ، بمن فيهم ضباط الشرطة الذين تعاقبوا ، أتقن فنون المصارعة ، واللعب بعصاتين فى وقت واحد، واستخدامهما بمهارة عند نشوب قتال ، ذاع أمره فى الشقاوة ، وقدرته

على الجماع ، لم تحتمله إلا أمرأة حلبية أقامت فى بيت منعزل بضاحية عين شمس ، لكنه لم يتزوجها ، رغم اقترانه بعدد غير معروف من النساء ، لكنه لم ينجب منهن ، بعد وفاة والده فجأة وبدون مقدمات تفرغ تماما للمقهى ، اعتنى به وبذل المجهود الأتم ، بعد الطواف والتنقل والجرى هنا وهناك لم يعد يفارق المدخل ، لا صيفا ولا شتاء . من فوق الدكة يدير الأمور بنظراته ، لزم النرجيلة ولزمته ، يقابل الجميع بمودة متحفظة ، مقتضبة وتعبيرات لا تتغير إلا عند قدوم عزيز ، ليس بالضرورة من ذوى الجاه أو الشهرة ، كان يخدم بنفسه الملوك ورؤساء الدول ، وكبار العاملين بالمنظمات الدولية والممثلين ، والمطربين ، والشعراء الكبار والكتاب ، ولا تزال صورته وهو يقدم القهوة ضاحكا إلى الفريق عزيز المصرى معلقة ، لكن صورة جمال عبد الناصر جالسا بصحبة اثنين مجهولين اختفت بعد عام من وفاته ، كان يقوم محييا من يقدره هو لا غيره ، لم يتحرك عند رؤيته وزراء . وضباط شرطة كبار ، لكنه انتفض مرارا مجرد رؤيته رجلا عجوزا ملتحيا كان يصل فى نفس موعده كل عام ، يجوب الوادى من بلاد النوبة وحتى ساحل البحرين ، الابيض والاحمر ، يزور أضرحه المشايخ ، كبيرهم وصغيرهم ، يقرأ لهم الفاتحة ، ويوقد عند كل منهم شمعة ، ثم يمضى ، كان المعلم يتبرك به ، ويعد له الهدايا قبل قدومه بشهر ، وينتظر موعد ظهوره بلهفة لا تخفى ، وعند انصرافه ينحنى مقبلا يده ويطلب منه البركة ، كان يبدو مسرورا عند الزيارة، مؤكدا لمن حوله أن والده أوصاه بالرجل الصالح قبل وفاته ، يبدو راضيا ، مرتاحا راحة لا تعرفها قسماته إلا لحظة مناجاته جواده العربى القديم ، امتطى صهوته زمن الشباب ، يقال أنهما ولدا فى يوم واحد ، كان يسرجه ، وينظف جسده ، ويطببه ، ويطعمه ، ويسقيه بيده ماء الورد .

وعندما لزم الدكة ، بان عليه التعب ، وقف جواده الأكحل ذو الغرة إلى جواره، لم يربطـه ، كان طليقا مـن كل قيد ، لكنـه لا يبتعد ولا يجمح أبـدا ، وفى أيام الصيف الحارة يذب عن وجه صاحبه الذباب ، وينحنى ليتشممه أو ليطمئن عليه ، لا أحـد يدرى ، يقسـم أقدم العمال أنهما يتبـادلان الحوار ، كل منهما يفهم الآخر ، أحيـانا يومئ ، فيمد الجواد رأسه ، عنـدئذ يهمس له ، والجواد يهز رأسه أو يهمهم ، أو يطـرق حزينا ، أو يرفـع قائمتيه الاماميين فى حـركة زهو ويصهل بصوت مرتفع متدفق حتى ليسمع من بعيد .

احتفظ أيضا بثلاثة أقفاص بها أربع وعشرون فرخ حمام ، عجيب أنه لم يغلق أبـوابها قط ، يطير الحمام ويرجـع أى وقت ، فى الليل يتململ ويسمع هديله وغطيطه ، يحط بجواره ليلقط حبا أو ليرشف قطرات ، عدد الحمام لم ينقص ، ولم يزد طوال أربعين عاما ، إذا طقت بيضة وأطل زغب أخضر ، كان ذلك يعنـى قرب أجل حمامة كبيرة ، لا يتـأخر الأمر أكثر مـن يومين ، وربما وقع العكـس ، فيسبق الموت الميلاد ، هكـذا مضـى الأمر ، لم يهتـز ولم يختل حتى جرى ما جرى .

ذلك أن رئيـس بلديـة العاصمة كـان جهولا ، غتيتا ، نـائيا ، قـرر إعادة تخطيط الحى القـديم وبنـاء فندق يصلح للسـائحين ، اقتضـى الأمـر أزالة المقهـى ، الحق أن الأمـر لم يتـم بهدوء ، شرع كتـاب لهم شـأن فى الاشـادة بالمقهى ، نبهوا إلى أهميته التاريخية وسرد بعضـهم الاحداث التى جرت فيه ، والشخصيات التى عبرت فضـاءاته ، بدءا من شيوخ الأزهـر الكبار ، وحتى نـابليـون بـونـابـرت ، والزعماء السـان سيمـونيين ، ولاظـوغلى بـاشـا ، والامبراطورة أوجينى ، وجمال الدين الافغانى ، وطبعا .. الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وغيرهـم ، قام بعض محبى المقهى بجمع مئـات التوقيعات ،

نجوم فن ، ورياضة ، ورجال قضاء ، وأساتذة أجلاء ، وندامى أنسوا إلى أركان المكان وزواياه وأمضوا مقادير من أوقاتهم . غير أن هذا كله لم يزد رئيس البلدية الا اصرارا وعنادا ، تحدد يوم معين للإخلاء ، وبدء الهدم .

المعلم تابع ما يجرى صامتا من فوق الدكة ، يجيئه المريدون فيهونون ، ويذكرون احتمال صدور أمر عال بوقف هذا العبث كله ، كان يصغى ولا يهز رأسه ، لا يومئ ، لا يجيب باشارة ولو واهنة ، وعندما امتنع الجواد الأكحل عن تناول الطعام لمدة ثلاثة أيام قبل الموعد ، وعندما كمن الحمام فى الاقفاص ، كف عن التحليق أو تناول الحب ،وتوارى كل صوت . بدأ ذبول واضح حول عينيه ، كان يردد الطرف بين الجواد وأقفاص الحمام ، وترتجف شفتاه بما لم يفهمه أحد ، ولم يدركه الأقربون .

صبيحة اليوم المحدد لرفع أول معول هدم ، ناداه أقدم عمال المقهى فلم يجب ، كان يسند رأسه إلى يده ، متمددا على جنبه الأيمن ، مشيرا بسبابته ، علامة التوحيد ، فوق الأرض انفرط الجواد ، إذا بانت ضلوعه ، هزل قوامه ، لم ير من قبل إلا واقفا ، متخايلا ، إذا تلمس راحة رفع أحدى قوائمه لحيظات . سقطت حمامتان من القفص الثانى ، أما ما تبقى فاضطروا إلى الصعود على سلم متحرك لاخلائه ، تجمع القوم ، عظم التأسف ، صاح شيخ ضرير ، ضخم البنية ، اعتاد تدخين النرجيلة صباح كل يوم ، أمر الواقفين بستر جثمان الراحل فللموت حرمة ، عندئذ أقدم الكل ، بكى العمال كثيرا ، خاصة عندما عثروا تحت رأسه على لفافة تحوى قماش كفنه . وسائر ما يحتاج إليه فى رحلته الأخيرة ، توسده مدة طويلة لا يدرى أحد مقدارها ، لم يستطع العيش حتى يتنفس هواء يوم يرتفع فيه معول الهدم .

هكذا وجدوا رئيس الجامعة فى غرفته الخاصة ، مرتديا ملابسه الرسمية

التى لم يظهر بها إلا عند مناقشة الرسائل العلمية المتقدمة ، والعشاء الطقوسى ، كان ملتحفا بالعباءة الخالية من الدوائر الثلاث ، لم يقدر على الاستمرار حتى يضعها ويراها مرغماً ، دفن بها ، كانت آخر عباءة من الرسم القديم ، كانت معدودة من أجل الشارات . لكن .. لحقها ما يطال كل شىء..

عــود إلــى الأزيــاء

.. تؤكد وثائق الجامعة أن تصميم الأزياء وتطورها ليس مصادفة، كل جزئية ذات دلالة ومعنى ، ترتبط بمرحلة أو حدث معين ، الالمام بتاريخها جزء هام جدا يمتحن فيه المتقدمون لشغل مناصب الاستاذية . تماما كما يجب الالمام بطقوس العشاء الأسبوعى وحفل قبول الطلبة الجدد . والحفل الختامى ، وتوديع الخريجين الذين أتموا المدة .

خلال القرنين الأخيرين لم يطرأ أى تغيير يذكر عدا تلك الدوائر التى ظهرت بعد تأسيس الدولة الاتحادية ، الألوان ثابتة صيفا ، وشتاء . مادة القماش متغيرة ، فى الصيف من كتان ، وفى الشتاء من صوف . الحذاء يغطى الساق ، يصنع من الجلد البلغارى . فى المدينة بيت اختص بعمل الملابس وتوفير خاماتها ، يتوارث الحرفة أبا عن جد أسرة قديمة الأصول ، عمل كل أفرادها فى الحياكة . احتفظوا بسجلات قديمة فيها مقاسات الاساتذة ، والتغيرات التى طرأت على أجسامهم ، خاصة عند الانتقال من الشباب إلى الشيخوخة وما يستتبع ذلك من نقص أو بدانة . لكن يبدو أن تفصيل أزياء الجامعة لم يعد يفى بالحاجة ، كما أن لوازم القماش أصبحت مرتفعة السعر مما جعل الأزياء خارج المتناول بالنسبة للكثيرين ، ثم لحقت الضربة المؤثرة بعد الحرب العالمية ، عندما أنشأ أحد رجال البلدية أثر تقاعدة مباشرة

مصنعا لتفصيل الملابس ، بدأ بالطلبة ، ثم تدرج إلى الاساتذة . وبرغم التقاليد الراسخة ، والحدود الفاصلة ، فإن احتياجات الواقع أقوى ، وهذا معروف مجرب فى غير عصر . قل الطلب على ما تنتجه الاسرة ، انصرف أفرادها ونسوا المهنة عدا أب عجوز وزوجته وشقيقته الصغرى التى تجاوزت الآن السابعة والسبعين ولم تتزوج ، يقال أنها أحبت فى صباها طالبا جامعيا قدم من الشرق ، ثم استدعى إلى وطنه فجأة واختفى خبره فذهلت عما حولها، حتى أنها تحتفظ الآن بزيه الذى لم يتسلمه فى مخدعها ، وتثق أنه سيرجع يوما ، وأنه لن يخل بوعده لها ، أمرها معروف ، ذائع ، تماما كالصينيين الذين يقيمون منذ عشرات السنين قرب البرج فى انتظار طلة أميرهم الشاب ، وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه ، المهم .. أنها لا تسترد وعيها إلا عندما تمسك الابرة والخيط ، تصم حواسها عن كل ما ليس له صلة بعملها ، أصابعها طويلة ، نحيلة ، أن الثلاثة آخر من تبقى للعمل فى تفصيل الأزياء ، الابناء تفرقوا ، الاكبر التحق بالاسطول وأصبح ضابطا يعمل على غواصة . الثالث سافر للعمل حفارا بتروليا فى الصحراء الليبية ، أما الابنة وهى الوسطى فتعمل فى المستشفى الجامعى ممرضة ، منذ سنوات تعيش بمفردها فى الجانب الآخر ولا تزور والديها إلا على مسافات متباعدة .

حرص مجلس الجامعة على تفصيل العباءات الرئاسية عند الاسرة حتى يتوافر ضمان لاستمرارها . ومن الثابت أنه رفض عرضا تقدم به مصمم أزياء باريسى شهير أبدى استعداده لتصميم زى جديد للطلبة ، وأزياء للاساتذة تساير التطور . فى بداية الخمسينيات وقع تطور هام ، إذ سمح للطلبة بارتداء الأزياء العادية ، لم يعد ممكنا أن يمضى كل شىء كما كان فى الماضى ، لكن لم يحدث تعديل بالنسبة لهيئة التدريس ، وحافظ موكب

الافتتاح على خصوصيته ، كذلك احتفال يوم التخرج ، ويوم تقليد أحد الباحثين الشهادة العليا عندما يطلق النفير الجامعى إيذانا بارتداء العباءة العليا . وعندما استخدمت البلدية صور المواكب التقليدية فى ملصقاتها السياحية والكتيبات الدعائية ، توقع الكثيرون احتجاجا جامعيا قويا ، لكن لم يحدث شىء! المبانى لم تتغير .

عندما جال فى المدينة ، ومشى متمهلا فى شوارعها رأى الواجهات عتيقة ، لكنها مجلوة ، نظيفة ، الزمن القديم يرقد فى المداخل الفسيحة ، والزوايا المظللة ، ولكن كل شىء ذو رونق كأن الفرا غ منه تم بالأمس .

وثائق الجامعة تؤكد أن الحفاظ على الطابع يرجع الفضل فيه إلى مهندسى الجامعة ، بينما تفند البلدية ذلك ، وتؤكد أن الخطط والمشاريع مجرد حبر على ورق بدون بلدية صارمة ، واعية ، يتمتع رجالها بحس تاريخى وثقافى ، وحب عميق للمدينة ، وتشير المصادر دائما إلى الوقفة الحازمة فى مواجهة رجل الأعمال القوى ، واجباره على سحب معداته ، ومن ثم اجهاض مشروعاته ، لو نجح وأقام المبانى التى خطط لها لبدأ التشويه فى الفراغ السحيق ، أما العمارات التى يدب إليها خلل ، وتوشك على الانهيار ، فيتم الاحتفاظ بواجهاتها أما التصميم الداخلى فمن شأن المالك .

من هنا كانت واجهة الفندق مقسمة إلى ثلاثة طوابق فقط ، أما الداخل فيتكون من ستة ، أمضى وقتا يحاول التوفيق تدركه الحيرة عندما يتطلع من النافذة إلى الطريق ، عند أى مستوى من الواجهة تقع غرفته ؟. كيف تبدو الغرفة من الداخل حديثة ؟ النافذة مؤطرة بالمعدن ، من الخارج لا أثر لها .

كثير من الأمور بدا له غامضا ، مستغلقا ، تفاصيل عديدة تكشفت وانجلت عبر حوار أو قراءة أو ادراك كنه العلاقة بين أمر وأمر ، لا يمكنه

أرجاع كل ما وصله إلى أسباب بعينها ، هنا لابد من ذكر ملاحظة ، أنه ما من تفصيلة مهما دقت وردت فى هذا التدوين إلا أحاط بها ، وما لم يطلع عليه لم نذكره لأنه خارج الساحة .

أن أمورا لا حصر لها أثـارت دهشته منـذ وصوله ، لكنـه لن ينسـى أبدا عجبه عندما أتصل به موظف الاستقبـال أثناء تهيئه للرقاد ، أخبره بوصـول رسالة عاجلة .

مظروف يحمل اسمه ، حـروف عربية منسقة ، مشكولة ، يطلـب كاتبها الاتصال به فى الرقم الموضح لأمور هامة .. صاحبك المغربى .

لــقـــاء

.. من ؟.

من هو ؟ . لم يلتق به قط ، وسيتناول العشـــاء عنده بعد قليل ، بالأمس .. أثناء ترتيـب أوراقه فى مدينته النائية الآن ، لم يفكـر فى مجرد احتمال تناوله العشاء فى بيت يقع هنا ، فى شارع لم يطـأه . تساءل فقط عن شكل الفندق ، عمن سيلتقــى بهم فى الرحلة ، من سيصغـون إلى بحثه ، إلى ما سيقولـه من آراء؟. عند الشروع فى السفر يتوثب للقاء المجهول ، للنظر فيما لم يقف عليه . لكن .. أن تصله رسالة بعد دقائق من وصوله ، فى مدينة لا يعرف فيها أحد ، فهذا ما لم يطرأ بذهنه .

كان مـرهقا ، لكن عنـده تحفز ورغبة ، رؤية مـا لم يشهده وما لـن تقع عيناه عليه مرة أخرى ، احتمال مجيئه مرة أخرى شاحب ، نادر ، « بعد عشر دقائق ستصل إليك سيارة .. » .

لم يقدر على التعلـق بملامــح محددة ، الطرقـات ضيقة ، اتجاه واحـد ، مبلطة بـالحجارة ، منحنيات مفـاجئة ، أضواء قليلـة تشع واهنة مـن خلف الستائر ، ساحة متسعة نسبيا ، يتفرع منها طريق مرتفع ، تختفى الأقواس الحجريـة ، وتسفر المداخل المؤدية ، فـوهات غير منتظمة . مؤديـة إلى عوالم يجهلها .

عندما تـوقفت العربة أمـام البيت الصـغير ، يحده سور خارجـي ، يبدو المكان أشبه بضاحية ، يتقدم مضيفه ، صـعـب تحديد عمره ، لكنه لا يقل عن الثلاثين ، ولا يزيد على الخمسين ، ابتسامة لا تخلو من تكلف .

منضدة بيضـاوية مـن الرخـام الملون ، الأخضر غـالب ، تتخلله خيوط حمراء ، أول ما وقعـت عيناه على زجـاجة نبيذ يـاقوتية ، بجـوارها فتـاحة معدنيـة ذات العمود ملولبـة ، محاطة بـأطباق من الجبـن ، شرائح طماطم ، قواقع بحر ، زيتون أسود .

تتجدد عنده طـاقة ، ويصدر عنه اقبال . اعتاد شرب النبيـذ عند سفره ، زجاجة كبيرة كاملـة مع الغذاء ، أخرى مع العشاء ، لكنـه بمجرد العودة إلى مستقره يكـف فكأنه لم يذقـه قط ، يرتبط عنـده بالرحيل ، ممـا رغبه جمع الزجاجـات الفارغة للأنـواع المختلفة ، لكنه لم يشرع ، شأن أمـور أخرى لم تخرج عن دائرة الخواطر ، يضيق بتناوله منفردا ، إلا عند امعانه فى الوحدة ، وايغالـه فى شفق كابـى ، الوحدة أمر مكـروه عند الشراب . بغضه القـدماء ، قالوا ، لا يضطـر إليه إلا من فقد نـديما مساعدا أو خليلا مـوافقا ، ورأى أن لزوم الانفراد ضرورى للحاجة الإنسانية .

مما الم به أن المدينة بها نوعان من النبيذ ، الأول جامعى ، ينتج فى المزارع التابعـة لكلية الزراعـة عند بدايـة الطريق المؤدى إلى الجنـوب ، أوقفها أمير الناحية منذ ستة قرون ، بها شجيرات كروم نـادرة تم جلبها فى أزمنة غابرة من بلـدان نائيـة كان الـوصول إليهـا لا يتم إلا بشـق الأنفس . يخصـص المحصول كله لانتاج النبيذ الذى اشتهر أمره ، يقتصر بيعه على المدينة ، كمية المنتج محدودة ، ثمة أنواع خـاصة جدا لا توجد خارج الجامعـة ، ما يتناوله الاساتذة فى العشاء الأسبوعى ، هذا أحمر ؛ ثـم نبيذ الحفلات الرسمية التى

تقام تكريما للطلبة الذين أنهوا مراحلهم الدراسية . وهذا أبيض . تشرف كلية الزراعــة على مزرعتين ، الأولى تلك الخاصــة بالكروم ، والأخـرى تجريبية لاختيار محاصيـل جديدة ، أو عملية تطعيـم نوع بنوع آخـر ، ولهم فى ذلك أمور عجيبة .

الصنف الثـانى تنتجه البلـدية ، يؤكـد الذواقـة أنه أقل جـودة ، أشهره الوردى، أما الأبيض فأقل جودة ، يعد ويعبأ فى مصنع حديث ، المسئول عنه من كبار الموظفين ، يتم تسويقه من خلال ادار ة المحاصيل ، يتم الاعلان عنه عبر وسائل الاعلام الحديثة ، ويقدم فى الفنادق الكبرى بالمدن الأخرى لكنه لا يرقى إلى مستوى النبيذ الجامعى ، خاصة الأحمر المعتق فى براميل خشبية قديمــة ، لا يمكن العثـور عليه إلا فى ثـلاثة مطـاعم خـارج البلاد ، الأول فى باريس . والثانى فى نيويورك ، والثالـث فى طوكيو ، مكلف جدا . حتى قيل أن القدوم إلى المدينة لاحتسائه أقل تكلفة من قيمة وجبة فى أحد هذه المطاعم !.

إليه تمت هذه الزجاجة الماثلة ، القائمة . أنه ناعم المذاق ، لطيف الحضور، بطىء التـأثير ، خافـت السريان ، باعـث على الميل . قال المغـربى إنـه خشى امتناعه عن الشرب ، يبدو مسرورا بعد صب السائل الياقوتى ، اتحاد الزجاج باللون ، رفع كأسه . تتلامـس الحافتان ، أقبل مبتهجا .. لكنه لم يطلعه على خصيصته ، ارتباط شرب النبيذ عنده بالسفر ، بالاغتراب .

بيت ينبـئ بيسر أحوال ومقدرة . لم تطل حيرتـه أو تساؤله عـن أسباب الدعوة غير المرتقبة . قال المغربـى إنه اطلع على أسماء المدعوين إلى الاحتفال فى الجريدة الناطقة بـاسم الحزب الراديكالى المساند للجـامعة ، اتصل بعدد من المسئولين ، عرف مـوعد وصوله ، ومكان اقامتـه ، حرص على مقابلته فى اللحظات الأولى ، لم يتمكن مـن انتظاره فى محطة القطار ، كما أنـه خشى رد

فعل لا يمكنه التنبؤ به لانعدام العلاقة ، اضافة إلى اعتبارات أخرى سيوضحها فيما بعد ، تحدث عن اقامته منذ عشرين عاما . جاء إلى هنا مجردا ، تقلب فى أعمال شتى . مر بأطوار عديدة حتى وصل إلى ما هو عليه الآن ، يدير مؤسسة تمتلك عدة شركات تعمل كلها خارج البلاد ، أحب المدينة لاسباب شتى ، أهمها تفردها وخصوصيتها .

« أنت ضيف على الجامعة ، وستمضى هنا أسبوعا .. » .

يومئ .

« طوال اقامتك بيتى بيتك ، أننى أعيش هنا .

بمفردى ، ابنتى تدرس فى الجنوب وامرأتى مقيمة فى الشمال .. »

ما يقوله تمهيد لشىء آخر يتأهب لذكره . يميل حتى يوشك أن يلامسه :

« هذه المدينة تعيش صراعا قديما ، يخبو ويظهر .

لكنه الآن يمر بمرحلة حساسة ، لذا وجب الانتباه »

قال إن الخلاف بين الجامعة والبلدية أمره قديم ، غائر الجذور ، ربما لا يشعر به الغريب ، العابر ، لكن يمكن أن يقع فيه رغم ارادته ، خلاف موجود فى تفاصيل الحياة اليومية ، يعيشه الجامعيون ، وسكان المدينة أيضا .

« أنت الآن طرف ، ألم تحضر للمشاركة فى احتفال بمناسبة مرور تسعة قرون على تأسيس الجامعة ؟ »

وصل تأثير الشراب الياقوتى إلى الأطراف الحدودية ، توشك حواسه ادراك أطياف غير مرئية منبعثة من الحشائش القصيرة ، والشجيرات المتوارية فى الليل ، والزهور المنطوية ، يكاد أن يتلاءم مع الموجودات ، لكن شيئا ما فى حضور المغربى ، ومسا خفيا فى لهجته ينمى عنده قلقا .

« جوهر الصدع ، أيهما الأسبق ، الجامعة أو المدينة ؟.

والاحتفال الذى تشارك فيه يؤكد أنها الجامعة .. »

فيما بعد ،استعاد وجه الرجل وملامحه ، القسمات الرخوة ، اللهجة المحملة بالنذر ، مشيئته المتمهلة عندما دعاه لرؤية البيت من الداخل ، متحف صغير ، ذوق رفيع ، منمنمات فارسية من القرن السادس عشر ، أطال تأمل احداها ، صغيرة ، مستطيلة ، يتوسطها شيخ آسيوى الملامح يمسك وردة ، فى قعدته غرابة وفى تطلعه غموض ، أما الوردة فلها حضور إنسانى عجيب ، تحسس الملمس الحريرى لسجادة تركية المنشأ ، قال إنه اشتراها بمبلغ كبير، صانعها بكى دمعا عندما سلمها إليه ..

« لم يشأ مفارقتها .. »

ترى كم أمضى فى صناعتها ، صعب عليه مفارقة ما أبدعته يداه ، رأى مشغولات فضية يمنية ، وأوان خزفية فارسية ، وصناديق خشبية مطعمة بالفضة والفيروز ، مغربية ؛ لوحات أصلية ، وحليا من جهات شتى ، ما أطلع عليه كثير ، يعكس دقة انتقاء ، بقدر ما ينم عن ثراء ، لماذا لم يسأله ، إلى أى جانب يميل هو ؟. صباح اليوم التالى ، أفاق وعنده فضول ، رغبة فى لقاء المغربى مرة أخرى ، قلب أوراقا تحوى مقالات ومعلومات حول الصراع ، زوده بها ، شدد عليه أن يخفيها ، الحق أن المغربى أضاء له جوانب شتى ، وسهل عليه ادراك ظواهر كان ممكنا إلا يلحظها ، أو تبدو له مبهمة ، مستغلقة .

أيهما الأصل ؟؟

قضية لم تحسم ، ومشكل لم يحل ، حتى الآن مثار أخذ ورد ، بدأ منذ زمن بعيد لا يمكن تعيينه الآن ، واتخذ وجهات عديدة ، لكنه ظل مستمرا ، أحيانا يخبو . ومرات يشتد ، البعض فقد حياته أو حريته ، الأمر جد ، لكن .. أى أسباب كامنة ؟ أى عوامل فاعلة ؟. لا يوحى الظاهر بشىء ، تبدو المدينة هادئة ، راسخة الفاعلية والقبول . تقفز طرقاتها بعد الغروب ، حتى السهر نسبى ، المقاهى والمطاعم تغلق عند العاشرة ، قرار قديم أصدرته البلدية فى منتصف القرن الماضى لأسباب مجهولة الآن ، مازال ساريا ، مكان واحد مفتوح طوال الليل والنهار ، انه مقهى محطة القطار ، لكن .. لا يقصده إلا المسافرون ، وظهور غيرهم يثير الريبة .

اعتاد عند نزوله بلدا غريبا أن يتعسس أحوالها الأمنية ، هل يوجد خطر ؟ هل يتزايد ليلا ؟ هل يمكن التجوال بمفرده؟ أى مناطق يجب أن يحذوها ، إلى أى ساعة يمكن السهر ؟، طبقا لما يقف عليه يضع الخطة !.

مما ألم به هنا ، وجود عصابات دولية تتعقب الأغراب ، لسرقة جوازات سفرهم وأوراقهم ، نشاطها سافر فى العاصمة الاتحادية ، لكنه ليس منعدما هنا ، فقدان جوازه هاجس يحتاط له ، يخشى مجرد وروده عليه ، ما الحال إذا وقع ؟ . لا ينام إلا بعد الاطمئنان عليه ، يضعه تحت وسادته ، فى الليل يتحسسه ، وإذ يخرج لا يتركه فى خزانة الفندق .

بشكل عام المدينة آمنة نسبيا والسبب وجود الجامعة ومحدودية سكانها، كما أن قصادها محدودون ، ممن لهم اهتمامات معينة ، أو ممن يريد المشى فى المواضع التى عبرها مشاهير المفكرين ، والكتاب ، والموسيقيين، والرسامين الذين تعلموا أو عرضوا فى القاعات الشهيرة ، والمعماريين والمخططين ، والعلماء الباحثين الذين درسوا الطبيعيات ، والعلوم الهندسية والذين أحدثت اختراعاتهم طفرات هائلة فى مسيرة البشرية .

برغم الهدوء البادى فإن أحداثا صغيرة ـ أو هكذا تبدو ـ تقع فجأة فتثير الروع . منذ عشر سنوات اختفى طفلان ، الأول فى السادسة ، والثانى فى الثامنة ، سرعان ما تردد أن أشخاصا اختطفوهما لحساب الجامعة ، حيث ستجرى عليهما تجارب ، ويتم استئصال بعض أعضائهما فى المستشفى التابع لكلية الطب العليا ، لا يخضع لاشراف البلدية ، كاد الأمر يؤدى إلى كارثة عندما خرجت مظاهرة ـ وهذا نادر هنا ـ اتجهت إلى الساحة الامامية ، خرج إليهم عميد الكلية ، وهو من أشهر جراحى القلب فى العالم ، خطب فيهم مهدئا ، ومتهما عناصر معينة فى البلدية تهدف إلى السيطرة على المستشفى لاغراض خفية ، لكن يعلمها المسئولون فى العاصمة الاتحادية ، صاح معلنا بصوت حشرجه الانفعال ، أن المستشفى جزء لا يتجزأ من كلية الطب ، العاملو ن به أقسموا على الاستشهاد عند عتباته دفاعا عنه ، وكلهم من أهالى المدينة ، ما من غريب واحد بينهم .

انصرف القوم بعد وقت غير قصير ، لكن بعد مضى عام سرت شائعة لا يدرى أحد مصدرها ، أثارت الذعر فى البيوت كلها ، مؤداها أن فرقا من المستشفى تطوف على مدارس الصغار بحجة تطعيمهم ، لكن غرضهم الحقيقى سحب كميات من الدم لتخزينها وبيعها بالعملة الصعبة، فزع

الأهل مفارقين بيوتهم ، ودوائر أعمالهم ، واصطدمت العربات ببعضها ، وتماست المناكب عند الهرولة ، سعيا لسحب أولادهم ، ولم يهدأ الأمر إلا بعد جهد جهيد بذله رجال الجامعة أجمعون . ثمة نقاط أخرى يبدو فيها الخلاف ، وأن بدا كامنا ، مستترا ، من ذلك العيد القومى ، معروف عيد الجامعة الكبير ، الذى يقام كل مائة سنة ، أنه المئوى ، ولكن فى كل سنة تحتفل الكليات كلها بيوم نزول الفلاسفة الاربعين أراضى الناحية ، وهناك عيد انتهاء الدراسة ، وأيضا عيد بدئها ، لكل طقوسه ، ومفردات مشاهده . فى المقابل لم يكن للبلدية مناسبات خاصة ، كل ما يتم الاحتفال به ، أعياد عامة تحتفل بها كل الولايات ، مركزها العاصمة الاتحادية ، عدا بعض الطقوس العامة الخاصة بفئة أو طائفة أو أتباع دين أو مذهب ، مثلا .. احتفال الصينيين المقيمين بذكرى غياب أميرهم واختفائه المباغت ، أو خروج الامير العربى بصحبة حاشيته فى العربات ذات النوافذ المعتمة مرتين فى العام للاحتفال بمناسبتهم الخاصة ، ثم رجوعهم إلى الفندق الذى كان يعرف قديما بمربط الفرس ، وأن توقف الأمير عن ذلك خلال السنوات العشر الأخيرة.

قرر العمدة الذى تولى شئون البلدية فى نهاية القرن الماضى ، تحديد يوم معين لاتخاذه عيدا قوميا ، طبعا روعيت اعتبارات اقتصادية سياحية ، مثل حلول اليوم صيفا ، لترتيب طقوس معينة ، منها الرقصات الشعبية ، ومد أسمطة المأكولات الشعبية ، لجذب السياح الاجانب ، وترويج الأحوال ، وتاريخية أهمها الا يكون للجامعة أى صلة من قريب أو بعيد بذلك اليوم .

هكذا .. وقع الاختيار على يوم معين من شهر أغسطس ، يقال أن معركة كبرى نشبت فيه بين أهالى المدينة وكتيبة من جنود الجيش الشمالى ،

المعادى، الذى اجتاح البلاد وقتئذ ، استشهد فى القتال سبعون مواطنا ، أقيم لهم نصب تذكارى كبير فى الساحة الواقعة أمام مبنى البلدية ، فى الصباح المحدد يتوجه عمدة البلدية لوضع أكليل من الزهور ، بصحبه كبار المسئولين، ثم يفتتح الاجتماع الاستثنائى للمجلس ، بعده يخرجون إلى ساحة الاحتفالات حيث يجرى العرض الاحتفالى ، وتمر فيه عربات الشرطة المحلية ، وقوات المطافئ ، وحدات الاسعاف ، تلاميذ المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية ، وعمال النظافة ، والنقل العام . وانارة المصابيح الغازية ، وتقدم الفتيات رقصات خاصة بالمدينة فى الهواء الطلق ، ثم يفتتح السوق الكبير السنوى الذى تشارك فيه الجمعيات الخيرية ، والمنظمات الاجتماعية التابعة للحزب الحاكم ، وهيئة رعاية المسنين .

عبر السنوات المتتالية أضيفت تفاصيل عديدة إلى الاجراءات الطقوسية ، والحق أنه أصبح يوما مشهودا ، ومقصدا للزائرين ، وأهالى المدن القريبة .

غير أن حكايات عديدة سرت همسا بين أهالى المدينة ، وجهرا بين طلبة الجامعة ، مؤداها أن البلدية بالغت كثيرا فى اختيار اليوم ، واضفاء القداسة عليه . وحقيقة الامر ـ كما تثبت بعض وثائق الجامعة السرية ـ أن رجلا شاردا ، لا يعرف أصله أو فصله ، تسلل ليلا إلى معسكر الكتيبة المعادية ـ وفى قول آخر مجرد فصيلة ـ ليسرق فطيرة بعد أن فاحت رائحة الخبيز من الفرن الميدانى وقت العصر ، وعندما شعر الحراس به أطلقوا النفير ظنا بوقوع هجوم معاد ، لم يكتفوا بقتله ، أنما قرروا صباح اليوم التالى تجريد حملة تأديبية ضد المدينة ، حتى لا يتكرر مثل ذلك ، نزلوا شوارعها ، اقتحموا البرج ، ودخلوا البيوت ، وفتكوا بكثيرين ، وافتضوا أبكارا ، وكادوا يشعلون النيران فى مبانى الجامعة ، لولا تراجعهم فى آخر لحظة ، لم تقع مقاومة عامة،

أو منظمة ، أنما بضع حالات فردية قمعت على الفور ، أذن .. أساس العيد القومى الذى اختارته البلدية واقعة سرقة .

نمى ما تردد إلى المسئولين ، وبالطبع اتهموا الجامعة ، وعناصر معينة فيها بالترويج لمثل هذه الشائعات الكاذبة ، التى تنال من التاريخ الوطنى ، كادت تقع أزمة ، ولكن لم تخرج تفاصيل هذا الصراع إلى العلن ، فالخلاف مهما عمق له حدود يحرص كل طرف ألا يتعداها ، ويظل هذا كله مجرد أعراض ـ تختفى حينا ، وتتجدد مرات أخرى ـ للخلاف الاكبر ، الاساسى ، ومحوره .. أيهما أسبق ؟ الجامعة أو المدينة ؟.

بالطبع ، لكل طرف حججه ، وأيضا وثائقة ، ومصادره ، وطرقه فى أثبات هذه النقطة أو تلك . واجتذاب هذا الطرف أو ذاك إلى صفه ، لا يقتصر الأمر على الوثائق ، هناك الحكايات المتداولة ، شفاهة ، بعضها دخل فى عناصر العقائد المستقرة ، والعادات القديمة الأصلية أو المكتسبة ، بل منها ما أصبح جزءا من حضور المدينة ذاتها ، ومن أشهرها حكاية الفلاسفة الاربعين ، أطلع عليها فى كتيب صغير يصف أشهر آثار المدينة ، ومبانيها العتيقة ، وجده فى الحقيبة الصغيرة التى تضم أوراق المؤتمر ، ثم قرأها مرة ثانية فيما بعد ، عندما انفلت الترتيب ، وخرج عن طوعه .

الفلاسفة الأربعون

.. يقال إنه فى الزمن القديم الذى لا تسفر ملامحه الآن ولا تبين ، قبل تكون المجتمعات وظهور الامارات ، قبل مجىء القومية الرئيسية فى البلاد التى جاءت عبر هجرة جماعية كبرى من وراء الجبال القصية فى الشرق واستقرت هنا ، يقال إنه قامت مملكة قوية فى جزر البحر المحيط النائية ، تعاقب عليها حكام عديدون ينتمون إلى أسرة واحدة . حتى اعتلى أحدهم العرش وكان صغيرا ، طائشا ، ضيق الخلق ، فى عصره رجع الفلاسفة الذين رحلوا إلى الشرق بأمر والده للإطلاع على الأمور وأخباره بها ، عادوا بمعارف جمة ، وأخبار عجيبة ، وأسرار كثيرة ، تحدثوا بهذا كله ، وأصغى الناس ، ضاق الملك الشاب بهم . رأى فيما يرددونه عوامل جالبة للفتن والقلاقل ، أمر بالحوطة عليهم خاصة بعد أن تكلم أحدهم عن طرق ممهدة ، ومصابيح تضىء ليلا ، وآلات تنبعث منها أنغام مرقصات ، مطربات ، وبيوت مبنية من حجارة ، قرر نفيهم ، أمر بترتيب قافلة تمشى أربعة شهور كاملة لا تنقص يوما ، شهران فى البحر ، وشهران فى البر ، آخر يوم تضع أحمالها ، تتركهم فى الموضع الذى تصل إليه ، جرى تنفيذ ذلك بدقة كاملة .

تركوا بمفردهم بعد فك قيودهم ، بدون زاد ، أو أية حوائج عندئذ بدأوا العمل ، لم يضيعوا لحظة ، كان عددهم أربعين ، وكبيرهم فى الخمسين ، فى المدينة أربعون مقبرة ، تسع وثلاثون ظاهرة ، مطروقة ، أما المقبرة الاربعون

فمجهولة ، موضعها خفى ، مندثر ، الجامعة تبحث عنها ، والبلدية أيضا ، المقابر عند النواصى الظاهرة ، وفى الطرقات الضيقة ، واحدة فى الحديقة الدائرية ، على كل منها كتابة بالقلم الغريب الذى لا يفهمه إلا ذوى الاختصاص ، أهالى المدينة والنواحى المجاورة يتبركون بها ، يوقدون الشموع فى مواقيت محددة ويضعون النقود الفضية المستديرة فى أطباق صغيرة مكشوفة ، لا يقربها أحد ، غير معروفة الجهة التى تجمع النقود ، يقال أنها ادارة الجامعة التى تحولها إلى ميزانية قسم الآثار القديمة بكلية العلوم الإنسانية ، الذى يتولى أعمال الترميم والصيانة الدورية ، المعترف بها، وهذا غير مؤكد ، إذ يقول البعض إن البلدية تجمع النقود وتضيفها إلى ميزانية المنشآت المدنية ، ويهمس آخرون أن ثمة اتفاقا قديما غير معلن ، غير موقع ، يقضى بتوزيع المبالغ مناصفة بين الجهتين ، على أى حال لا يمكن القطع أو التحديد مع أن الأمر ميسور !.

المهم .. بدأ الفلاسفة العمل . رتبوا أمورهم ، فكانوا أول من حدد مصادر الرياح ، وحاول كبيرهم التوصل إلى عمل يحد من خطرها ، وقيل حبسها وأطلاقها عندما يهوى ، لكنه لم يصل .

إنهم أول من حفر لاقامة أساسات البناء ، ومدوا الأسقف الواقية من المطر والشمس الصهدة والثلج ، وأول من قسموا المبانى إلى غرف منفصلة ، وأقاموا الحظائر للحيوان ، وكشفوا عن مصادر المياه فى الناحية ، وتحكموا فيها ، أقاموا ثلاثمائة وخمسة وستين صهريجا ملؤوها بمياه الامطار . خصص لكل صهريج يوم واحد ، فإذا نفد لا يملأ إلا فى موسم الأمطار التالى، وإذا بقى فيه مقدار لا يستخدم أنما يترك ليتبخر ، ولم يعرف سبب ذلك . تحتفظ المدينة بعدد من بقايا الصهاريج ، كشفت عنها التنقيبات التى

تمت فى خمسينيات القرن الماضى . وقامت بها الجامعة . تضم المدينة مسارات بعض القنوات التى شكلت جزءا من شكبة تموين المدينة خلال العصور الوسطى ، تنظيم دقيق ، عجيب ، وصفها الرحالة والتجار الذين دونوا ملاحظاتهم لكن أشمل وصف كتبه جاسوس ينتمى إلى مجموعة الامارات الشمالية التى هددت المنطقة عامة والمدينة خاصة ، وصف نظام تموين المدينة بالمياه ، حيث اعتبر النهير الصغير مصدرا رئيسيا ، هذا النهير ظهر بعد زمن الفلاسفة الاربعين ، أثر الزلازل المتواصلة فى القرن السابع ، تذكر بعض المصادر زلزلة الأرض لمدة سبعة وخمسين يوما مما أدى إلى تشقق الجبال ، من شرخ صخرى عميق نبع الماء وتدفق ، مجراه ضيق مفروش بالحصى ، يمكن رؤيته عند أعمق أجزائه ، منه تؤخذ المياه إلى الصهاريج القديمة ، ثم تضخ بوسيلة لم تعرف بعد ، عبر قنوات صناعية تتفرع إلى أخرى أصغر ، تمضى تحت الحدائق والميادين ، يسمع خريرها وان لم تقع العين عليها ، أحيانا تتدفق من فتحات صغيرة فى الجدران ، يقال أن المياه كانت تمضى فى حركة دائرية بحيث لا تمضى إلى مصب، أو إلى منتهى معين ، أنما تعود لتتدفق فى المسارات ذاتها ، قال الرحالة العربى بن فضلان إن المدينة تبدو وكأنها تمشى على الماء وبالماء ، هذه الحركة الدائمة أضفت عليها حيوية ، لا مثيل لهذه المدينة فى العالم ، إلا فاس فى المغرب الاقصى ، أساتذة الجامعة يقولون إن تصميم شبكة المياه الفريدة تلك موجود فى خزائن البلدية ، مرسوم على جلود غزلان ، لكن البلدية لا تفرج عنه، ولا تسمح للباحثين بالاطلاع عليه ، وهذا ضار بالعلم ، عمدة البلدية صرح منذ عشرين عاما أن التصميم يعد من أدق الأسرار وأنه يتصل اتصالا مباشرا بالخطط الدفاعية . لذلك يجب ابقاؤه سرا حذرا وتحوطا ، ربما يقع أى حادث أو عارض فى المستقبل .

نرجع إلى الفلاسفة الأربعين ، أنهم أول من جـز صوف الغنم ، وغزلوه ، ونسـجوه ، وأول مـن دبغوا الجلـود وصنعوا منها أحـذية ، وأول مـن سلق اللحـم والخضروات ، أضـافـوا الملح إلى الطعـام ، وصنعـوا الأوانـى لشرب السوائل ، واستخلصوا اللوف لهرش الجلد وحكـه ، وهذبوا السواك لغسيل الأسنان ، كما أنهم أول من حدد الجهات الاربع الاصلية .

أمور عـديدة تجل عـن الحصر تنسب إليهـم . ولكن ثمـة أشياء محددة ارتبطت بكبيرهم الذى لم يصل أحد إلى مقبرته حتى الآن ، فهو أول من حدد مواقيت الشروق والغروب ، وميل الظـل ، ودخول العصر ، وفرق بين الفجر الكاذب والحقيقـى ، ولحظات اكتمال النـدى ، وتحول الطل ، وتبخـر المياه ، وأسس علم امتـزاج الألوان ، كما عين الحد الفاصل بين اليقظـة والنوم ، كما وصف الاحلام وفسرها ، تـوصل إلى النتائج التى حددها ابـن سيرين ومن بعده سيجمـوند فرويـد ، وشرع فى عمل يحفظ مـا يراه النائم بحيـث يمكن استعـادته ، لكنـه لم يتمه ولم يتـوصل ، أنـه أول من أشـاد إلى مستثيرات الذكرى وصنفهـا ، وفرق بين الاصل والظل ، والصـوت والصدى ، اكتشف مركز الدائرة ، ورسم مواقع النجوم الثابتة ، ولاحظ حركتها مع تقدم الليل ، وفرق بين الشكـل المستديـر والبيضاوى ، والمستطيـل والدائرة ، والمثلـث ، وهذا ليس بالهين فى أوانه .

غير أن انشغاله الاعظم كان بالوقت ، وهو أول من نطق « صباح الخير». وسـبب ذلـك حالـة وجد صعـب نزلـت به لسبـب ما ، يقـال أنه بـدأ ارتخاء أعصاب، وعدم قدرته على الجماع ، وفى رواية أخرى انشغـاله بالنهايات مع طعنه فى السن ، وادراكه استحالة الابطاء من سريانه ، أو التأثير فى ديمومته ، ذات يوم خريفى كابى أطال النظر إلى قرص الشمس قبل اكتمال غروبه ، بدا

هلعا وكـأنه يـرى ذهابـه أول مرة ، صاح راجيـا من صحبـه مساعـدته فى الامسـاك بـالقرص الاحمر القانـى ، أن غيابه يعنـى غيابهم ، وذهابـه يعنى ذهاب قدر منهـم لن يعود أبدا ، الشمـس لا تمضـى ، انما هم من يـرحلون ، وعند كل مغيب ينقص رصيدهم من الدنيا .

ضرب الأرض بقبضتيه ، يجب التـأثير فى الدورة الحتمية ، الأبديـة ، حار صحبه فيما يجب عمله ، مع أن ثلاثة منهم كـانوا على دراية بأحوال النفوس وتقلباتها ، وما يلحقها فى أطوار العمر ، لكن .. مابدا منه ذلك اليوم استعصى عليهم ، خـاصة عندمـا اندفع لاهثـا ، مزبدا ، محاولا ادراك قـرص الشمس بأطراف أنامله .

يقال أنه أمضى ليلا اليلا ، يرتعد كفرخ الحمام المبلول ، يحيطه صحبه ، حتى إذا تبين الخيـط الأبيض مـن الخيط الأسـود ودنا الانبـلاج ، تطلع إلى حمرة الافق الشرقى ، وطفا من أغوار عينيه تعبير كابى ، بعد لحيظات تحول إلى صحبه ناطقا :

« صباح الخير » .

صـارت العبارة عرفـا ، ثم عادة ، ثم جملة لازمة ، جـرى اعتقاد فيما تلا ذلك أن الإنسـان إذا لم يفه بها لمن حوله ؛ فـإن الشمس ستمضـى ولا ترجع ، ثم توارى المعنى الكـامن من الافئدة ، ولكن الجملة انتقلـت إلى سائر اللغات المنطوقة .

عندما حانت ساعـة احتضـار الفيلسوف ، ولى وجهه تجاه الشمس ، قال معاتبا:

« لو اتبعتمونى » .

أدركوا أن الأمر قد شغله ، وأنه كتم ولم يسفر .

كيف تناسل الفلاسفة ، وتكاثروا فى هذه البقعة التى كانت خرابا عند وصولهم بدون صحبة امرأة واحدة ؟ هنا تتعدد الروايات ، لكننا نورد أشهرها ذيوعا .

يقال ان ذلك جرى زمن نفى الفلاسفة ، فى بلد يقع إلى المغرب الاقصى ، وقيل إلى الجنوب ، وفى رواية أخرى ، ما وراء النهرين ، إذ حطت عند الفجر قافلة من أربعين امرأة ذوات جمال وفتنة ، متقاربات الأعمار ، عندهن أنوثة زائدة ، وخصائص تفردن بها ، منها بسوق القامة ، وتميز الأطراف والقدود وتبلور الارداف ، وصفاء المقل ، وتأودهن عند الخطو بايقاع لا مثيل له ، حتى قيل إن الرجل الذى لا يستنفر عند رؤية تمايلهن لا أمل يرجى منه ، نزلن البلد وأقمن فيه ، وقيل أنهن جئن من مدن نائية تقع خلف المحيط الأعظم ، فارقنها لأسباب غامضة ، بعد وصولهن ظهر تبدل فى سلوك النساء وتصرفاتهن ، إذ تجرأن على رجالهن وعظم اشتداد الرغبة عندهن ، بعضهن خرجن فى طلب الغرباء السالكين طريق الحرير العظيم ، قيل إن الأربعين قمن بتلقين نساء تخطين الأربعين ، قيل أنها إذا ضاجعت رجلا فانها تأتى من خفى الحركات ما لا يقدر على الصمود أمامه أعتى الرجال وأشدهم صبرا ومراسا . لحظة بلوغها الأوج وذروة المتعة تطلق صرخة ، نافرة ، غريبة ، خليطا من حشرجة وجعير ، من ضحك وبكاء تسمع فى أطراف البلد ، ولهولها تنفر الجياد والابل ، ما لم يشد وثاقه منها يفلت ويصعب رده .

زاد الأمر عن حده ، وأضطربت الأحوال ، وشكا الأزواج من تغير زوجاتهم ، وأرجع الحكماء الطاعنون فى السن ما جرى إلى اقامة الغريبات عن الديار ، قرروا نفيهن إلى موضع بباب لا يمكنهن منه العودة ، وضعن قسرا فى قافلة صدر الأمر برحيلها لمدة ثلاثة أشهر كاملة لا تنقص يوما ،

وعند النقطة التــى يتم فيها الوصول يفــارقنها ، وتشاء المصادفــة أن ينزلن أرضا قريبــة من موضـع المدينــة الحالى ، لا يدرى أحد من اكتشـف الآخر ؟ الفـلاسفـة أو النساء ؟ . على أى حــال وقــع اللقــاء ، ويحفل الادب القــديــم بحكايات عديدة محورها الشبق الوعر الذى تفجر بين الرجال المنقطعين عن العالم ، والنســاء المنفيات بسبــب اشتداد رغباتهن ، ويــرجع البعـض تعثر أعمال الفلاسفـة اليهن ، ومــن هذا اللقــاء وقع التناســل ، ويؤكـد الرحــالة القدامى ومنهــم ابن فضلان ، وابن بطــوطة ـ فى رحلته الثــانية ـ على جمال نساء المدينة ، وشــدة ميلهن إلى الرجال ، خــاصة الغرباء ، واتقــانهن لفنون الاثارة ، واظهارهن من الحركات والقدرات مالا يوجد فى نساء الأمم الأخرى ، وما زال حالهن وتفردهن قائما ، ملحوظا ، لكن رغبتهن أصابها فتور بعد أن قام أحــد أحفاد الفلاسفة بـاعداد تركيبة خــاصة من أعشاب غير معــروفة وضعها خفيــة فى مصادر المياه التى تمد المدينــة ، ومنذ هذا الوقــت ضعفت الشهوة عندهن ، لكنهن لم يفقدن ما توارثنــه من فنون وحركات ، حتى قيل أن من لم يضـاجع احداهن يموت جاهلا بالمرأة.

تفاصيل لقاء الفلاسفة بالنساء عديدة ، مثيرة منهم انحدر أبناء المدينة ، مصــادر البلديــة تقول إنهم كفــوا عن انجــاز العلوم وتحقيــق الفوائد بعــد اجتماعهم بالنساء ، لكن مصادر الجامعة تؤكد أنهم أبدعوا أفضل ما قدموه بعد وصولهن ، والدليل ، تلك المسائل السبع التى صيغت والموجهة إلى الابناء الصغــار الذيــن ولدوا ، وتتضمــن الاشارات والــرموز ، ولا تــزال معانيهــا متضمنة فى أسئلة الاختبــار التى توجه إلى الملتحقين الجدد ، تغيرت صيــاغة الأسئلة ، لكن المضمون لم يتبدل إلا قليلا .

المسائل السبع ..

أولها : ما الاشجار الاثنا عشر ، ذات الفروع الثلاثين ، الظاهرة فى العالم كله ، ومع ذلك لا ترى ؟.

ثانيها : ما الطائران المحومان دائما ، لا مستقر لهما ولا محط ، ولا نقطة اقلاع أو وصول ، لا مأوى ولا فرع ، إلى الابد يحوم كل منهما فى اثر الآخر فلا يدركه ، أحدهما أبيض ، والآخر أسود ، ولا يدرى أحد أيهما أسبق؟.

ثالثها : من الفرسان الثلاثين ، هم فى عرض دائم ، فإذا عبروا نقصوا واحدا وإذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد .

رابعها : ما الشجرتان اللتان يقف عليهما طائران ، كل منهما يصيح على الآخر . اذا طار من هذه تساقطت أوراقها ، وإذا وقع على الأخرى ازدهرت وأورقت ، فتكون ناضرة ، والثانية ذابلة مدى الايام ؟.

خامسها :ما البلدة الآمنة التى هجرها ناسها وأقاموا فى غيرها ، حتى إذا انتبهوا وأدركوا ، تطلعوا إلى الرجعى .. لكن.. هيهات ؟.

سادسها : لماذا تنتصب قامة الإنسان دون سائر المخلوقات ؟.

سابعها : لماذا توجد فى الوجه سبع فتحات ؟ وفى سائر الجسد فتحتان ، ولماذا تتكون فقرات العنق من سبع ؟ ولماذا يتكون الأسبوع من سبعة أيام؟.

لا يزال جوهر هـذه المسائل ساريا ، تحرص التقاليد على بقـائه كإحدى العلامات المتبقية من زمن الفلاسفة الأربعين ، إلى جانب ملامح أخرى . منها أن عدد المجلس الأعلى أربعون عضوا .

عدد المسموح لهم من الأساتذة بحضور العشاء الأسبوعى أربعون .

اجازة نصف العام الدراسى أربعون يوما .

راحة مـا بين المحاضرات أربعون دقيقـة ، والوقت يحدد داخـل الجامعة بالمزولة الحجرية العتيقة ، ولا يعتد بـالساعات الحديثة المهداة والموزعة على مبانى الجامعة .

عدد القاعات الرئيسية أربعون ، من هنـا تؤكد الجامعة أن الفلاسفة هم نواة أساسها المتين .

لكن .. فى المدينـة علامات أخـرى لا صلة لها بـالجامعة . فمن ذلـك عدد الشوارع الـرئيسية ، أنها أربعـون ، والمبانـى الرسميـة أربعون ، لهذا تصر البلدية على انتماء الفلاسفة إليها ، هم الـذين وضعوا لبناتها الأولى ، ما قاموا به متصل مباشرة بأساس تكوين المدينة ، بنشأتها ، بتخطيطها ، لذلك أقاموا أمام المبنى الرئيسى للبلدية فى القرن الماضى تمثال الأربعين ، كتلة صخرية هائلة تبدو من خلال خطوطها وتضاريسها ملامح أربعين وجها ، وإلى أعلى ترتفـع أربعون يدا فى اتجاه شمـس تحملها الأنـامل ، تبث أربعين شعـاعا ، تطال كل الجهات .

البــــرج ..

.. تفحص الخريطة ، متخـذا موقع الفندق نقطة انطلاق ، المقـر الرئيسى للجامعة ليس نائيا ، على مسيرة خمس أو سبـع دقائق ، لن يحتاج إلى عربة أجرة ، تكفى مرة واحـدة ، كان يجهل المسافة من محطـة القطار ، من يهوى المشى مثله يمكنه أن يلف المدينة كلها فى أقل من ساعة .

هكذا شرع .

صباح هادئ ، وثير ، ضوء رخيم وطـرقات مبلولة ونواص تثير الحنين ، سماء دانية توحى ببحر قريب من أنـه بعيد ، أربع ساعات بالقطار السريع ، أرصفة عريضة تحدها أقواس حجرية ، متتـالية ، متاجر متجاورة ، مداخل بنايات قـديمة مغلقة بالظلال ، تنبعـث منها عتاقة رطبة ، وأصـداء مندثرة ، وبقايـا لقاءات خلسـة ، رخام بـارد ، وسلالم لا تفسـح عن كـل درجاتها ، وشىء ما يبعث على التذكر .

عبر ثلاثة مفارق ، ميدان مبلط بالحجارة ، فى المواجهة يقوم البرج الكبير، شاهق ، غامـض ، ميله ملحوظ ، أصبح علامة عليه وسببا لـذيوعه ، اختلف الناس فى سبـب بنائه ، فمـن قائل أنه لغـرض حربـى يمكن رصـد أى عدو مقترب ، وثمة مـن يقول إنـه بنى كـرمز للجـامعة ، ولإجـراء تجارب تتعلق بالجو والمناخ ، لكن التعليل الثانى لا يلقى قبولا ، ما معنى تشييد هذا المعمار

المعقد ، الغـامض الـذى لم لم يكشف عـن أسراره كلها بعـد ، فى زمن كـانت وسائل البناء فيه بدائية لمجرد أن يكـون رمزا ؟. ما معنى ذلك ؟ هذا سخف ، على أية حـال ، أنه شعـار المدينة الآن ، مـرسوم على مفتـاحها الـذى تهديه البلدية إلى كبارضيـوفها الرسميين ، أو عند إعلان التآخى مـع مدينة أخرى نائية . مطبوع على البطاقات المصـورة ، تباع نماذج من جص ، ومن نحاس، وحديد ، ونيكل ، وفضة ، مختلفة الاحجام .

بعـض الجامعيين يضمرون ضيقـا قـديما متوارثـا ، فلـولا مهندسـو الجامعة لما انفردت المدينة بهذه الاعجوبـة الهندسية ، لكن الأهـم .. أن البرج لم يكن رمزا للمدينـة حتى منتصف القرن الثامن عشر . فـالمدينة جامعية ، وأهم ما تضمه .. الكليات والمعاهد العلميـة ، كان شعار المدينة نفس ما يراه الناس فى الـدائرة الذهبية التـى تتوسط غطـاء رأس أقدم أساتـذة الجامعة ، أنبيق زجاجى ينطلق منه شعاع دخانى ، يتشكل منه وجه فتاة حسناء ترفع يديها إلى أعلى رمزا للمعرفة . بدأ الخلاف حوله فى ذلك الزمن البعيد ، وأوقف العمل بـه ، حتى حسم الأمر مـع توحيد الـدولة ، والاتفاق حول العـاصمة المركـزية ، نجـح رئيس البلـدية وقتئـذ ، وكان رجـلا جادا . شـديد الكلـف بالمظاهر ، فى استصدار مرسوم مركزى بتغيير شعار المدينة ، ثم ضم البرج إلى المنشآت التى ترعاها البلدية ، ودبـر حملة دعائية بحيث أصبح من معالم البلاد ، ومقصد الأجانب ، وزاده غرابة ما يروى عنه من أحداث جرت فيه أو حوله ، أو معتقدات قـديمة تتخذه محورا . كذلك ميله ، ولـون الحجارة التى شيد منها ، أحمر يـاقوتى ، فى المكتبات عـدد لا يحصى من المؤلفات حـوله ، بعضها علمى معمارى ، أو تاريخى وصفى ، أو معلومات عامة للزائرين .

فمما أرتبط بـه من معتقـدات ، شاعت واستقـرت ، أن العاقـر اذا خطت

عتبته سبع مـرات قبل شروق الشمس فانها تنجب ، ومن البـاب الرئيسـى ، ومن يشكـو ألما فى الدماغ يلـف خيطا أحمر ، ومـن يشعر بآلام المعـدة يعقد خيطا أبيـض حول أحد المسامير البـارزة ومن جفا حبيبه يتنـاول ذرات من التراب العالق بالدرج ويضعه فى مثلث ورقـى بعد كتابة اسم المحبوب الجافى بمداد أحمر ، فانه يرق ويلين ويأتى طواعية باذن الله ، واذا غمضت المراجع ، واستبهمت الدروس على الطالب النجيب ، فانه يكتب اسمه على ورقة صـغيرة ويلقى بها عبر إحدى النوافذ المستديرة العليا ، عندئذ ينفك المعقود ، وتتضح المسائل المستغلقة ، هذا كله وغيره ، شائع منتشر بين القوم .

عرف البرج أيضا كمكـان شهير للانتحار ، آخر حادثة وقعـت منذ سبع سنوات ، كان غـريبا ، أفريقيا ، طويـل القامة جدا ، نـزل المدينة ذات صباح باكر ، لفت الأنظار ، وتطلع إليه كل من رآه ، مشى فى الشوارع ، عبر الميادين. لم يتوقـف عند مكـان معين ، لم يتطلع إلى نافـذة أو لافتة ، حتـى وصل إلى البرج ، طاف حول بنائه المربع سبعا ، ثم دفع مقابل بطاقة دخول ، كان أول الصاعديـن ، صعد السلالم الثمانمائة بدون توقف ، حتـى الشرفة المربعة ، نظر إلى كل الجهات بعينين مزرورتين ، وشفتين منفرجتين ، لحقه زائر ثان ، اعتاد المجىء هذه السـاعة المبكرة لدراسـة ضوء الشمـس من خلال منشور زجاجى ملون .

بهدوء خلع الأفريقى قميصـه ، ثم بقية ثيابه ، ورتبها قطعة ، قطعة ، حتى أصبح عاريا كما ولدته أمه ، وفيما بعد قال الطالب إنه هلع وظنه ينوى أمرا ، لكنه بدا غير منتبه إلى وجوده أو وقوفه على مقربة ، توقع قيامه بأداء طقوس معينة يجهلها ، تمت إلى بلـده أو إلى جماعته ، خاصة عنـدما عقد يديـه أمام صدره العارى ، لكنه فوجئ بوثبة مفاجئة ، خاطفة ، يجتاز بعدها السور إلى

الفراغ ، وعندما تجمعوا حول جثمانـه الذى تمدد أمام المدخل تماما ، كان لا يزال محتفظا بوضع يديه أمام صدره .

لم تعرف هويته ، أو الجهة التى ينتمى إليها ، لم يعثر على أى أوراق ، ولم يبلغ أحد عن غياب مفقود ، راح الأفريقى على حاله ، ودفن فى مكان مجهول ، وتردد أن جثمانه انتهى إلى احدى قاعات المستشفى الجامعى لاجراء تجارب، انقطع أثره ونسى أمره فى الخضم اليومى ، لكن بعد مرور أربعين يوما تناقل حراس البرج ما رآه أحدهم ، ثم تأكد فى الليالى التالية ما ظنوه وهما ، الأفريقى يظهر أعلى البرج ، ويطوف حول السور عاقدا يديه أمام صدره ، ويخطو فى الفراغ منحنيا إلى حد ما . أكد آخرون أنهم شاهدوه من مسافة نائية ، وقدم طيار هيلوكبتر تقريرا إلى قيادته المتمركزة خارج المدينة حول ما رآه أثناء تحليقه فى مهمة تتعلق بأمن الدولة الاتحادية ، بعد وقوع هذا الحادث ، وظهور تلك الشواهد ، صارت الزيارة ليلا غير مرغوبة ، حتى بعد اضاءة البرج ، ولم يقدم عليها إلا الغرباء الذين يجهلون ، لكن ليست هذه أشهر الحكايات .

فى الأربعينيات وصلت إلى البلاد أميرة تنتمى إلى العائلة الملكية فى بلاد الانجليز ، جميلة ، أمرها معروف ، دارسة للآثار ، وقيل أنها تنوى البحث عن مقبرة كبير الفلاسفة الأربعين ، والتى لا تزال غير معروفة ، ومما يتردد فى كتب الأقدمين أنها تضم أوراقا من البردى تحوى العلوم والمعارف كلها .

طبعا نشأ نزاع ، من يستقبلها ؟ عمدة البلدية أو رئيس الجامعة ؟ اضطرت السلطة الاتحادية إلى التدخل اتقاء لفضيحة خارجية ، مع أن مبادراتها فى هذا الشأن نادرة . تقرر أن يستقبلها عمدة البلدية فى محطة القطار . وأن ينتظرها رئيس الجامعة أمام كلية العلوم الإنسانية ، على أن

يصحبها نـائبه مـن الباب الخارجى ، وهـذا ما تـم بالفعـل ، إلا أنها سببت ارتباكا عندمـا طلبت زيارة البرج قبل غروب أول أيامهـا فى المدينة ، رغبت فى رؤية قرص الشمس الآفل من العلو الشاهق ، المائل .

مشكلة !.

الاميرة شخصية هامة ، ويجب اتخاذ الحوطة ، وترتيب اجراءات حراسة خاصة ، المبنى غـامض ، كثير من فراغاته مجهـول حتى الآن ، ثم زاد الأمر تعقيدا عندما أبدت رغبتها فى الصعود بمفردها قصد التأمل الهادئ.

هى ميساء ، ذات رفعة أنوثية ، بـريقها داخلى صميم ، يتوهج فى لحظات المودة والقربى ، ويخفت فى الأحوال العادية ، لكنه يشع كدفء خفى المصدر، معجبوها كثر ، منهـم سليلو أسر نبيلة ، وأثرياء ، وأمراء مـن أقصى آسيا ، ونجوم سينما ، وأبطال رياضة .

لكن الغريب العجيب أنها لم تعجب ولم تعشق إلا رجلا من صعيد مصر . بالتحديد من قرية القرنة .

عندما زارت مصر استقبلهـا الملك ، نزلت فى فندق مينـا هاوس لتطل على الأهرامات صباحا ومساء . ثم سافـرت باليخت الملكى « قاصد خير » إلى بر الأقصر ، وخلال أيامهـا النهرية كتبت رسـائلها الشهيرة ، فى الاقصر احتفى بها القوم ، رتبوا جـولات متأنية ، دققت وأمعنـت الفرجة ، أبدت اعجـابا بما رأت ، والماما بالتـاريخ الفرعونى القـديم ، عند تأهبهـا لدخول مقبرة الأميرة نفرتارى ظهر رجل مقدد الوجه ، بارز عظام الترقوتين ، باسق القامة ، قدمها إليها مفتش آثار الناحية باعتباره الـوحيد الذى يحفظ الرسوم والنقوش ، بل ويتقـن اللسـان الفـرعونـى القـديم ، اضـافـة إلى سبع لغـات أجنبية منهـا البولندية.

كان مهيبـا ، طويلا كجذع نخلـة ، راسخ النظرة ، متأنـى الخطوة ، متين الملامح ، بعد نزولها المقبرة أبدت رغبتها الشديدة فى قضاء ليلة بوادى الملوك، أحدثت ارتبـاكا ، اضطر مدير النـاحية إلى ارسال عدة برقيـات ، لم يأته رد واضـح ، لا من القصر ، ولا من وزارتى الداخلية أو الخارجية .

ازاء اصرارها . واعلانها تحمل المسئولية خضـع الجميع . لم تصطحب إلا حارسـها الخاص، كان عارفا ، عليما بـأحوالها ، أشتهر بصمته ، بعد وفاتها أعلن فجأة أنه سينشر مذكراته ، لكنها لم تظهر قط ، نتيجة تدخل القصر .

المهم .. نصبت خيمة للأميرة فى الصحراء ، تحت سفـح تل مرتفع مشرفا على وادى الملوك ، مع ارتفاع القمر شبه المكتمل ظهر رسول ، اقترب راسـخا ، واثقا غامضا كطيـف يسعى ، جثت ، صبت الماء المعطر من ابـريق نحاسى ، غسلت قـدميه ، فى هذه الليلـة تردد صـوتها فى الوادى العتيق حتـى تعجب حارسـهـا الخاص من قدرتها على الاحتمال ، قيـل إن رسول ضاجعهـا ست عشرة مرة ، وعندما سألته ، أهذه عادة أهل البلاد ؟ هز رأسـه نفيا ، مشيرا إلى صدره . لا يـدرى أحد ما جـرى بالضبط ؟ . كيف اقنعتـه بالرحيـل معها ؟ سحبها إلى بـلادها . قيل كتبريـر أنه ماض لتعليمها اللغـة الفرعونيـة التى يتقنها . اشترت قصرا قديما مهجورا ، أقام فيه منـذ مائة وعشرين سنة أحد أفراد أسرة البـوربون ، لجأ إلى المقاطعة بعـد نشوب الثورة الفرنسيـة . كثر ترددها عليـه ، صارت تقضى بصحبة رســول يومين أو ثلاثا كـل أسبوع . لوحظ تغير جسدها . اذ عظمت عجيزتها واتسع حوضـها ، وتغيرت مشيتـها ، صارت أبطأ .

لم يدم الأمر طويـلا ، بعد ما يقرب من ثلاثـة أشهر بدأ شرود فى عينيه ، ازدادت اطراقاتـه ورسمه خطوطا متقـاطعة ، متعامدة فـوق الأرض ، فشل

كبير الأطباء الملكيين الذى جاء إليه سرا فى فض سره . قال للأميرة أنه على ما يبدو يعانى حالة اكتئاب شديدة لافتقاده المنشأ والوطن ، لابد من ذهابه إلى بلده ، غير أنها أبت ، أكثرت من ترددها عليه ، وقضائها أوقاتا طوال إلى جواره ، وأبدت فيضا من مشاعر ، لكنه لم يستجب ولم يزدد إلا حزنا وكمونا ، صباح أحد الأيام ظهر عدد من الرجال بينهم شاب أنيق يمسك لوحات عديدة ، علقها إلى حامل خشبى وصار يقلبها ، ويخط فى دفتر أبيض ، فرش العمال الأرض غير المستوية بالرمال ، رمال صفراء غامقة تتخللها شجيرات قصيرة مما ينبت فى جنوب مصر ، ثم غرست سبع نخلات ليلا ، وصارت مقصدا ومزارا فيما بعد ، كثيرون من أهالى البلاد لم يسبق لهم رؤية النخل إلا فى لوحات الرحالة الذين قصدوا بلدان الشرق . عندما اكتمل الأمر وصلت الأميرة ، بدت مبتهجة ، راضية عن العمل الذى تم ، كأن جزءا متكاملا من الصعيد النائى انتقل إلى الريف الانجليزى ، لم يبد رسول مجاوبة ، كأن الأمر لا يعنيه ، لا يمت إليه ، صار ذاهل النظرة محملقا إلى بعيد ، فى كل يوم يتناقص وزنه . حتى حط تماما .

وجدت عليه الأميرة وجدا شديدا ، بعده مالت إلى انطواء وتعددت أسفارها، حتى عدت فى هجاج دائم ، لا يستقر بها مقام ، لم ولن يدرى أحد ما جال بخاطرها ، أو أى صور تواردت عليها عندما طلعت البرج الشهير ، أما ملامح وجهها فلم تسفر ولم تنبئ بشىء ، صار انتحارها المفاجئ ، امرا باعثا على الحيرة ، ومبعثا لتخمينات شتى ، لفترة خاضت الصحف فى الأمر ، بل صدرت كتب ، وأشير إلى رسول طبعا ، لكن لم يتأكد أرتباط انتحارها بحزنها عليه . لو صح لأودى بها عقب وفاته ، لكن ثمة فترة فاصلة مقدارها ثلاثة أعوام ، أما علاقتها به . فقيل أنها مجرد نزوة أمرأة غريبة تجاه رجل بدائى !

وبالرغم من الألم الذى عبر عنه عمـدة البلدية فى خطاب العزاء الرسمى ، وقيامه بمرافقة الجثمان حتـى المطار المحلى ، وأداء المراسم الخاصة بما فيها التحيـة العسكـريـة ، وتنكيـس الاعلام لمدة سبعـة أيـام ، بما فيهـا العلـم الاتحادى، والاعلام الجامعيـة ، وبالرغـم من مظاهـر الاسـى ، فأن البلـدية بدأت على الفور التخطيط لاستخدام انتحارها كعنصر دعائى ، وضعت حلقة معدنية عنـد النقطة المفترض أن الأميرة تجاوزتها إلى العدم، ليتوقـف عندها الأدلة والشراح . كما تضمنها الكتاب التذكارى المئوى .

غير أن حكاية ابن امبراطور الصين أغرب وأعجب .

ذلك أنه جاء إلى الجامعة متفقدا وزائرا ، قرر والده ايفاده للاطلاع على ما يجرى فى الأقسام العلميـة ، عند وصولـه تم حـل المشكلة التى نشـأت ، من سيستضيفه ؟. الجامعة التى سيدرس بها ، أو البلدية باعتباره ضيف المدينة البارز ؟، اتفـق على أن يقيم أسبوعـا كضيف على الجامعة ، وأسبـوع للبلد . وعندما جاء .. أبدى رغبته فى الاقامة بالفندق الكبير . أقدم الفنادق وأفخمها ، نزل فى الجناح الملكى ، وعلقت صورته فى الممـر المؤدى بجوار الذين حلوا من قبل . استقر ، وعلـق علم البلدية فوق المدخل ، فى نهايـة الأسبوع الأول رفـع شعار الجامعة ، هكـذا بالتبادل ، اعلانا عن الجهـة المضيفة ، ربما لم يلحظ الأمير ذلك .

فى نهاية الأسبـوع الرابع وجهت إليـه الدعوة لزيـارة البرج ، أبدى الأمير اعجابه بالبناء السامق ، المائل، قال إنـه يوجد فى الصين برج آخر لكنه ليس متأكـدا ، أيهما أعلى ، وأيهما أكثر ميلا ، قـال إن البرج الصينى يرتبـط بملك عاش فى التـاريخ البعيد ، فى عهـد الممالك المتحـاربة ، وأنه أراد الـوصول إلى السماء وملامسة النجوم ، أمر باستمرار صعـود البناء ، وخيل إليه أنه عند

حد معين سيجتاز الحد ، بذل المهندسون جهدا حتى ارتفعوا به فوق الغيوم، تردد ذكـره فى البلاد النـائية ، وقـف ابن بطـوطة على بقـاياه ، وصفـه أثناء ترحاله فى بلاد الصـين ، لا تكشف النصوص القديمة عن أسباب انهياره ، أو توقف البناء ، وقيل أن الملك أصيب بمرض غامض أودى به كعقاب رادع من السماء ولا تزال البقايـا منتصبه ، قاس الأمير ارتفاع البرج بمساعـدة ثلاثة من مـرافقيه ، من خـلال حركة الظل وانتقـاله عبر أوقات النهـار المختلفة ، اتبعوا أساليب قديمة ، معقدة ، وآلات حسابية غير معروفة فى الجامعة ، أنهم أول من حدد الارتفاع بدقة ، ودرجة الميل ، ومقدار زيادته كل سنة شمسية ، لكنهم لم يبلغـوا أحدا بنتائج القيـاس المقارن ، أيهما أعلى ؟ بـرج المدينة ، أو البرج الصينى ؟

توجه الأمير ثـلاثين مرة ، فى العشرة الاوائل لم يصعد ، اكتفى بـالطواف حوله ، ومعاينة أحجاره ، والتطلع من زوايا مختلفة ، وفى المرات العشر التالية أتم القياسات ، ثم بدا صعوده ، أبدى اعجابه بالقدرة على استغلال الفراغات الداخلية المحدودة ، وفى المرة الثلاثين أبـدى رغبته فى دخول الحجرات السبع الموزعـة على الارتفاع الشـاهـق ، دخـل الأولى والثانيـة والثـالثـة والرابعـة والخامسةوالسـادسة مبديـا همة عالية ، مستنفـرا كل طاقتـه ، مشرعا أدق حواسـه ، كان يدخـل بمفرده ، بينما يقف مـرافقوه فوق السلـم الحجرى الدائرى ، اثنـان صينيان ، وثـالث مـن رجال البلـدية ،بـدا تعبهم ، وسُمِـع لهاثهم.قرب نهاية السلم الدائرى ولج الغرفة السابعة ، وعندما طال تفقده ، شعر مـرافقوه فى البداية أنهم منحـوا عدة دقائق للـراحة ، لكن الوقـت مر ، والدقائق توالت ، ولاحت نذر ، عندئذ تقدم أكبر المرافقين سنا ، نادى بصوت خافت ، ثم بصـوت مرتفع ، التفت إلى زميله ، بحسم ولـج الغرفة ، الضيقة ،

المعتمة ، التى لا مخرج آخر لها ، وعندما أطل بدا مختلط التعابير ، لم يجد أثرا للأمير . وحتى الآن . يقف الأدلة ، قائلين باختصار .

« هنا اختفى أمير الصين .. »

لغز لم يحل ، وأحجية لم تفسر ، وبالرغم من تغير نظام الحكم فى الصين ، وقيام الجمهورية ، ثم اعلان النظام الشيوعى ، فإن طلب البحث عن الأمير يتجدد كل سنة ، بل إن ماوتسى تونج بعث برسالتين إلى الرئيس الاتحادى ، أحدهما أثناء الثورة الثقافية ، وكلف سفيره بمقابلة عمدة المدينة ، ثم تكرر الأمر فى كل سنة مرة ، يتم خلالها الاشارة إلى الاثر السلبى لاستمرار الغياب على العلاقة بين البلدين .

تعددت التفسيرات فى ذكر أسباب الالحاح الصينى رغم تبدل النظم والعادات ، فمن قائل أنها العادات الموغلة فى القدم ، وثمة من يؤكد أن الأمير يعرف مواضع أخفيت فيها كنوز الأسر المتعاقبة . لكن الاغرب بدء ظهور بعض ذوى الملامح الصينية فى المدينة ، جاءوا فرادى على مسافات زمنية متباعدة ، حتى أن وجودهم لم يلحظ إلا بعد الاحصاء الجامعى للسكان والذى يتم مرة كل عشر سنوات ، وجدوا شارعا بأكمله يقطنه الصينيون الذين حصلوا على تصاريح اقامة دائمة ، وأتقنوا لغة البلاد ، ولهجة المدينة كأنهم ولدوا فيها ، لكنهم لم يبدلوا أزياءهم ولا عاداتهم ، ولقنوا أطفالهم فى البيوت لغة الاباء والأجداد ، ثم تزايد عددهم ، حتى عرفت المنطقة الغريبة المحاذية للبرج بالصين الشعبية ، وذلك لازدحام شوارعها وأزقتها ، ومعالم الحياة البادية من لافتات كتبت بالحروف الصينية ، وكرات حمراء معلقة أمام البيوت ، ومداخل المطاعم ذات الخشب الملون ، هرمية الشكل .

يوم اختفاء الأمير ، فى كل عام ، يتوجهون إلى البرج ، يصعدون السلم

الدائرى فى هدوء وترتيب ، يؤدون صلاة خافتة ، يبدون حزنا وأسفا ، ثم ينصرفون بهدوء ، أمن البلدية أبدى انزعاجه فى البداية ، لكن العمدة قال إن التقاليد تحرم التصدى لهم ، ماداموا لم يلحقوا ضرراً بالآخرين ، ولكن المسئولين عن الأمن لزموا الحذر ، وصدر قرار خفى بتخصيص فرع لشئون الصينيين وأحوالهم ، وخاصة بعد معلومات تؤكد أن اختفاء الأمير ، ومجىء هؤلاء له علامة ما بمقبرة كبير الفلاسفة الأربعين .

بعض الجامعيين لمحوا إلى دفعهم مبالغ كبيرة إلى مسئولين فى البلدية للمساعدة على توطينهم ، وأن ثمة هدايا ثمينة تصل فى وقت معلوم من تجار أثرياء يقيمون فى أوروبا وأمريكا وبلدان الخليج العربى ، كما أنهم يدعمون تلك الجالية الصغيرة بوسائل شتى ، حتى تستمر أقامتهم إلى لحظة موعودة يظهر فيها الأمير المختفى ، والمحتجب لأسباب ربما يكتمها كبارهم.

هذا أغرب ما سمعه من حوادث حول البرج ، لكن ثمة واقعة أخرى علقت بذاكرته ، وأستعادها فيما بعد مبتسما ، ذلك أنه تولى البلدية عمدة قصير القامة ، بقدمه اليمنى عرج خفيف ، جرى ذلك عقب افتتاح قناة السويس مباشرة ، واتصال البحرين الأبيض والأحمر ، كان رجلا حسن السمعة ، طيب الاقامة ، نظيف اليد ، صارما ، دقيقا ، وخلال ولايته القصيرة حقق مكاسب جمة للبلدية على حساب الجامعة ، ضمن ذلك مسئولية البلدية عن جميع شوارع المدينة . بما فيها المحيطة بالمبانى الأثرية ، وصهاريج المياه ، وأضرحة الفلاسفة التسعة والثلاثين . والتى تفصل مبانى الجامعة أو تؤدى إليها.

شق ذلك على الأساتذة حتى أقدم أحدهم على اشعال النيران فى نفسه ، ولم يستطع أحد انقاذه ، لكن تمت معالجة جمجمته وأضافتها إلى الغرفة

الخاصة بـالمستشفى الجامعي والتـى توجد فيهـا جميع جماجم الأسـاتذة الكبار ، أو الذين نبغوا وقدموا أعمالاً استثنائية منذ تأسيس الجامعة .

أدى انتحاره إلى أمـرين ، الأول ، ايقاف الاجـراءات الخاصة بمـد سلطة التفتيش المعمارى إلى المبـانى الجامعيـة ، والثانى وضـع علامـات مميزة فى الشوارع والطرقات التى تتبع ممتلكـات الجامعة ، اتفق على تمييزها بصف براميل حمراء ، وأخرى بيضاء فى كل طرقات المدينة التابعة لاشراف البلدية، على أن تخصص لجمع القمامـة ، وهذا فارق دقيق لا يلحظه الـزائر العابر ، كما أنه يثير دهشة البعض ، لكن بقاء البراميل مثبتـة إلى قواعدها من عوامل الاستقرار فى المدينة ، ومنذ سنوات جرت محاولـة استبدال القديمة الخشبية بأخرى من البلاستيك المقوى ، محلى الصنع ، لكن مجلس الجامعة الرئاسى عارض بحجـة عدم المسـاس بالتراث ، فاتفـق على ارجاء الموضـوع إلى وقت آخر، ومرت سنوات بدون أن يتم ذلك

المهم .. كان عمدة البلدية الأعرج ، مراعيا للتقاليد ، محباً للتفقد ، فى زمنه تم تجديد الزى الخاص بحراس المدينة ، وقـوات الأمن ، ومن أقواله المأثورة التى كتبـت على لافتات ، وطبعت مرارا ، مـا ذكره فى حفل استعـراض قوات المطافـئ بعد تغيير أزيـائها ، إذ قال انه ليس معقولا دخـول القرن العشرين بملابـس تمت إلى السادس عشر ، عـرف فى الوثـائق بالأعـرج ، وبين الناس بالمتفقد ، اذ كـان يمر يوميا على مبـانى البلدية ، يتـأكد من نظافـة المكاتب ، وسلامـة الأبواب ، والمنافـذ ، والمداخن ، ودورات المياه ، وانضبـاط الأمور ، وحضور الموظفين فى المواعيـد المقررة ، يفتش حـرس البلديـة مرتين ، الأولى صباحا ، والثـانية مساء ، كان الحرس يصطـف فى كامل الهيئة فى السـاحة المبلطة برخام وردى ، وعندما يرفعون بنادقهم ، ويشهر القائد علم المدينة ، يبدأ مشيـه المتمهل ، البطىء ، لم يقـم بمرورشكلى ، أنما حقيقـى ، متمهل ،

مرتديا المونوكل فوق عينه اليمنـى ، يتوقف أمام ثنية القميص ، أو عند بقعة باهتـة لا تلحظ إلا بصعوبة ، ومما شاع أنه زار يومـا مدينة البندقيـة، أعد عمدتها استقبالا رسميا جرت مراسمه فى ساحة البلدية ، فى صفين متوازيين وقف الحرس الايطالى المنضبط ، الذى تم اختياره بعناية من جنود متشابهى الملامح ، والاطوال ، يرتـدون الزى الرومانى الأصلى ، فوجئ القوم بتوقف الاعرج قبل وصـوله إلى محاذاة العلم وقيامـه باداء التحية ، أبدى التـأفف ، أشار إلى حشرة فى حجم البرغوث ، ميتة ، عالقة بياقة الفرو البيضاء ، تساءل مشمئزا . ما هذا ؟ ونشبت أزمة خفية احتاجت وقتا لمعالجتها .

أسبوعيا يتفقد قوات المطافـئ ، خاصـة يوم الأحد ، يستعرض العربات ، وأدوات الاطفاء ، يطمئـن إلى سلامـة المضخات ، وخـراطيم الميـاه ، أيضا .. أنضباط الجند .

فى الأيـام الأولى مـن كل شهـر ، يقـوم بتفقـد مفـاجئ لمحطـة السكـك الحديـدية، ومحطـة تنقية ميـاه رى الحدائق ، والكهربـاء ، ومبنى البريـد ، ومركـز السيطرة على مصـابيح الشوارع ، ودورات الميـاه العامـة ، وسوق الخضار والفاكهة الرئيسى ، والمسلخ اليدوى ، كثيرا ما توقف أمام صناديق البريد العمومية ، ليتأكد من جمع الخطابات فى المواعيد المحددة .

قبل بـدء العام الـدراسى يتفقـد فصول المدارس الابتـدائية ، والكتـب ، والكراسات ، ومـن المؤكد أنه تحرق شوقا لتفقد منشـآت الجامعة ، لكنه لم يشرع بسبب نصيحـة أكبر الأعضاء سنـا فى مجلس البلـدية الـذى نصحه بارجاء ذلك ، لأن الظرف غير موات .

اكتفى بزيـارة المجاملة التقليديـة ، والتى يتابعها أهـالى المدينة والطلاب بسخرية ، كان حلمه ـ كما يؤكد المقربون ـ أن يتفقد منشآت الجامعة ، لكن لم يحدث ذلك قط ، إذ جرى له ما لم يتوقعه أحد .

صباح اثنين مشمس ، دافئ ، اتجه لتفقد البرج ، أمام المبنى تمت الاجراءات المعتادة حيث استقبله كبير مهندسي البلدية ، ورئيس قسم آثار العصور الوسطى بالجامعة ، وهو من الشخصيات المعروفة لارتباط اسمه بالحفاظ على المبانى العتيقة ، وتدبيره الخطط لصيانتها ، والعناية بها ، وابرازها فى أحسن صورة للناظرين ، تشرف البلدية على البرج ، لكن الترميم والحفاظ على الطابع ، فمن اختصاص الجامعة . طلع الدرج يتقدمه كبير مهندسى البلدية المعتمدين ، فى الضوء الخافت لمح شقا فى الجدار لم يره من قبل ، توقف ، اتخذ الوضع الصارم للمتفقد . اتجه ببصره إلى الأستاذ الجامعى ممهدا لالقاء المسئولية . مد يده صوب الشق ، انتفض بغته ، صرخة وعرة بددت جموده ، تورمت أصبعه بسرعة ، الحل الوحيد - كما قيل فيما بعد - بترها فى نفس اللحظة ، لكن .. أين المعدات ، أين من يمكنه القيام بذلك؟

حية صغيرة ، دقيقة ، محنطة الآن فى متحف الأحياء الطبيعية بالجامعة ، تنتمى إلى فصيلة نادرة جدا لا توجد إلا فى الصحارى الجنوبية ، كيف وصلت هنا ؟

قيل تفسيرا . فى الزمن القديم استخدم المحاربون قنابل تقذف بالمنجنيق. لم تحو حجارة أو بارودا ، انما ثعابين فتاكه تم جمعها من بقاع شتى لقصف القلاع محدودة المساحة عند الحصار ، أو المراكب البحرية عند التلاحم ، ويبدو أن البرج تعرض لحصار ما غير معروف الآن . وأن منجنيقا محشوا بالحيات انفجر داخله وعشش بعضها فى الزوايا الخبيئة وتناسل حتى جرى ما جرى .

المهم .. راح العمدة الأعرج بسبب عضة ، ومع مرور الزمن بهت خبره ، عدا السخرية الهادئة التى تلوح عند استعادة حبه للتفقد .

البوابات السبع ..

.. يمثل البرج إلى غير مدى ، الاحساس بحضوره قائم حتى وان أولاه ظهره ، أو حالت دونه جدران ، لانتصابه الفاره بعد انسانى غامض ، فكأنه يرقب كل ما يجرى بوسيلة ما ، ربما لهذا السبب تضمن المعتقد القديم عنصرا يجعل أهالى المدينة يتجهون إليه بوجوههم عند نومهم ، أو يتطلعون إليه قبل رحيلهم ، والعجائز يلمسون أحجاره ويخاطبون بواباته الصغيرة ، بعبارات متوارثة ، أجرى قسم الاجتماع بكلية العلوم الإنسانية بحثا حولها ، وأفرد له التليفزيون الاتحادى حلقة خاصة فى برنامج « أمسية ثقافية » .

يتطلع إليه بعد تجاوزه ، حجارة صغيرة غامقة الحمرة ، تماثيل دقيقة حول الافريز الرخامى أعلى المدخل ، فتحات دائرية متعاقبة على أمتداد الارتفاع ، ثلاثمائة وست وستون ، عند شروق الشمس تنفذ أشعتها من فتحة معينة ، ولا يتكرر الأمر ألا بعد سنة ، وهذا عجيب !

طبقا للخريطة يلزم الجانب الأيسر ، منحدر قليلا ، الأقواس تحد جانبيه ، أعمدة مرمرية ، لوتسية التيجان ، يتغير لون البراميل الموزعة على الجانبين ، حمراء الآن ، هواء بارد ، منعش ، تفد إليه رائحة ما ، مبهمة ، مستعصية على الشرح أو التفسير ، تستنفر لحيظات نائية من ثنايا ذاكراته ، وقت خروجه الصباحى الباكر فى سنوات عمله الأولى ، يقف على محطة الحافلات ، يبدأ توافد طالبات المدرسة الثانوية ، كن نافرات النهود ، خفرهن باد وان بدت

عيونهن هجـومية ، هكذا يـراهن الآن بعد مضـى أكثـر من ربع قـرن ، يلمح اقبالهن على الـدنيا ، يقفن متقـاربات ، هـامسات أو ضاحكـات ، متطلعات خلسة هنا أو هناك ، عند لحظة معينة تقبل ، نضرة ، فواحة ، تقف مختالة فى سكونها ، فواحـة فى حركتها ، حتى إذا هـزت رأسها لتلملم شمل شعـرها ، لظهورها زلزلـة ، عند ركوبها المتمهل ترمقه خلسـة ، فضولية ، مستفسرة ، تتصل العيون لثـوان مارقات ، غير أن الأمر لم يتعد حـدود النظر ، لم يفض الصمت قط ، خجل أول العمر ، نما عنده وتبدد مع تقلبه فى البلاد والسنين ، أثر يبدو منـه فى لحظات التقارب الأولى مع كل امرأة يشرع لاجتيـاز عالمها ، لكم دنا ، لكم اتحد ، بعض من انصـهر جسده داخلهن نسى ملامحهن ، عبثا يحاول التذكر ، ولكن إذا هفت عليه تلك اللحيظات النائية ، وأطل الوجه الذى لم يعرف إلا النظر إليه مـن بعيد ، فإن قلبه ليدفق ، كأنها مـاثلة ، شاخصة إليه ، لحظات نهارية ، لا تواتيه عند مروره بالمكان القديم ، أنما تنتفض حية إذا هـب مثل هـذا الهواء الهين ، أنوثـى الملمس والسريـان ، يذكـر قامتهـا ، سمـوقها ، اهتـزاز ثـوبها المسدل على أردافهـا وبطنهـا الأخمص بدءا مـن خصرها النحيـل ، تدب عنده رغبـة ، فكأنه يتمنـى مضاجعة الهبـاء ، عناق العدم ، ربما فـارقت العـالم كله ، ولو ظهـرت أمامـه الآن ، هل ستعـرفه ؟ . يستعيد وقفته فى مواجهتها أو بالقرب منها فيرى نفسه مكتملا ، كأنه يتطلع إلى ذاته مـن خارجها ، فـلا يرى إلا غريبا عنـه ، أحقا يمت إلى نفسـه ؟، تلك الملامح ، هذا التردد ، الأحاسيس البكـر الغضة ، النزوع إلى انطواء ، الشروع فى الحنين الوعر ما قبل الغيب ، ثقل الوحدة ، السعى إلى الصحـب .

فترة نائيـة ، منقطعة ، منبثـة ، عمر مكتمـل ، معلق ، لا يمكـن فضه ، أو التعلق بوشائجـه ، تتمهل خطاه عند المنحنى ، يستعيد اللحظـات المندثرة فى

أرض يطأها لاول مرة ، لم يتخيل أنه بالغها فى هذا الاصباح المزهرية البعيدة. حتى لـو أنها تسعى الآن فى مكـان ما ، فهى ليسـت موجـودة بالنسبـة له ، يتعلق باللامرئى ، وينتشى بالخواء ! يتوقف ..

انه فى مواجهة بوابة حجريـة ضخمة تتوسط الطريق ، تقسمه نصفين ، أشبه بقوس نصر ، لكنها ليست كذلك ، لا تؤدى إلى شىء ، من فراغ إلى فراغ ، كل الأبـواب تؤدى إلى حيز محدود ، عدا تلـك ، فمن أين الدخـول ، وإلى أين الخروج ؟ حجارتها بـادية ، مستطيلة ، صفـراء ، لون مختلف عـن الوردى الغامـق الذى يوحـد مبانى المدينـة ، عددها سبـع ، أسهم صغيرة تشير إلى مـواقعها فى الخرائط والنشرات السيـاحية ، الغـرض من بنـائها مجهـول ، خاصـة أنه لا توجـد لوحات تذكـارية ، أو أى اشـارة تحدد تـاريخا أو زمنا بعينه ، لا نقوش أو حروف أو نحت ، بوابات صـارمة ، العارضة العلوية شبه مثلثة ، أطلق عليها السكان أسماء من خلال المعـايشة والموقع ، تلك التى مر بها اسمها « الجامعة » ، أما البلدية فترقمهـا وتعتبرها من الآثار العتيقة التى يمنـع المسـاس بها أو البنـاء بجـوارها ، ويقـال أن ثمـة خطـة للتنقيب عـن أسرارها، لكنها لم تتم بعد .

للمدينة أربع بوابات رئيسية تتخلل السور القديم ، لا تزال بعض أجزائه قائمة ، كل منهـا تواجه إحدى الجهات الأصلية ، منهـا تمتد الطرق المؤدية ، وضـع أسـاسـها الفلاسفة ، أما البوابات الداخلية السبع فمجهولة المنشأ .

يمضى متمهلا ، مسرورا لفرصة المشى المتـاحة الآن ، فى موطنه لا يمكنه ذلك ، الانشغال دائم ، والارهـاق واقع ، أحيانا يمضى اليـوم بدون خلوة إلى ذاته ، وإذ يستعيد أيـامه المتتالية لا يلمـح حدثاً بارزا ، أو أمـرا ذا خلاصة ، فيضيق بالرتابة ، وذهاب الأويقات سدى ، يتسع الطريق .. فيستعيد ساحة

فندق قديم اعتاد أن يمضى إليه طفلا بصحبة والده ، ليلتقيا بالقادمين من البلدة النائية ، وبعض الرواد الذين ارتبطت بهم الوشائج وأصول الصحبة ، لماذا تذكر هذه اللحظات النائية الآن ؟ ماذا استثارها ، وما الذى استدعاها ؟. يعجب لقانون الذكرى ، لماذا تفد لحظة دون أخرى ؟، ترد عليه شوارع فى مدن عديدة نزلها ، أنه يمضى متمهلا ، مستكشفا مدينة جديدة ، ربما لن يبلغها مرة أخرى ، ولكنه يطلع فى الوقت عينه على مدينة أخرى تمتد داخله ، من شظايا أماكن أقام بها مددا متفاوتة ، مدينة تواتيه ، تفاجئه فى أى لحظة فتطلعه على شىء من مكنونها ، ثم سرعان ما تحتجب ، الأماكن الحقيقية تلك التى يقدر على استعادتها ، أو تسترجعه هى ، حتى وأن نأى عنها وابتعد ، ما يمر به الآن ، يراه من موقع لحظة آتية ، قد يبلغها ، فما الذى سيبقى . وماذا سيمثل ؟

هذا سور حجرى ، ينتهى بقضبان حديدية ، متعانقة ، تتخلله أبراج حجرية تنتهى بقباب صغيرة تتوجها نجوم خماسية مشرعة ، تمتد حديقة من حشائش خضراء ، زاهية ، درجة صافية من اللون الاخضر ، كأنها غسلت للتو بالطل ، بعد صفين من أشجار نحيله ، مورقة ، يبدو المبنى الرئيسى لادارة الجامعة ، قديم ، صلب الحضور ، له وطأة ورصانة ، لا يمكن الاقتراب منه إلا على مهل ، بتأن ، وثمة رهبة حذرة .

لا يؤدى المدخل الرئيسى مباشرة إلى الدرج الرخامى ، انما إلى ساحة فسيحة مربعة ، تطل عليها نوافذ مكرورة ، متشابهة ، لوحات عديدة للاعلانات ، أوراق شتى ، أبيض ، أصفر ، بطاقات ملونة من ورق مقوى .

محاضرة بالمدرج الثانى حول طرق تدوين التاريخ الوسيط .

دعوة لحضور جماعة مناهضة التفرقة العنصرية يوم الثلاثاء .

أمسية شعرية ينظمها الطلبة الوافدون من الغرب .

اعلان عن فقد حافظة نقود بداخلها أوراق هامة .

دعوة أساتذة الدراسات الدراسات العليا لبحث التطورات المقرر اتخاذها من جانب البلدية بخصوص الحد الغربى لكلية الدراسات العلمية .

اضراب يوم السبت لمدة ساعتين احتجاجا على تركيب سقف كهربائى متحرك لمسرح المدينة الصغير بدلا من السقف التقليدى .

دعوة للتبرع بالدم فى المستشفى الجامعى .

بيان من الجماعة المؤيدة للثورة الفلسطينية .

على اللوحة المجاورة لافتة وحيدة مكتوبة بلغة تقليدية حول المؤتمر الذى جاء مدعوا إليه، الأول فى سلسلة تنظم على مدار السنة بمناسبة مرور تسعة قرون على تأسيس الجامعة .

قائمة المدعوين ، يقرأ الاسماء التى تسبقه والتى تليه ، أمامه وقت . حوالى ساعة ويبدأ الاجتماع الافتتاحى ، نصحه المغربى بالتزام الحذر ، فى لهجته ، نظرته عند مصافحته ، شىء ما غير مريح ، كيف لم يلحظه فى آنيته؟، ربما غشاوة النبيذ الجيد ، يخفى المغربى أكثر مما يظهر ، يومئ ولا يكسر . يرجئ جولته بالحديقة وفرجته المتأنية على المبنى ، لابد من تسجيل اسمه ، حتى الآن كأنه لم يصل بعد .

فى المدخل أبدى الظلال ، المثقل بانبعاثات أعمدة الرخام الخفية توقف . منضدة مستطيلة . مغطاة بملاءة بيضاء . تدون أوراق وتفتح ملفات وتراجع بيانات ، كتب مصفوفة ، وكوب من خزف تطل منه أقلام ، عندما انحنت بدا ردفاها ممتلئان رغم نحول قامتها ، حافة سروالها الداخلى ، اعتدلت فتلفتت ، تداركت أمرا يجهله فأومأت مشيرة بأصبعها ، عيناها

فسيحتان ، تطلعت إليه مبتسمة ، تستمهله حتى تفرغ ، يتخيل ملامحها في لحظات الخصوصية ، عند العناق ، بعد اجتياز بوابة عالمها الحسى ، لم تلفت نظره أنثى إلا رآها بعينى عقله عند انطلاق أسارها ، وانفلات عقالها ، كل منهن كون صغير مختلف ، الاصوات لا تتشابه ، كذا الغنج والرهز ، وفي ذروة الاندماج ، يتبدل الوجه الفتى أمامه إلى ما سيكون عليه بعد الطعن في السن ، والامعان في الشيخوخة ، بل يكاد يتلمس الهيكل العظمى الذى سيتفكك ، ويتذرى ، طاويا كلّ ما ضج حوله يوما من أشواق ، وآلام وملذات لا تبقى .

تقبل عليه ، تبدى ودا وظيفيا ، إلا أن ثمة مسافة غير منظورة تفصلهما ، تتأمل جواز سفره ، تقلب صفحاته ، تنقل بياناته المكتوبة باللغة الافرنجية. تقدم إليه وريقات أربع لابد أن يخطها بنفسه ، عديد من الاستفسارات ، تاريخ الميلاد ، الجهة ، جامعة التخرج ، سنته ، البلاد التى زارها ، الدرجات العلمية ، الحالة الاجتماعية ، هل زار المدينة من قبل ؟ هل يشكو أمراضا معينة ، إذا سبق له المجيء ، فأى جهة كانت الداعية ، الجامعة أم البلدية ؟

عندما تقدم إلى سفارة الدولة للحصول على تأشيرة الدخول ، ملأ استمارة مشابهة تماما ، اجراء مكرر ، فيما بعد علم أن السفارة لا ترسل البيانات إلى الجامعة ، انما إلى البلدية ، لأن الضيف سينزل المدينة ويقيم بها، الأمن يتبع البلدية ، به قسم خاص بشئون الأجانب الوافدين سواء لفترات قصيرة أو طويلة ، متصل مباشرة بادارة الهجرة الاتحادية التابعة لوزارة الأمن ، وتعتبر من أقوى الوزارات نفوذا ، ويتولاها عادة أحد عتاة الحزب الليبرالى الحاكم .

عندما مدت البطاقة المغلفة لم ينتبه ، كان يستعيد البوابة الحجرية ،

قيامهـا الغامض فى الطريـق ، ظهورها المفـاجئ ، سيحاول رؤية البـوابات الست ، ينزل المقابر الفرعونية ، الأبـواب الوهمية ، أحقا كانت لمجرد تضليل اللصوص ؟ ، والأم تـؤدى ، أو ترمـز ؟ ، هذا محير ، دائما تـؤدى إلى شىء ، لكن.. هذه ، مـا الغرض منها ؟ يتأمـل البطاقة . مدون عليهـا اسمه ، درجته العلمية ، وتخصصه ، توقيع مـدير الادارة ، وقائد الحرس الجامعى ، لاحظ نقاطا سـوداء بارزة غير متساوية ، تتصل مباشرة بمـركز الحاسب الآلى فى البلديـة ، إذا اعترض طريقـه أى حارس أمنى ، فـلابد مـن ابرازهـا . عندئذ يضعها فى جهاز صغير بـه شاشـة ، يضغط رموزا معينة ، عنـدئذ تظهر كل المعلومـات المطلوبة ، لكـن الاطلاع عليها لا يعنـى عدم طلب جـواز السفر ، خاصة بالنسبة للأجانب ، وهو هنا أجنبى .

البطاقـات حديثة ، تعميمها لم يتـم إلا بعد جدل علنـى عنيف ، اعتبرتها الجامعة مساسا بحرية الإنسـان ، فـالمعلومات الجديدة ليست تقليدية ، انما تشمل الحالـة الصحية ، والأحوال النفسية ، والمزاج الجنسـى ، والقدرة على الجماع . هكـذا يمكـن لأى جنـدى الاطـلاع فى لحظـات على أدق الشئـون الإنسـانية . صحيـح .. هنـاك قسم خـاص بادارة الأمـن يهتـم بالشئـون الداخليـة. لكن أفراده غير معـروفين ، والمعلومـات فيه غير متاحـة إلا لأهل الاختصاص، صحيح أيضـا ما تردد عن امكان الـوقوف على بعض الأسرار مقابـل رشوة مـرتفعة ، لكن لم يتـم هذا إلا فى أطر محددة، ومقـابل مبـالغ باهظة يعجز عن دفعها سائر الخلق ، أما البطاقات فتجعل صفحة كل إنسان مكشـوفة ، مبـاحة ، وهـذا صعب ، يتنـافى مـع الدستـور القائم ، وحقـوق الإنسـان التى أقرتها الأمم المتحدة .

قاد رئيس الجامعة الحملة ، ونظمت اضرابـات عديدة ، ورفعت اللافتات

الاحتجاجية فوق مباني الكليات والمعاهد . وعقدت مؤتمرات صحفية ، ونظمت مسيرات ، لكن رئيس البلدية تصدى بحزم صارم ، أعلن أن الاحتجاج موجه في جوهره ضد السلطة الاتحادية ، وهذا مخالف للمادة السادسة من الدستور ، وأكد أنه سوف يتصدى لأى مسيرة تتجاوز الأسوار الجامعية ، وقال إنه تم تزويد الحرس ببنادق آلية تطلق رصاصات مطاطية تصيب الإنسان بجروح غير قاتلة لكن من الصعب مداواتها ، واتبع تصريحاته بحضور تدريب لاطلاق هذه الرصاصات جرى فوق تل الفلاسفة المشرف على الحد الغربي ، ويقال أن الاربعين نزلوا عنده .

جرى تنظيم حملة مضادة ، أوضح خلالها ضرورة استخدام تلك البطاقات ، خاصة مع تزايد أخطار الجماعات الإرهابية ، ونمو قوى المعارضة السرية . عمت البطاقات . ولم يستثن الغرباء ، وكل من تزيد مدة أقامته على ثلاثة أيام ، تقول الفتاة أنها لا تغنى عن ضرورة الاحتفاظ بجواز السفر ، هذا متبع مع سائر الأجانب وما هو الآن الاعابر ، هل رمقته الفتاة بنظرة ود خاصة ، مصادفة ، أو قصد؟ ، لم يدر ، أنما جاوب التحية بأحسن منها ، يمضى صوب السلم العريض ، مستنفرا بهجة غامضة ، متأبطا الحقيبة الصغيرة التى تسلمها ، أوراق المؤتمر وبيانات ومعلومات ارشادية ، ولسبب قديم غامض كنهه ، تساءل ، أين سيكون فى مثل تلك اللحظة ، العام القادم؟

خلافات اجرائية . .

.. حميمية البدايات ، مجاملة ، حذر ورغبة فى سبر كنه الآخرين ، ما يترتب على دنو أطراف تلتقى أول مرة . كل جاء من مكان قصى ، لأيام متتالية ستتكرر اللقاءات صباحا ومساء ، اعتادها ، يتبادل العناوين وأرقام الهاتف ، يمضى متأثرا بلحظات الافتراق ، بعد الأوبة يختفى هذا وبعده ذاك، تفقد الملامح ، تتبدد الخصائص ، تتداخل القسمات ، ما يتبقى شظايا ، أثر عودة أحدهم إلى بلده فى أقصى أمريكا الجنوبية ، أرسل إليه بطاقة يتمنى فيها عاما جديدا ، سعيدا ، وسطرا علق بذهنه يقول فيه إن المسافات قصية ، ولكن اللقاء ليس مستحيلا ، كان أسمر البشرة ، ودودا دائم الابتسام ، والحديث عن طفله الوحيد ابن العامين ،أنجبه بعد عسر طويل ، كان شرقى الحضور والمودة ، يتوافد أعضاء المؤتمر ، يبدى بعضهم الرغبة فى القربى ، يعرف أسماء بعض المشاركين فهم من أهل الاختصاص ، رجل طويل ذو لحية طويلة مدببة ، يميل منحنيا ليقرأ الاسم المكتوب على البطاقة المعلقة الآن على صدره ، يعتدل واقفا ، يهز رأسه مرات ، يقف البعض قرب المدخل ، عشرون دقيقة مضت على موعد الافتتاح ، لم تبدأ الجلسة بعد ، علق أستاذ أكاديمى قصير القامة ، دائم الحركة ، قال إنها علامة غير جيدة ، أشار إلى أهمية انضباط المواعيد ، وعندما فتح الباب الشاهق . المؤدى إلى فراغ مؤطر

رخيـم ، فيما بعد تكشـف سبب التـأخير ، إذ وقـع خلاف ، سببـه ترتيـب الجلوس فوق المنصة ، من .. إلى يمين وإلى يســار رئيس الجامعة ؟ ، التقاليد غامضة ، المناسبة تحل كل قرن زمـانى ، الرجوع إلى آخر احتفال غير مجد ، كان الواقع مغـايراً ، لم يمض على اعلان الدولة الاتحادية زمـن طويل ، كان نفوذ المؤسسة الـدينية راسخاً قويا ، هذا ضعـف خلال السنوات الخمسين الأخيرة التى تم فيها فصل الدين عن الدولة ، لهذا لم يكن أى احتمال لدعوة أحد رجـال الدين للجلـوس فوق المنصـة ، حدد مكانـه فى الصف الأول بين المقاعد المخصصة لعمداء الكليات النظرية .

بدأت المناقشات ليلة أمس ، وبلغت درجة الحدة فى بعض الأحيان ، حتى حسم الأمـر بقرار شبه جماعى ، أن يخصـص المقعد الأيمن لممثـل السلطة المركزية ، أما اليسار فللضيوف ، إذن .. مـن ؟ . المحليون أو الأجانب ، اتفق على الـوافديـن مـن الخارج ، اذن .. كيف يتـم الاختيـار ، مـن الغرب ، عـن الشرق؟، من العلماء ، من الأدباء ؟، مـن الكتاب الدارسين ، أو الصحفيين أو المبدعين ؟، من ذوى المكانة أو مـن ذوى الذيوع والانشاء ، أو من الحاصلين على جـوائز معترف بها ؟ ان أى خطأ غير مقصـود ربما يؤدى إلى انسحـاب البعض ، أو تقديم احتجاجات من السفراء فوق العادة المعتمدين فى العاصمة المركزيـة ، تم الاتفـاق على تخصيص المقعـد لممثل منظمـة التربية والعلـوم والثقافة العالمية ، كان يونانيا معدنى الصوت ، متوسط القامة ، غليظ العنق ، طويل شعر الرأس ، فى عينيه تعبير مقيـم عن الألم أو الشكوى من شىء ما ، دائم التطلع إلى السقـف ، محب لاطالـة الحديث ، خـاصة عنـد التعقيب ، أو تقديم الاقتراحات ، والاشارة بأصبعه إلى غير ذى قصد .

هكذا .. تم تفـادى دعوة رئيس البلدية للجلـوس إلى يمين رئيس الجامعة

كما جرى قبل ثلاثة قرون عند الاحتفال بالذكرى المئوية السادسة ، فى السابعة وقع أمر لم يتكرر على امتداد التاريخ المعروف ، كان رئيسا البلدية والجامعة شخص واحد ، استثناء لم يحدث من قبل ولا من بعد ، لم يستمر أكثر من ثمانية عشر شهرا ، عندما أصبح صعبا عليه تسيير دفة الأمور فى الناحيتين ، وعدت هذه التجربة من المستحيلات التى لا يمكن تكرارها .

ترتب على عدم دعوة رئيس البلدية إلى المنصة الرئيسية ، أن الصحف الثلاث التى تصدر فى المدينة ، والمعبرة كلها عن وجهة نظر البلدية تجاهلت الاحتفال ولم تردد أخباره إلا فى صفحة الحوادث المحلية والجرائم وبعض الاعلانات الخاصة بالمدينة . أما مراسلو الصحف الرئيسية فى العاصمة فيبدو أن علاقاتهم ومصالحهم مع البلدية الزمتهم نفس الموقف ، وزير السياحة الاتحادى أبدى قلقه من موقف البلدية ، خاصة بعد منع الملصقات الجامعية من شوارع المدينة ، عدا الأجزاء المحددة بالبراميل الحمراء ، قال إن فرصة ضاعت لا تتكرر إلا كل قرن مرة ، كان ممكنا استغلالها بحيث تحدث ردود فعل قومية ، كان ممكنا تدفق آلاف السياح على المدينة ، وحضور الاحتفالات خارج أسوار الجامعة ، والفرجة على موكب الاساتذة بالملابس التقليدية ، لكن للأسف لم يحدث هذا .

جانب آخر أثار جدلا ، فطبقا للتقاليد المدونة يتم اخراج المقعد الرئاسى من المخزن مرة كل سنة ، أثناء الاحتفال بتخريج طلبة الدراسات العليا ، عمداء الكليات النظرية رأوا أن ظهوره يعنى اخلالا بالنظم المرعية ، لكن عمداء الكليات العملية أصروا ، وأبدوا دهشتهم ، ليس معقولا اخراجه فى الحفل السنوى ، وفى الحفل المئوى الذى لن يشهد كل المشاركين فيه الحفل القادم يتم أخفاؤه ، هكذا انتهوا أخيرا إلى فتح المخزن وحمل المقعد منه مباشرة إلى المنصة .

إغفاءة قسرية

.. قرب نهاية الجلسة ، هما عليه وجد ، إذ خيل إليه أنه مفارق لدياره منذ حقبة طويلة ، لم يستطع تحديد عمقها ، لكنها قديمة ، ذات عمق ، تحوى بعدا قصيا ، مع أن ما أمضاه هنا يعد بالساعات ، سواد ليلة وسويعات نهارية ، فلماذا الاقصاء وشحط المدة ؟ داخله ثقل يستعصى على الفهم ، ويصعب على الاحاطة ، ما مصدره ، ما سببه ؟ لم يدر ، حاول التعلل بهذا السبب أو ذاك ، مثلا .. عتاقة المدينة ، واجهاتها الوردية المتشابهة والأبنية التى تشربت ما يكفى من الوقت ، الاقواس المتوالية ، المتصلة ، توحد أطراف المدينة بمركزها ، كأنه ينتقل من فناء إلى فناء ، أو من حجرة إلى أخرى فى بناية هائلة مفتوحة على الفضاء اللانهائى ، ولأنه اعتاد السهر ، كان يجثم عليه ضيق بعد انتهاء العشاء فى المطعم القريب من الفندق ، خصصوا للضيوف قسما منه ، قدموا لكل منهم عددا من البطاقات ، كتب فوق بعضها: غذاء والأخرى : عشاء . احصى ما تبقى ، ست فقط ، بقى .. ثلاث ليال فقط ، فى بداية اليوم الرابع يركب قطار العاشرة وخمس وعشرين دقيقة، يصل العاصمة ، يمضى ليلة لاغير ، ثم يقلع ، يضيق الآن بالترحال ، خاصة ما لا يحدد وقته ، ولا يختار جهاته ، أسفه الممزوج بالحنين إلى أيام نأت اشتاق فيها إلى رؤية ما وراء الديار ، أماكن لم تقع عيناه عليها ، ومدن

تختلف كل منها عن الأخرى ، لا تتشابه ، لكن .. ألا يبدأ توقه إلى التغرب بعد عودته، استقرار اقامته ؟، لم يلزم جانبا بعينه ، يحن فى ثباته ، وفى خروجاته، كل هواجسه تشب خلال السنوات الأخيرة ، لا يدرى متى بدأ بالضبط خوفه من اغماض عينيه إلى الأبد فى أيام غربته ، تتوالى على ذهنه المكدود تفاصيل مابعد فناء وجوده ، العثور عليه فى الفراش ، الاجراءات التى ستتبع ، نقل الجثمان ، مكان المواراة ، وقع النبأ على من يعرفونه ، على ذوى القربى الذين انقطعت أو وهنت صلاتهم به ، ثم بدأ النسيان وتدرجه حتى اكتماله ، يذكر قولا قديما ، بنيت الدنيا على نسيان الأحبة ، وما المدينة ـ التى يسمع الآن صوت رياح شديدة ، استثنائية ، فى غير موعدها ـ إلا درجات ، وزوايا من النسيان ، تتلاشى من فترة إلى أخرى ، فلا تمت العناصر إلى الماضى بقدر ما تنتمى وتنسب إلى الحاضر الآتى ، حتى ما يتعلق بالفلاسفة الأربعين ، أو ما سيروى عنه إذا فاجأته المنية اثناء رقاده أو خلال حركته فى أيامه المعدودات تلك .

خواطر لا يقدر على دفعها ، وأخيلة لا يمكنه تبديدها ، وعندما اضطر فى إحدى الليالى لبلع نصف قرص مهدئ حتى يرحل إلى النوم . بدأ عند صحوه أسى ، ومرثية منه إليه ، فكأنه مالك بن الريب ، الذى رثى نفسه حيا ، قبل أن يرقبه الآخرون ميتا .

مع رحيله يبدأ توقعه لتلك الهواجم ، حتى رقاده فى الفراش يتغير ، يتكوم ولا يتمدد ، يتحفز لصد أذى البغتة ، كثيرا ما يشق عليه الهجوع ، فتطلع عليه شمس نهار جديد بدون اغفاء ولو يسيرا ، يحاول استعادة ملامح المدينة عبر الجزء الذى يقطعه مشيا ، عند انصراف الجمع رأى الفتاة النحيلة واقفة أمام عربة سياحية ، أشارت بيدها تدعوه ، أومأ إلى الطريق ، يفضل

المشى ، هـزت رأسها مرات سريعـة ، متعاقبة ، بـدت رشيقة ، واثقة ، عـذبة النظرة ، ولى وعنده بهجة خفية وحنين إلى أوقات لا يثق تماما أنه عاشها .

تنفذ المدينـة إليه داخل حجـرته المغلقة ، فتلغـى تشابهها بغـرف أخرى نـزلها فى بلدان متفـرقة ، يـلاحقه ثقـل فراغهـا ، وغموض بـرجها ، وتـوالى الاقواس الحجـرية الـذى يمنحها بعدا دينيـا ، كأن معبـدا غير مسور ، غير محدد يتوزع عليها وينتشر فيها ، الليل طويل ، يؤكد ضرورة استبعاد النفار بينه وبين الأبنيـة والطرقات والنواصـى ، أن يحاول رؤية ما لم يـره خلال الأيام القليلة المتبقية ، خاصة البوابـات السبع ، دائما قبل اقدامه على الرقاد يمتلئ بالمشاريع ، تتعـاظم عنده النوايا ، وأحيانا الرغبـة فى مضاجعة من لم يعرفهن بعد ، أو يستعيد لحظات متعة منـدثرة ، وعند صحوه يتبدد كل أثر ولا يقوم أمامه الا السعى ، لعل وعسى !

يؤدى افعالـه الطقوسية متمهلا ، تلـك حافظة نقوده ، أمـا جواز سفره فدائما إلى جـواره ، فى المتناول ، كذا كوب الماء الـذى يبقيه على مقربـة خشية ظمأ يحل ليلا ، لايبقـى إلا خفقة قلب أثر استعادة لحظات تـوهج شاردة ، والتماس الرقاد ، والعبور برفق هين من صحو وتبدد إلى غبوق واستكانة .

بنايات..

.. يرن الهاتف ، جرس قديم ، ينبه بحدة ، فكأنه نذير . المغربى يتحدث ، قال إنه علم بخلو وقت ما قبل الظهيرة ، ويقترح جولة بالمدينة ، أبدى شكرا ، سيطلعه على ما لا يعرفه ، فى العاشرة تماما جاء ، نشطا ، أنيقا ، يرتدى قميصا خفيفا يبرز ملابسه الداخلية ، يحيط معصمه بسوار ذهبى حفر عليه الحرفين الأولين من اسمه ، بدهشة لاحظ شاربه المنمق ، هل رآه أمس؟، ليس متأكدا ، جلس إلى جواره ، قال إن المدينة لا توحى بحجمها الحقيقى لمن يصلها بالقطار ، لكن بالطائرة يمكن إدراك مدى اتساعها ، المطار على بعد أربعين كيلو مترا من المركز ، تلك مسافة كبيرة نسبيا ، المدينة أقليمية ، عندما فكروا فى اقامته أصرت الجامعة على إطلاق اسم أحد علمائها عليه باعتبار الجامعة أساس المقاطعة ، وأهم مؤسسة تعليمية وثقافية فى البلاد كلها ، لكن البلدية قاومت واعترضت ، هدد رئيسها بالتوقف عن تقديم أى مساعدة ، وقانون الإدارة المحلية يمكنه من ذلك ، هنا قررت الحكومة الاتحادية انشاء المطار فى منتصف المسافة بين المدينة والبلدة التالية جهة الشمال ، وتشتهر بقنوات المياه والمصنوعات الخشبية المكسوة بالفضة ، يقصدها السياح للفرجة والتسوق ، قال المغربى لو اتسع الوقت سيصحبه لزيارتها ، ان شوارعها الفرعية مائية ، أغرب من البندقية ، ومن البصرة ، أما جسورها العتيقة فتعد منشآت فنية رائعة ، كذلك أعمدة الانارة .

قال إنــه سيغادر بعد يومين ، الـوقت المتاح قصير ، قال المغـربى : ولماذا العجلة ، المدينة بها الكثير ممــا يجب رؤيته ؟ قال إنه مضطــر للعودة بسبب ارتباطات عديـدة ، ثم أنه لا يشعر بضرورة للبقاء ، للمؤتمر طــابع احتفالى ، وليس علميا . تساءل المغربى عما إذا كـانت الخلافات بين البلدية والجامعة واضحة ؟، قال إنها تبدو كـذلك ، وبالتأكيد لاحظها قبـل غيره بعد ان نبهه إليها أثـر وصولـه ، أنها واضحة فى كل الجزئيــات . حتى فى قــوائم الطعام . المطعم المخصص للضيوف يعلن أنه ينفرد بتقديم الوجبات الجامعية ، يرجع مؤرخو الجامعة عنــاصر تكوين الأطعمة إلى الطلبة الأوائل الذيــن جاءوا من مسافات قصية وحملوا معهم تقاليدهــم وأمزجتهم ، اعتادوا الطهو فى أماكن أقامتهــم ، ثم بطـل ذلك بعـد تشييد المطبـخ الرئيســى الذى أقيـم على نفقة الأثرياء ، وهذا سبب يقوله رجال البلدية ، اشارة إلى دورها فى انشاء الجامعة وتدعيمها ، فهؤلاء الاغنياء من أهالى المدينة ، ولولا تبرعاتهم لما نمت الجامعة وتطورت ، المطبـخ الجامعى اشتهــر باعـداده وجبات لكـل الطلبة ، وكــانت لوازمه مشهورة بضخامتها ، حتى قدرت فى القرن الحادى عشر مثلا بمائة رأس غنم ، وخمسمائة رطـل سمن ، وثلاثـة آلاف من الطيــور ، وطنين من الخضـار ، ومثلهما من الفــاكهة ، إلى غير ذلك من دقيق وسكر وتــوابل ، لكل طالب راتب معين يوميا ، وفى البداية أكـل الاساتذة من المطبخ ، لكن فى القرن الثالــث عشر خصص لهم آخر ، ومعظــم الوجبات التقليـدية مرجعهــا طعام الاساتذة الذى بلغ درجة عالية من الجودة ، بعضـهم وضـع مؤلفات فى كيفية اعدادها وفوائدها ، فثمة مـأكولات مقــوية للباه ، مدرة للمنى ، وأخرى تعالج أمراضـا بعينها ، وثــالثة تشـحذ الذهن ، وتذهب بضيــق الصـدر ، أغرب هذه المؤلفات كتــاب وضعه أستاذ فى الكيمياء ، ذكـر فيه أطعمة تحوى ألوانــا من اللحم بغير لحم ، وكبد مقلية بدون كبد ، وعجــة من غير بيض ، وثريد بدون

خبز أو أرز ، وحلوى بدون عسل أو سكر .... يضحك المغربى ، يقول إن هذه معلومات جديـدة بالنسبة له ، يصمت لحظات ثـم يقول ، إن الخلاف أخطر مما يتصـوره البعض ، وانه أشـق ما واجهه عنـدما نزل المدينـة منذ خمس وعشرين سنة ، لكنه مع الزمن أصبح يفهم كلا الطرفين ، يقول إنه على علاقة جيدة بـرجال الحكومـة المركزية ، مـا من وزير يجىء إلى المدينـة الا تناول الغـذاء أو العشاء فى بيتـه ، انـه الـوحيد الـذى يمكنـه جمع رجـال البلديـة والجامعة فى مأدبة واحدة .

يصغى صامتا ، حتى الآن لا يعرف شيئـا عن طبيعة نشاطه ، لماذا يقيم هنا ؟، رجل أعمال ، لكن .. أى أعمال ؟ لم يفصـح ولم يفسر ، ومن ناحيته لم يرغب فى الاستفسـار ، يقين خفـى عنده أنه لن يراه مرة أخـرى ، ثمة أسباب غامضة يستمـد منها نفوذه ، لكنه لم يستطع تخمينهـا . يحيد بصره ، يرى جانب وجهه الأيمن ، يزداد يقينا بغموضـه ، أنه يخفى أكثر مما يظهر ، ظل ابتسامة ساخرة على وجهه ، ما محور السخرية ؟ هل تتعلق به ؟ .

تسرع العربة ، الطرقات ضيقـة ، المرور فى اتجاه واحد ، تنتهى الاقواس الحجريـة ، لكن على الجانبين تتـوالى أعمدة المصابيـح ، قديمـة الطراز ، على مسافات متقاربة ، تبدو من بعيـد متجاورة ، تعرض متاجر العاديات نماذج منها ، نحيلـة ، رشيقة ، حوفـظ على طابعها وطـرازها عبر قرون عـدة ، ثمة مصنع متخصص فى صيانة أجزائها ، واحلال جـديد بدلا من التآلف منها ، يدور حول سـاحة مربعة ، تتوسطهـا نافورة تنفث الماء بتؤدة . عنـد بداية شارع متسع نسبيا ، مبنـى رخامى قائم على أربعة أعمدة تعلـوه بقايا قبة . أحد الأضرحة التسعة والثـلاثين ، فيه يرقد واحد من الفلاسفة ، بـالرغم من عدم اكتشـاف قبر كبيرهم ، يطلق سكان المدينة على كل ضريح « مثوى السيد الأربعين » ، يؤمنـون أنهم حماة المدينة ، والـذابين عنها كـل شر ، يرجعـون

انحسار الطاعون بسرعة زمن الوباء الأعظم إلى بركتهم ، يقول المغربي ، البعض يردد همسا ان عددا منهم أقيم على فراغ ، أو دفن فيه مجهولون ، عابرون ، وربما بعض المجرمين العتاة الذين صلبوا ، أو قطعت رقابهم فى عصور بعيدة لقتلهم بشر لا حصر لهم ، أو لهتكهم أعراضا ، لكن لا يمكن الجهر بذلك فى مدينة تخرج كلها ذات يوم معين فى كل سنة لتضع باقات الزهور على الأضرحة فى ذكرى نزولهم موضع المدينة ، وعند البوابات السبع تحية لكبيرهم الذى مازال مرقده مجهولا .

يتجه يسارا ، تتقارب المبانى ، تتضام حتى ليصعب تحديد الفواصل بينها . يطلب المغربى منه التطلع جهة اليمين ولكن .. بحذر ، ميدان كبير يتوسطه مبنى ممتد ، ضخم ، من ثلاثة طوابق ، لكنها على الطراز القديم ، مرتفعة ، نوافذ مستطيلة ، مغطاة بقضبان حديدية سوداء متعرجة ، تتلاقى عند المنتصف تماما حيث زهرة معدنية صفراء ، الزجاج مسدل عليه ستائر بيضاء ، لسبب ما خمن الطابع الرسمى للمبنى ، يوحى بالسرية .. تتشابه أجهزة الأمن ، وان بدا هذا ثقيل الوطأة ، مهيمنا طاغيا على ما عداه حتى ليتجاوز حدوده المادية إلى سائر الاطراف .

فعلا .. لم يخب ظنه .

يقول المغربى إن هذا المبنى يعتبر أخطر المقار فى الناحية كلها ، من داخله يمكن رؤية كل شيء ، برغم ارتفاعه المحدود ، أنه الفرع الرئيسى لإدارة الأمن الاتحادية ، يتبع العاصمة ، مديره يعين بقرار رسمى ، علوى ، لكن ثمة علاقة قوية بالبلدية ، رئيسها له مكتب داخله ، لكن متى يتردد عليه ؟ أى واجبات يقوم بها على وجه الدقة ؟ ، هذا كله غير معروف حتى .. لذوى الاطلاع .

البنــــاية ، ومـا شـابهها ..

.. يقال أن شيخا جليلا مر بفخ منصـوب ، وإذا بطائر قريب منه ، فقال الطائر ، أيها الرجل الطيـب ، هل رأيت أقل عقلا من هـذا الصياد ، نصب هذا الفخ ليصيـدنى فيه ، أنـا لن أطير ولن أقـع فيه ، مضى الشيـخ إلى قصده ، قضـى حاجته ، وعنـد عودته رأى الطائر واقعا فى الفخ ، فقـال : عجبا ! ، قال العصفور ، إذا جاء الحين ، لم يبق أثر ، ولا عين .

لماذا تطفو هذه الحكاية إلى سطح وعيه ؟ يستعيد تفاصيلها لكنه لا يقدر على استرجاع مصـدرها ، أين قرأهـا ؟ متى سمعها ؟ لايـدرى ، ربما خشية غامضة مـن ظرف قد يؤدى بـه للتعامل مع هـذا المبنى الغريب ، لكـن .. ما علاقته بـه ، صحيح أن اسمه أدرج فى حيز مـا داخله باعتباره ضيفـا حل ، وكما تقضـى النظم لابد من تسجيل كل العابرين ، للمبنى صلة وثيقة بتاريخ البلاد ، إذ يرجع تاريخ جهاز الأمن الاتـحادى إلى مرحلة الحروب السابقة على توحيد المقاطعـات المتصارعة ، خلالها ظهر شخص لا ينتمـى إلى أهل البلاد الأصليين ، تناقضت الروايات حول انتمائه العرقى ، فأمه من الغرب ، وأبوه من الشرق ، وجده لأمه من الجنوب ، وجده لوالده لايعرف له أصل ، لكن من الثابت المقطوع بـه أن علاقته بالاجرام وطيدة ، بـدأ صبيا صغيرا فى عصابة مـن الغجـر الرحـل تخصصـت فى سرقـة الأطفال الصغـار وبيعهـم لمن لا

يستطيعون الانجاب ، ثم تقلب به الحال حتى أصبح من عتاة قطاع الطرق ، ورويت عنه أخبار تدنو فى كثير من جوانبها إلى الاساطير ، فمن ذلك قدرته على الهرب ، حتى قيل أنه اعتقل وسجن فى كل سجون البلاد وقلاعها ، وأنه هرب منها جميعها ، فاذا كان قد سجن سبعين مرة ، فانه هرب سبعين ، لكن طرأ فجأة تحول غريب ، ماذا حدث بالضبط قبله ، هل جرت اتصالات ؟ هل تمت الاستعانة به ؟ لا أحد يدرى .

المهم . أنه ظهر فى العاصمة المؤقتة ، بالتحديد فى مقر قيادة الجيوش الموحدة التى أخذت على عاتقها مهمة توحيد الولايات المتنازعة بالقوة ، فى هذه المرحلة بدأ تأسيس جهاز الأمن الموحد ، ومما قيل عنه ايمانه أن وحدة البلاد الحقيقية لن تتم إلا من خلال جهاز أمن قوى ، جاثم ، يمسك الأطراف ، ويحدد البؤر النشطة ، مثل هذا لابد أن يقوم على جهد عتاة متمرسين ، قساة القلوب ، وبالفعل أقدم ، بذل نشاطا كبيرا لجمع أهل الخبرة ، هكذا وضع أساس هذا الجهاز الفريد ، والذى حظى فيما بعد بشهرة حتى عد مرجعا لأهل الاختصاص من كل الجنسيات ، توافد عليه رجال المخابرات الأمريكية ، والسوفييتية ، والدول المستقلة حديثا ليتعلموا منه ، ليتقنوا الأساليب المتبعة. جاء المؤسس بنفسه ليشرف على تشييد هذا المبنى ، ويقال أنه قسمه إلى ثلاثة طوابق ظاهرة ، وثلاثة تحت الأرض ، وقسم كل طابق إلى سبعة أقسام، وكل قسم إلى أربع ادارات منفصلة ، وموّه المداخل المؤدية إليه ، حتى يمكن رؤية الداخلين إليه ، أو الخارجين منه ، لم تفتح نافذة ، ولم تهتز ستارة ، أما الأبواب الجانبية الضخمة فموصدة منذ حقب بعيدة ، حتى فى أيام الاحتفالات الرسمية أو المناسبات أو نزول ضيوف مهمين بالبلاد ، ما من أعلام مرفوعة ، أو شارات بارزة ، فقط ، عدد لا حصر له من هوائيات

الارسال والاستقبال ، بعضهـا مستدير ، والآخر نحيل قـاتم ، وهذا الهوائى بـالتحديـد يتردد بين القوم أنـه مخصص للتصنـت على النجوم ، وسكـان الحجرات البعيـدة ، فى الليل ترى أضواء خـافتة منبعثة مـن وراء الستائر ، ويؤكد البعض ان ثمة أصواتا تنبعث فى بعض الليالى ، لكن .. لا يمكن تحديد مصادرها بالضبـط ، اختير موقعه بعناية، أنه فى المركز تقـريبا ، عند منطقة فارقة بين المنطقـة القديمة حيث منشآت الجامعة ، والمنطقـة الحديثة ، حيث المركز المالى والصناعى ، يشعر كل مقيم أو عابر بوجود المبنى ، اقترب منه أو ابتعد ، أقبل نحوه أو أولاه ظهره ، لا يحيطه أى سور أو حاجز ، فقط رصيف عرضــه أربعة أمتار ، مبلط بحجـر قديم ، لم يجدد ، لم تجر لـه أى عمليات صيانـة ، مع ذلك يبدو وكـأنهم فرغوا منه بـالأمس ، وبرغم عـدم اعلان أى تعليمات بمنع الاقتراب ، فلا يسعى إنسان للمشـى فوق هذا الرصيف ، ولا يقربـه حتى الأطفال ، أو الحيوانـات الضالة ، فكأن سلـوكا خفيا يولـد مع سائر المخلوقات يقضى بتجنبه والابتعاد عنه ، وعندما عمت البلاد موجة من الحوادث الارهابية ، وتم تفجير محطة القطـار الرئيسية فى المدينة ، وضبطت شحنة متفجرات فى مخدع رئيس البعثة التعليمية قبل انفجارها ، لم تتخذ أى احتياطات حوله ، لم يظهر حراس ، ولم توضـع حواجز كما جرى عند جميع المنشآت الحيـوية ، لم تلح أى بـادرة أو علامة تنـم عن قلق أو خشيـة ، عدا ملاحظة رصـدها صحفى محلى ـ ولم تنشر ـــ إذ ظهر هوائى جديـد ضخم عند الحافة الغربية ، يشبه شباك الصيد المستخدمة فى البحار الجنوبية ، أما أغرب ما سمعه ، فهـو القول بحركة المبنى ، إذ يؤكد بعـض من أهالى المدينة أنه غير ثابت ، يتحـرك ، يكمل دورة كل نصف قرن ، الواجهـة الشرقية التى تعلوها صورة من جص ملون لرأس المؤسس كانت جهة الغرب منذ خمسين

سنة ، يـؤكد ذلك بعض المعمـرين ، انه يتحـرك طبقا لنظام هندسـى بارع ، بحيث لا تلحظ حركتـه ، ولا يدركها المقيمون داخله ، أو الساعـون خارجه ، تماما مثل كوكب الأرض ، يدور ولا يدرك الا العرض الناتج ، ليلا ونهارا ، أما الحركة نفسها فلا تحس ، لا توجد صور قديمة توضح الوضع ، بل لا توجد صور على الاطلاق ، ويبدو أن ثمة اشعاعا خفيا ينبعث بوسيلة ما ، يفسد أى عدسـة تصويـر توجـه إليه من بعيـد ، من أى زاويـة ، أما الصـور الملتقطة بواسطة الاقمار الصنـاعية فلم تتضح بها أى معـالم ، مكانه بقعة رمـادية وكانه أرض يباب .

مما يتردد أيضا مـن غريب القول ، اختفاء المبنـى فى ليال غير محددة كل عام ، فى طقس صفو ، خـال تماما من الضباب ، ولم يثبت ذلك ، أمـا أسـاتذة الجامعة وطلبتها ، فيقولـون ان هذا الجزء المهيب ، الظاهر ، ماهـو إلا مدخل وغطـاء لمساحـات ممتدة تقـع كلها تحت الأرض ، تضـم فيما بينها سجنـا غريبا، يتسع باستمرار ، كلما ولد طفل تفتح له عدة ملفات فى أقسام مختلفة من البنـاء ، وتشيد له زنـزانة صغيرة ، معتمـة ، خالية مـن الفتحات ، ربما نزلها يوما .

يضمـر الجامعيون كـراهية للمبنـى وما يمثلـه ، لكنهم لا يجاهـرون ، فجهاز الأمن الاتحادى له منزلة خاصـة فى طول البلاد وعرضها ، إذ ينسب إليه تـرسيخ الـوحدة الـوطنية ، وفـض الخلافات ، العـرقية ، والطـائفية ، والـدينية ، والقـومية ، عـدا خلاف واحـد استعصى فضـه ، انه القـائم بين الجامعة والبلدية ، انه خلاف عميق ، قديـم ، بدأ قبل قيام الدولة ، لم يعرف إلى أى جانب يميل الجهاز برغم صلته العضويـة بالبلدية ، وتداخل وتشـابه بعض الاختصاصات ، لكن برغم تعقـد العلاقة بين الجامعة والجهاز ، فأنه

من الثـابت تعـاون عدد مـن الاسـاتـذة ، سـواء فى تطـوير الأجهـزة العلمية الخاصـة جدا ، أو البحث عن وسـائل جـديدة فى مجالات الاستنطاق والتمويه وكشف المعلومات ، وهناك عدد مجهول مـن الاسـاتذة والطلبة ينقل أدق ما يجرى فى الكليات النظرية والعلمية .

لكن .. إذا بدا المبنى مصمتا هكذا . فمن أين منافذه ؟ .

يقـول البعض ان هنـاك مجمـوعة مـن المدربين تدريبـا عـاليا يقيمـون باستمرار داخلـه ، ولأسرهم أماكن مخصـوصة ، وأنهم كيفـوا ظروفهم على الاقـامة الأبـدية ، وهـؤلاء هم قـوم الملفات ، المكلفـون بالنظـر فى الأوراق ، والأرشيف القديم ، ورصد المعلومـات ، وتصـحيحها ، وتقييمها ، واضـافتها ، أو حذف بعضـها ، أو مضـاهاتها بعضـها البعـض ، كذا تحليلها ، ولهم منزلة خاصـة ، وعنـدما تمت عمليات التحديـث وأدخلت الحسابات الآليـة ، لم يتم الاستغناء عـن فرد منهم ، بل اعتبروا هـم المرجع والاساس ، فـاذا حدث أى خطأ فى معلومة ما ، لا يتم تصـحيحها قبل الرجوع إلى الاضابير الورقية التى يسـهر عليها هؤلاء ، اشتهر عنهم حبهم للعمل ، وايثارهم البقاء داخل المبنى ، وكلهم انحـدروا من اجداد تخصـصوا فى قطـع طريق الحريـر ، والاغارة على القوافـل المتجهة من وإلى الصـين ، شقوا عصـا الطاعة على كل حـاكم أو ذى سطـوة ، وسكنوا الأمـاكـن الموحشة ، ثـم نجـح المؤسس فى الاتصـال بهم واقناعهم وضمهم .

لايمكن القول بوجود مدخل رئيسـى ، للعاملين المقيمين خارجه ، أو الذين يتم احضـارهـم طواعية أو قسرا ، علانيـة أو خفية ، هناك عدة مداخل بعيدة ، بعضـها عبارة عن مبان صـغيرة ، متفرقة ، لاتثير الريبة ، أو الفضول ، عائلية الحضور ، منهـا تبدأ ممرات متصلـة ، ودهاليـز متقاطعة ، وصـالات أشبه

بالميادين الصغيرة ، وقاعات ، وربما يصل الغريب إلى صميم المبنى بدون أن يعرف ، لكن العاملين الذين يترددون عليه يوميا . أو الذين يخرجون أو يدخلون فلا يعرف كل منهم منفذ الآخر . لا يوجد شخص واحد يلم بكل الاقسام حتى المسئول الأكبر ، الاتحادى ، أو المحلى ، لكل طريق معروف ، مرسوم ، لو اتخذ غيره لضل وعجز عن الوصول إلى هدفه ، ولا يمكن للقوم سواء من أهل الداخل أو الخارج ، اجتياز مكان إلى آخر بدون تصريح مسبق، ذى لون معين ، مبرمج مسبقا ، لا تفتح البوابات الالكترونية إلا بعد دفعه فى مكان معلوم ، أما الأوراق الخاصة بتصميم المبنى ، وخباياه فمن ادق أسرار الدولة الاتحادية ، وكلمة المبنى فى جميع لغات البلاد تعنى مضمونة والاشارة إلى دوره أيضا ، لكنه ليس الوحيد الذى يلفه الغموض هنا.

هذا مبنى البعثة التعليمية الامريكية ، أثار تشييده فى نهاية الاربعينيات جدلا ونقاشا فى الصحف والمجالس المحلية ، وخصصت جلسة كاملة فى مجلس الشورى لمناقشته ، يقع قرب المستشفى الجامعى القائم على تل مرتفع مكسو بالأشجار ، أول من اعترض عليه اساتذة الجامعة فلماذا تجيء بعثة أمريكية وتقيم على مقربة من أعرق صروح العلم فى البلاد ، هل يعنى ذلك الشروع فى انشاء جامعة أمريكية ؟ خاصة ان النفوذ الامريكى فى تصاعد ، اذ انتشرت فى العاصمة الاتحادية مطاعم الوجبات السريعة ، والمشروبات الغازية ، والمحال التى تذيع الموسيقى الصاخبة ، أما المسلسلات الأمريكية فتحتل مساحات زمنية واحدة فى قنوات التليفزيون المختلفة ، وتردد ان ثمة قناة خاصة ستخصص لبث البرامج الأمريكية مباشرة ، بالطبع واكب ذلك ارتباط اقتصاد البلاد بالمعونة الأمريكية ، والدخول فى

حلف عسكرى متين . لكن هذا كله فى جانب ، والاقتراب من أعرق مراكز البلاد العلمية فى جانب آخر . اثر تصاعد الاعتراضات هدد السفير الامريكى فوق العادة ، انه فى حالة تعثر المشروع فلن تتدخل الحكومة الامريكية لدى صندوق النقد الدولى للمساعدة على جدولة الديون المستحقة ، صدرت بعد ذلك تأكيدات من العاصمة الاتحادية تقول ان تمثيل البعثة سيقتصر على وجود بعض ممثلى مراكز البحث العلمى فى الولايات المتحدة لمتابعة بحوث خاصة لايمكن اعدادها إلا من هذه المنطقة ، نتيجة لموقع المدينة الفريد بالنسبة إلى زاوية ميل الكرة الأرضية ، والحق ان أول من تنبه إلى هذه الخصوصية نابليون بونابرت من خلال البعثة العلمية التى صحبته خلال حملته إلى الشرق .

المهم .. بدأ تجهيز المبنى بعد اختيار الموقع ، وتقديم تعهد مكتوب إلى البلدية بمراعاة الطابع المعمارى العام . ثم اسند الجانب الامريكى العمل إلى شركة مقاولات أمريكية متخصصة فى أعمال التشييد العسكرى فيما وراء البحار . سبب هذا ردود فعل سلبية فى مجالس ادارات الشركات المحلية ، لكن السفير الامريكى أقام حفلا هائلا فى حديقة السفارة الشتوية ، دعا إليه ممثلى شركات المقاولة المحلية ، المسموح لها بالعمل فى المقاطعات ، انفرد بكل منهم ، سأل عن مقدار الربح فى حالة تنفيذ البناء ، بمجرد سماعة الرقم يخرج على الفور دفترا صغيرا ويكتب شيكا مصرفيا ، مقبول الدفع ، مضمونا من بنك تشيز مانهاتن ، فرع بروكلين ، خرجوا راضين وعند معظمهم ندم لأنهم لم يضاعفوا الرقم المتوقع ، اتفقوا على نشر اعلان يهنئ الزميلة الأمريكية بالبدء ، وآخر عند الانتهاء من البناء .

بسرعة ، قامت كتلة خرسانية هائلة ، نوافذها مجرد شقوق مستطيلة

تتسع من الداخل ، بحيث يمكن لقامة رجل بالغ الوقوف ، يرى الخارج ولا يمكن رصده أو مشاهدته ، أضيفت جدران خارجية ، تطابق رسم المبانى العتيقة ، رصدت مربعات خرسانية ضخمة ، لاتسمح الفواصل بينها إلا بمرور شخص واحد بصعوبة ، اعتبرت مصداً لأى هجوم انتحارى بالعربات المفخخة ، وضع احتمال لكل خطر وارد ، مع ان المدينة لا تقع فى مثلث الاضطرابات الشهير ، لكن بعد ما جرى فى طهران اثناء الثورة الإسلامية وجب اتخاذ الحوطة .

كل أسبوع اعتاد الأهالى ، رؤية شاحنة ضخمة تصل فى مواقيت محدود، تحوى ثلاجة هائلة ، تقف أمام الباب الجانبى بضع لحظات ، يسبب هذا ارتباكا فى المرور لدقائق ، تفتح البوابة وتزال الموانع وتختفى داخل المبنى ، أنها تحوى المأكولات ، والمشروبات والبريد الخاص ، يستغرق هذا ست ساعات كاملة ، جميع اللوازم ترد رأسا من القاعدة الأمريكية ذائعة الصيت فى البلد المجاور ، سبب هذا ضيقا لتجار المدينة ، لكن تبدو الأمور غير مألوفة عند وقوعها ، ومع تكرارها يعتادها القوم ، هكذا أصبح هذا المبنى جزءا من الواقع العمرانى ، وان استمر حضوره غامضا ، يثير التساؤل ، وأحيانا الكراهية ، وربما السخرية .

يقول المغربى ان الفندق الكبير مبنى آخر جدير بالرؤية ، يقع قرب الحديقة اليابانية ، لكن سيحتاج هذا إلى وقت ، تبقى ابتسامة على وجهه ، بين ارتسامها على فمه وزاويتى عينيه صلة ، سرعان ماتبدو تجاعيد عديدة متوالية ، ثمة شىء ما ، لا يمكنه الوقوف عليه ، أو تحديده ، لكنه يبقى النفار بينهما ، اعتذر بحسم عن دعوته إلى الغذاء ، وعندما اجتاز بوابة الفندق ، رأى الفتاة النحيلة ، الباسقة ، من هيئة وجودها ، من لحظ تطلعها إليه ، من سمات انتظارها ، أدرك أنها تتوقعه هو بالتحديد .

سعى مرغوب ..

..ما من أجمل ، وأرق ، وأوحى ، واثرى بالوعد ، والدعة ، مثل أنثى تهيأت للقاء ، عندما تشع مكونات حسنها الترقب ، وتشرع نقاط حوافها ، مرسلة عبيرها صوب من ترغب ، ممهدة لحلول اللحظة التى سيصبح فيها المفرد جمعا ، والواحد اثنين .

لا يستدعى امرأة ولجت عمره فى هذا المحط أو ذاك إلا ورأى طلاتها الأولى فى افتتاحيات اللقيا ، وبدء لحظات التدانى ، رب علاقة تدوم سنوات ، واذ تغرب شمسها ، تتحلل عناصرها وتذوى ، لايبقى من حميميتها إلا لحظات قلائل ، ومضات تدل على جوهر حقب امتدت وظن عند اللجاج فيها أنها دائمة أبدا ، لكن تفنى التفاصيل ، وتندغم الجزئيات ، ولا يبقى ساطعا إلا البداية والنهاية ، مفتتح القوس واغلاقه .

هكذا أيقن لحظة رؤيته تلك البنية الفارهة . ان هيئة انتظارها تلك ستجب ماعداها ، أنها ستبقى فى معيته ، يسترجعها فى اقامته ورحيله ، فى سكونه وترحاله . تبدو مختلفة عن تلك التى رآها واقفة أمام المنضدة المستطيلة ، توزع الملفات والشارات ، والبطاقات ، وتبذل جهدا ، وتفنى قدرا من الطاقة أثار اعجاب الكافة ، حتى بادر بعضهم بعبارات اعجاب ، وأسفر آخرون عن ود ، أما هو فلزم صمت بدافع من خجل قديم لا يتبدد إلا بعد الايغال فى

القربى ، وهاهى تسعى إليه ، وتجهر صراحة ، فلم تأت إلا من اجله ، تأسف لان قدومهـا بدون مقدمـات ، يرفع يدا معبرة عـن احتجاج صامـت ، لكنها تواصـل القول ، حاولت الاتصــال به فى الصباح الباكـر ولم تجده ، ولأن ما تبقى من ساعات اليوم قليل ، وغدا الجلســة الختامية ، أما جلسة بعد الظهر فلن تحوى الا تلاوة ابحاث مطبوعـة ، وزعت على المشاركين ، تبتسم دافقة عذوبـة ريانة ، تقـول إن من يحملها يثبـت اسبقية الجامعة على البلـدية فى تأسيـس المدينة ، وتقترح عليه جـولة لـرؤية المعالم غير المدونـة فى الكتيبات السياحية.

يتبدد ارهـاقه بعد صحبة المغـربى ، تتلاشى رغبتـه فى التماس الهجوم قليلا ، حتى يبدأ مـا بعد الظهر نشطا ، قادرا ، يبتسم ممتنـا ، شاكرا ، يحل عنده ابتهـاج ، ويخف امره ، يشعر أنه مقـدم على أمر ، فما من عامـل مبدد للوحدة ، للوحشة ، ليبوسة الوقت ، مثل القربى من امرأة راغبة ، مرحبة ، ما البال إذا شرعت هى ؟ بسط يده فتقدمتـه ، شعرها مسترسل ، مستمر حتى نتوء رد فيهـا مثل فكـرة سلسة ، حاذاهـا ، فبدا جـانب وجههـا الأيمن ، ذو حضـور خاص ، فى عينيها اختلاف ، وسـن متأمل فى اليسرى ، شارد ، تنفرد به ، فيضيق منها ، يـوجد اختلاف غريب عجيب عـن اليمنى ، لا يبدو إلا إذا تطلعت إليها بـالمواجهة ، ولكن يوجد المغـايرة بين الجانبين الأيمن والايسر ، فكأنها اثنين فى واحـد ، أو شطران مختلفان تضامـا معا ، وهذا من انـدر ما رأى ، أما مـلامحها فتـوحى بابتســامة لا تسفر تمامـا ، لكنها مـوجودة فى موضع انفراجه شفتيها ، ومن وقت إلى وقت يبدى جبينها طيفا شجيا ، لكنه لايقطع الأمل من ابتسامتها الخفية ، التى تبدو كوعد قائم بالرسو .

مضيا تحت الاقواس الحجرية ، عبرا الطريق ، وعندما أبدى ترددا لحظة

اقتراب عربة خاصــة ، مدت يدها إلى ذراعه ، قالـت ان الشباب يقود بسرعة ، يتوقفون فجأة على بعد قليل جدا من خطوط المشاه ، هذا لم يكن موجودا من قبل ، سيئ هذا ، لكن ما العمل ازاء تراخى قبضة رجال المرور ؟

فى شارع جانبى ينتهـى ببناء أحمر اللون ، نوافذه مغلقة ، تـوقفت أمام سيارة صغيرة ، زرقــاء اللون ، قالت انها استعـارتها من صاحبـة لها الليلة الماضية ، خصيصا لتلك الجولة ، أنها لا تمتلك عربة ، تستخدم حافلة المكتب فى ســاعات العمـل الرسميــة ، انتقالاتها محدودة جـدا ، لا تغادر مسكنهـا الصغير إلا نادرا ، مجرد انتهاء عملها تعود إليـه ، نادرا ما تقضى الامسيات فى الخارج .

تحذير هذا ؟ يقول مداعبا :

ـ ما من صاحب ؟

تلتفت إليه فجأة ، طلة موجزة .

ـ نعم .. عندى صديق ..

بعد لحيظة ، تتابع .

ـ أنه فى الهند ..

أوشك على مزيـد من الاستفسار ، لكنه ازاء حزمها وايجازهـا كف ، عاد يفكر فيما قالته عن استعارتها سيارة صاحبتها خصيصا لتلك الجولة ، اذن اضمرت النية من الليلة الماضية ، متـى بدأ اهتمامها ، متى أقرت شروعها ؟، كانت تبـدو لاهية ، مستعصية ، أما أخبارهــا عن صاحبها فـلا يدرى كيف يقبله أو يقيمه ؟ أنه يسعى باتجاه لحظـة محددة تتبدد حواجز غير مرئية ، وتحدث الصلة ، إذا تجاوزها فلن تتحقق القربى أبدا ، بعد ساعات سيرحل ، يمضـى إلى مكان وتبقـى هنا ، ربما لن يصل هـذه المدينة ، لن يراهــا ، وهذا

غالـب ، ربما تختفى صورتـه من وعيهـا بعد حين ، فلماذا يستثار فضـوله حول صاحبها ؟ أمـا محاولته للاتصال بعالمها الانثـوى فلها مشروعية ، ما عليه الا تلمس الاطراف والحدود ، ولها القبول أو الامتناع .

يركب إلى جـوارها ، عبيرها الانثوى طـاغ ، ما من رجل وقعـت عيناه على امرأة إلا وشرع ، وإذا لم يسفـر فأنه ينـوى ، ويسأل نفسه ، هـل تصلح لى وهل أصلح لها ؟ فلماذا يخرج عما يدركه من الناموس ؟

لم تتردد عنـد لافتـة ، أو مفـرق ، طـرق أضيـق ، ذات اتجاه واحـد، لم يسلكها مع المغربى ، تتوالى أبـواب خشبية ، ضخمة ، مغلقة ، الأرض أمامها ممهدة لدخول العربات ، علامات منع الانتظار ، فى الفراغ الموحى بالسر .

تقول إنه الجزء الاقدم من المدينة ، يـوازى قدم الجامعة ذاتها ، هنا يقيم معظم أساتـذة الجامعة ، خاصة الكليـات النظرية ، بعض أسـاتذة الكليات العملية يفضلـون سكنى المنطقة الجديدة ، فى المواجهـة بدأ بناء أسطـوانى ، مرتفع ، يؤدى إليه سلم عريض .

ـ انه الحصن المشيد ..

يبدى دهشة ، أى حصن ؟، لم يخبره المغربى به ، تتساءل ..

ـ أى مغربى ؟

ينبئهـا بلقائه ، تهز رأسهـا ، تقـول انها تعرف أهـالى المدينـة ، خاصـة الأغراب منهم ، أو ذوى الأصول الأجنبية ، لا تذكـر أن بينهم مغربيا يطلعها على رقم الهاتف ، تقـول انه سبعة أرقام ، وهواتـف المدينة ستة لاغير . ربما فى العاصمة الاتحادية .

تدركـه حيرة ، لكنه يترجل مستجيبـا لاقتراحها رؤية الحصـن المشيد ، تحرص على أن تتقـدمه بضـع خطوات فيمتلى ، تـلامـس الأرض بأطـراف أصابعها ، كأنه شروع فى رقص وليس خطوا ، يهفو .

أين المدخـل ؟، الجدران مصمتة ، هل سيعبر قنطـرة مؤدية ، ويـدرك أنه بحاجة إلى أنس خـاص بعد جدب طال أمده ، يتقدم عنـد وصولها وانحنائها أمام كوة صغيرة ، واذ تفتح حقيبتها يبادر ، متأهبا لدفع النقود ، لكنها تلوح ببطاقـة ، خضراء من ناحية ، صفـراء من جهته ، تقـول انها تحمل تصريحا بدخول جميع الاماكن الأثرية ، والهامة ، باعتبارها عاملة فى شركة سياحية .

أين المدخـل ؟، الجدران مصمتة ، هـل سيعبر قنطرة مـؤدية ، أو البـاب خفى؟ . يفـاجأ بمصعد خشبـى ، قديـم ، يتدلى من أعلى الحصـن ، مشدود بجنازير يصدر عنهـا صرير ، أشبه بدولاب صغير ، ينزلق بـواسطة بكرات علـوية لم يتبينهـا إلا عنـد وصولهما إلى السطـح ، أرهقـه صعود الارتفـاع الشاهق ، التـأرجح ، البطء ، لم يختلس النظر إلى الأرض التـى راحت تنأى ، خشية دوار مفـاجئ ، حتى عنـدما لاحـت له أسطح البيـوت المتجاورة ذات اللون الوردى ، متقارب الدرجات ، أما الافق فبـدا نائيا ، كان لابد من اجتياز أعلى الجدار من خلال درجات سلم ثلاث تـم حفرها فى القرن الماضى ، وقفا فـوق السطح الـدائرى ، يبدو الحصـن كله أسطـوانة ضخمـة من الحجـر المصمت ، أمـا القلب فعبارة عـن متاهة خفيـة ، معظمها لم يعرف بعـد ، من ممرات ضيقـة ، وأبواب حجريـة ، حقيقية ، وهميـة ، منافذ تـؤدى إلى نفس الداخل ، أبواب مستطيلة ، وأخرى مربعـة أو دائرية ، لابد من اجتياز طريق تشير إليه الاسهـم الفوسفـورية ، تـم تحديده بـواسطة قسـم التصاميـم المعمارية فى الجامعـة اختصارا لوقـت الزائريـن ، حتى يمكن الـوصول إلى غرفة الاقامـة حيث تحصن واختبأ صاحب البرج ، يستغـرق الوصول إليها ثلاثين دقيقـة ، الا يغال فى المعمار مـرهق ، تميـل الممرات ، أحيـانا تـرتفع ، تتقدمه المرافقة الباسقة ، رشيقة ، فتية ، تعرف التضاريس ، تحفظ الخبايا ،

لاتتردد عند المفـارق المتشابهة ، تبدو كينونتهـا المادية ، الرشيقــة ، مصدرا لطاقة شــابة ، متجددة ، قادرة على الامعــان والتحمل ، حاول مغالبـة خفقه المتسارع ، وتــوالى أنفاســه ، وضيقه بـالهواء الراكـد غير المتجدد ، انــه على مشارف كهولــة ، يجتاز قنطرة فاصلــة ما بين زمن الحيويـة والو شك على اضمحلالها ، قتامة تتزايد داخله ، رغم ان المبنى كله صمم للهرب من المنية ، وتضليلها ، هذا سبب بناء الحصن .

متاهة

الحصن قديم ، يرجع إلى ما قبل التاريخ المدون للمدينة أو الجامعة ، ربما إلى المرحلة التالية لاستمرار ذرية الفلاسفة الأربعين ، من هنا يقول الجامعيون ان أسلافهم لعبوا دورا فى تصميم تلك المتاهة الغربية . على أساس أنهم ينحدرون من صلب الفلاسفة ، ويعتبرونهم النواة البعيدة للجامعة ، والعلوم كلها ، بدأ الأمر عندما تولى محارب قديم الناحية ، كان محاربا ، شجاعا ، عنده اقدام ، وجرأة على الموت ، تلقى فى صدره سبعين ضربة سيف ، نجا منها ، ولكن بعد أن تركت علامات صعب اندمالها ، قضى الخمسين عاما الأولى من عمره فى مطاردة القبائل الجنوبية ، والتصدى لأهالى البحار الشمالية ، واخضاع المتمردين فى الجبال القريبة .

ثم استقر فى الناحية ، أوكل إليه تسيير شئون الخلق ، وتنظيم توزيع المياه ، واستغلالها بواسطة الصهاريج ، مع سكونه ، وبدء أيام راحته تغيرت أحواله وصارت إلى عكس وخلف ، مال إلى الصمت ، ثم نقل عن نسائه انه هجرهن ، وزهد فى اتيانهن ، وصار يخشى النوم ليلا حذرا من طول الهجوع، وانعدام اليقظة مرة أخرى ، لم يكن يغفو إلا مضطرا ولمدة ساعة لا غير كل أربعة أو خمسة أيام ، صار المحارب القديم إلى خشية الموت ، والخوف من الفناء ، الغياب عن عالم الحس والمعنى ، حاول الحكماء

المنحدرون من الفلاسفة معالجته خفية ، ولهم معرفة بالطب ، وعلم النجوم ، وصنوف المعارك الكفيلة ، خشوا ذيوع أحواله ، خاصة ان الناحية كانت على وشك خوض حرب ضد ثلاث مقاطعات متجاورة ، بسبب الصراع على نبع مائى فى الجبل القريب ، لمائه خاصية فريدة ، عند وضعه فى اناء يفور ، نسبت إليه فوائد .

صارت الناحية إلى خطر ، واجمع الحكماء على اخفاء مرضه ، استجابوا بسرعة لمقترحه الذى بدا غريبا ، وتؤكد الروايات ان واحدا من احفاد كبير الفلاسفة أوحى به إليه ، وأنه لم يصدر عنه ، لأنه افتقد القدرة على التفكير بعد انعدام أوقات نومه ، وأخرى همومه ، فى البؤرة يمكنه القبوع ، درء الخطر ، وتضليل العدم . شارك صفوة الحكماء فى بنائه ، ويقال انه بدا غريبا بمقاييس الوقت ، حتى حار الاعداء عندما رأوه يعلو وعجز رصدهم عن استكشاف حقيقته ، فظنوه طلسما يدفع الأذى عن أهالى الناحية ، فأحجموا وتراجعوا ، حتى الآن لا يعرف المكان الذى لجأ إليه المحارب القديم للاختباء من الموت على وجه الدقة ، اذ يشمل الحصن على أربعين مكانا بديلا ، متشابها ، وصف الممرات والدهاليز المؤدية يملأ أربعين مجلدا لم تطبع بعد ، وتعتبر من نفائس الجامعة ، تسجل البعثات التى نقبت على مدى المائة عام الأخيرة العثور على عدة هياكل عظمية ، بعضها لبشر يبدو انهم ضلوا طريقهم أثناء محاولتهم البحث عن كنوز متوهمة ، والبعض الآخر لحيوانات منقرضة لا مثيل لها الآن ، ولا يعرف أحد لماذا ولجت المكان ، أو .. كيف ؟ لكن أغرب ما يتردد بين رجال المدينة ونسائها القدامى ، أن المحارب القديم لم يمت ، وانه باق حتى الآن ، حى يرزق ، ويرجع ذلك إلى ترتيب محكم أعده احفاد الفلاسفة بحيث تدخلوا فى دورة الوقت ، فأوقفوا اللحظة

عند دخوله ، وان سكـون حركته تلا ذلك ، فلا حركـة إلا مع نقله ، وتمامها يعنى انقضـاء مدة ، تمكنوا مـن الغاء هـذا . وهذا يطول شرحـه ، ويصعب تفسيره ، وللامر عـلاقة باختفاء الأمير الصينـى ، كيف ؟ ، هذا ما لم يلـم به أحد ، أما الفـارق فيكمن فى انتظار قوم لعودة الأمير ، وانعدام ذلـك بالنسبة للمحارب الذى هرب من الموت .

بالطبع .. يسخر رجال البلدية مـن ذلك ، وفى المقابل يتهمهم الجامعيون باشاعة مالا يعقل ونسبته اليهم حتى يستخف الناس بهم ، وتهتز مكانتهم.

عنـد الحد الأخير المسموح بـوصول الأجـانب إليـه ، قالـت مرافقتـه أن البعض يوقنون بوجوده حيـا ، لهم أشياع فى الخارج ، خاصة فى ولاية نيفادا الأمريكية ، يفد القادرون منهم كـل سنة فى ميعاد معلوم لقضاء أسبوع على مقربـة من الحصـن ، يزورونـه يوميـا ويخاطبون الغـائب جماعة بـاللغة القديمة .

تومئ برأسها : هذا حقيقى .

قالت إن الحكماء نادوا فى الناس بعد دخوله الحصن ، ان المحارب القديم آن له أن يستريح ، أنه احتجب إلى حين غير مقدر ، غير معلوم ، سيرجع قويا، سليما من كل عطب ، متجاوزا كل فناء ، وعنده الحلول للأمور المستعصية ، أما تدبير أحـوال الناس فلابد مـن اسنادها إلى رجل قـوى ليمكن التصدى لمصـادر الخطر ، خـاصة الـذين يـريدون الاستيـلاء على نبع الماء الفـوار ، بالفعل، اختاروا مبارزا شهيرا حارب تحت امرته ، أطلقوا عليه ، نائب الغيبة، برغم عدة قرون منقضية ، بـرغم اختلاف الدلالات ، وتبادل المواقع ، فمازال يوجد منصب فى الهيكل الوظيفى للبلـدية يعرف بنائب الغيبة ، وهو المختص بالاشراف على المحطة الرئيسية لتنقية الميـاه ، وتوزيعها ، وتحصيل الأموال الخاصة بها من البيوت والمصالح ، أما الجامعة فتدفع مبلغا رمزيا .

يستفسر عن العلاقة بين الغيبة والمياه ، تلتفت إليه ، ابتسامتها رحبة ، فى اختلاف عينيها توافق وتماثل ، يجتازه وقق ، بتأثير انفرادهما أو ايغالهما فى النأى عن الفراغ المنظور ، يخشى أن يبدو منه بدون قصد ما لا يليق ، تهب عليه ريح طيبة من زمنه القديم ، عندما كانت تغمره الرغبة فيبدأ ولا يكف ، حتى يتحول وجوده إلى لفظ منهمر . يبدأ أخبارها بنبأ حصن قديم ، مندثر.

فى الزمن البعيد ، الأفل ، حيث لا يمكن تحديد علامة فارقة ، أو سنوات قاطعة ، أو حوادث معينة ، عاش ملك جبار اسمه النمرود ، بسط ظل ملكه على فيافى ، ودانت له أمصار قصية ، وأخضع ممالك ، ثم تطلع إلى السماوات العلا بعد أن قهر كل ذى سلطان فوق سطح الأرض ، ماذا بعد وصوله إلى الجهات الأربع الأصلية ، واجتيازه البحار السبعة ؟، فى إحدى الليالى قرر بدء المحاولة ، على الفور جمع كل ذى علم . أمرهم بتصميم برج يصعد إلى مالانهاية ، يتجاوز الغمام ، يدنو من الافلاك ، يمكنه أسر الشهب والرواجم ، التى تمرق أمام عينيه فى الليالى الغامقة ، ولا يدرى لها تفسيرا ، وجم العقلاء ومنهم أصحاب العلم الغزير ، لكن من يقدر على تحدى ارادة نمرود ؟ .

بدأ العمل لتصميم برج يصل إلى السماء ، حشد أسرى الحروب ، والعبيد، وجمع بلا حد من الفقراء ، وخلال عامين أمكن له أن ينظر إلى السحاب من أعلى ، وأن يرى الغماو من تحته ، بعد أن تجاوزه البناء ، لم يتوقف التشييد ، ولم تهدأ الحركة ، فى صباح يوم خرج النمرود ممتطيا صهوة جواده الأكحل ليتفقد العمل ، وليتطلع إلى سموق برجه . الذى لم يكن ممكنا رؤية نهاية ارتفاعه عند الوقوف تحته مباشرة . أو بالقرب منه ، إنما لابد من الابتعاد مقدار غير قليل ، حتى يمكن مشاهدة حافته العليا التى تغوص فى السحاب ، لا يدرى أحد ، ولم يفسر المعاصرون أو المؤرخون الذين

جاءوا بعد ذلك ما جرى ، ذلك أن النمرود نفض دماغه نفضة هائلة حتى روع المحيطين به ، وجزع المقربين منه ، ومنذ تلك اللحظة بدأت آلامه التى استمرت حتى موته ، قيل فى تعليلها أن حشرة صغيرة جدا ، مجهولة ، ذؤيبة، نفذت من أذنه ، واستقرت فى مكان ما من رأسه ، كان طنينها يسبب له آلاما هائلة ، حتى لا تدركه الراحة الا إذا ضرب بالنعال ، نصحه أحد الحكماء بالكف عن محاولة الصعود إلى السماء ، فما جرى مجرد عقاب دنيوى من الخالق الجبار ، لا تدركه الابصار ويدرك كل شىء ، غير أن أمره بايقاف البناء لم ينه المه الفظيع .

تبدى مرافقته دهشتها ، ملامح طفولية ، صافية ، يبدو جانب منها لم يقف عليه حتى هذه اللحظة ، يهم بالدنو ، ولكنه يحجم ، يستبدل رغبته ، وشروعه الوشيك ، بالاستمرار فى اخبارها عن حصن آخر غريب أيضا ، لا يعرف ما يشبهه ، أو ما يماثله ، انه نبأ قديم دونته الكتب ، حول مهندس معمارى بلغ فى فنه مدى لم يسبقه إليه أحد ، ولم يعرف عمن سبقوه ، أو جاءوا بعده ، أنهم طالوا رتبته أو وقفوا على مهارة تماثله ، فمن أعماله التى بقى ذكرها ، بناية تدور مع أشعة الشمس طوال اليوم ، نوافذه تتسع إذا وهن الضوء وخفت ، وتضيق إذا اشتد وسطع ، كذلك المسجد الذى ذكره كل من شاهده ، أو صلى به من الرحالة الغرباء ، والتجار الذين دونوا مشاهداتهم ، والشعراء الساعين ، والصوفية السائحين ، والبلغاء المحدثين ، مسجد تتخلل جدرانه عدة فتحات يدخل منها الهواء ، فاذا اشتد أمر الرياح سمع من على بعد مسيرة ثلاثة أيام بلياليها ، صوتا جميلا ، مختلفا عن النغمات البشرية ، يسبح بحمد الله وشكره ، لا .. ليس هذا أغرب ما شيد ، انما ذلك الحصن المنيع ، إذ استدعاه ملك البلاد والمتصرف فى شئونها ، طلب

منه اقامة بناء ، يتحدث عنه ويعجب منه ابناء الأزمنة المقبلة ، على الفور ، بدأ يشحذ أروع ماعنده ، صمم حصنا منيعا ، قويا ، بديعا ، لم يفهمه أحد أثناء العمل به ، ولم يتعرف إنسان ، على صورته المكتملة ، لم تتفتح ملامحه إلا قبل الفراغ بفترة قصيرة ، تحوى فصول السنة الأربعة متجاورة ، من شتاء بارد ، وصيف قائظ ، وربيع وخريف ، ثم أجرى الماء بدون ماء فى مواضع معينة ، ونصب مناظر بحيث يرى الجالس فيها القليل كثيرا ، والقطرات المحدودة بحرا بلا حد ، ومحيطا صعب الخوض فيه ، يتخلل الجدران قنوات صغيرة يسرى فيها المسك السائل فى دورة مغلقة بلا حد ، أما جدران الحصن فصممت بحيث تبدو للساعين إليه أو حوله فى أوقات الأمان ، وأيام الدعة ، لكن .. إذا لاح خطر ما ، فإن لونا معينا ينتشر بترتيب معلوم لقلة محدودة فيختفى المبنى كله عن الانظار ، وبذلك يصد المدافعين أى هجوم ويمكنهم اتيان العدو من حيث لا يدرى .

يوم افتتاح الحصن ، صحب الملك المهندس إلى أعلى نقطة فى الحصن ، قال ان العمل عظيم سيخلد اسمه ، لكن كيف يثق الا يبنى مثله لمن سيأتى بعده؟، تطلع المهندس إليه ، أدرك ما يجول بخاطره ، قال إنه لا يمكنه تصميم آخر مثله ، إذ وضع خلاصة عمره هنا ، وهنا أشار الملك إلى اثنين من حراسه ، أمسكو بالمهندس الذى بدا مستسلما ، وكأنه توقع ما نزل به ، أوثقوا يديه وراء ظهره وشيعوه فى الفراغ ، قيل للناس أنه أضمر الخيانة ، وقصد الهرب ليشيد برجا آخر يفوق ما بناه هنا . وأنه لقى جزاءه العادل ، لكن فى اليوم التالى جرى مالم يتوقعه أحد ، إذ طلع أحد مساعديه إلى الملك ، وأخبره بما كتمه المهندس العبقرى ، مالم يطلع عليه أحد ، ما الحكاية إذن؟، لقد أفضى إلى معاونيه الثلاثة بسر ، هذا الحصن العجيب ، المنيع ، يوجد به

حجر واحد لو دفعه طفل صغير بأصبعه لسقط البناء كله ، يتذرى ولا يبقى منه شيء ، قال المساعد : أنه ولا غيره على دراية أو علم بمكان الحجر ، وأنهم ايقنوا بـاطلاعه الملـك على كل شيء . بـدأ الهم يجثم على الملك ، لم تفلـح كل وسائل الاستنطاق والاستجواب مـع المعاونين وكبار المعلمين المشاركين فى البناء ، ظل مـوضـع الحجر خفيا غـامضا ، مستورا ، كيف تمكـن الاقامة فى موضـع بقائه مرهون بحجـر صغير ، لو تحرك مصادفة سينهـار التشييد كله؟، ربما تعثـر به هو ، أو أحد الجنـد أو الخدم وهم كثر ، ربما اتكـأ عليه أحـدهم ، ربما دفعـه طفـل بـأصبعه ، بمقـدمـة حـذائه ، عندئذ سيصبـح اضحوكـة الملوك ، ونـادرة السلاطين ، أمـر باخـلاء الحصن ، دخلـه حذرا منفردا ، توقف أمام الاسوار ، والمطالـع ، والفتحات ، والحجرات ، والقاعات ، تساءل المقـربون عن سبب تـأخره فى الانتقال إلى بنائه الاسطـورى ، غمغم ولم يفصـح ، حتـى خمن البعض وجـود أمر يشـق عليه ، لاحظـوا شروده ، وتلفته الدائم ، واتجاهه المفاجئ إلى الحصن ، مرة نهارا ، ومرة ليلا ، تفحصه الجدران ، اصغاؤه إلى مـا قد ينبعث منها ، أمـره للعمال بالدخـول لتفحص الاروقة ، ثـم صراخه المفاجـئ فيهم ان يبتعدوا ، ومـع مضى الوقـت بدأت تنتابه رجفات ، وخضـات عجز الاطباء عن عـلاجه منها ، وبرغم حرصه على إبقاء السر مكتوما ، خشية سخرية الخلـق منه ، ولكن من يحيطون به أخفوا عنه ان الأمر ذاع وانتشر ، حتى ان الغرباء صاروا يتجنبون المشى على مقربة من الحصن ، لم يطلع على ذلك حتـى احتضاره العسر ، بعده .. امتنع رجال الدولة عـن الاقامة فى الحصن ، أو الـدنو منه . دام ذلك عـددا غير معلوم من السنين حتى نسى الأمر ، وبقى الناس بين مصدق ومكذب لما تردد فى الزمن القديم ، عاد الخطـو داخل الحصن ، وبهت اسم الملك الذى أمـر ببنائه ، لكن

اسم المهندس تناقله للناس ، وصار مـاجرى له مثلا يتردد ، فقيل : جزاء سنمار . طبعـا .. نهبت اشيـاء كثيرة مـن الداخـل ، مثـل اخشـاب الصنـدل الهندى التى بطنت بها بعض القاعات ، كما جفت قنوات المسك ، وفسد نظام الفصول الأربعة ، ثم تحول إلى طلل مبهم ، غامـض ، لا يربطه الناس باسم المهندس الـذى راح ظلما ومازال اسمه يتردد ، آخـر من استخدمـه ، الجيش المملوكى الـذى اتخذه كمخزن للاغراض البالية ، التـى استنفدت مدتها ولا تزال بقايا البناء لكن لم يعرف إنسان موضع الحجر الخفى ..

ـ حتى الآن ؟

يومئ .

ـ نعم .. حتى الآن .

ترفع يديها ، متماستـان ، مبسوطتان ، يضوى ألق الدهشـة الطفولية فى عينيها ذواتى الظلال .

ـ رائع ، مدهش .. لم أسمع ولم أقرأ مثل هذا ..

يبدو منهـا جديد ، تلك الايماءة الموجـزة ، لا توقيت مسبـق لها ، ولانذر بأدبـه ، قلقلت عنـده رواسى قديمـة ، وحركـت غوامض كـامنة ، وأشـواقا مجهولة المصدر ، ومراثى مبهمة بلا لفظ ينطق ، أو حس يرصد ، لزمن بديع لم يمر به ، وأن حـن إليه ، ذقنها الدقيقة ، مرفـوعة ، شماء ، غير أنها تطرق فجأة ، صمـت مباغت لم يتـوقعه بعد حماسهـا الدافق ، بعـد صمت يسير تقول انهما أمضيا وقتـا فى التجوال ، ولابد أنه جائع الآن ، اعتـادت أن تأكل شيئا خفيفا عند الخامسـة ، أما وجبة طعامها الرئيسيـة فعند العشاء ، لماذا تبدو اكثـر نأيا الآن ؟ ، حتـى نزولها بالمصعد اليـدوى القديم ، وركـوبه إلى جوارهـا لم تفه بحرف ، بـل بدأت مهمومـة بشىء ما ، هيئتهـا ، تحديقها ،

الزماه الصمت ، تمضى السيارة فى حركة دائرية ، عند بداية الطريق القصير المؤدى إلى الحصن من الجهة الأخرى ، بوابة فى الفراغ ، مماثلة تماما ، النتوء شبه المثلث العلوى ، قبل أن يستفسر تقول :

ـ أنها بوابة الغيبة ..

تجتاز السيارة شارعا مرصوفا بحجارة وردية اللون ، لكنه عريض ، تمضى فيه المركبات عبر اتجاهين ، لكنه بعد لحظات خيل إليه اتساع الطريق مع استمرار التوغل فيه ، يتطلع إلى الوراء ، ما هذا ؟ لم ير امتدادا لما يفارقه ، لما تقطعه العربة ، فكأن الشارع يطوى طيا بعد اجتيازهما مباشرة ، ولون الضوء .. أنه مختلف تماما إلى الوراء عنه فى المواجهة ، يميل الفراغ إلى صفرة قاتمة فكأنه وقت ما قبل الغروب ، لكن فى المواجهة يسطع النهار ، الوقت لم يقترب بعد من العصر ، فأى أفول فى الخلف ؟ يشك فى أمره ، أو يلون الزجاج الخلفى المرئيات ؟، لكن .. إذا صح ذلك فهل يخفى الموجودات ، الواجهات ، المعالم ، النواصى ، يمعن حائرا ، لكنها تلمس ركبته برفق ، تقول إن هذا مخالف لقانون البلدية المنظم للمرور ، يقول إنه يلحظ مالم يعتده ، مالم يتأكد منه ، تلتفت ناحيته ، تبدو ملامحها جادة ، تماما كما تقف فى مدخل القاعة ، تجاوب الجميع بابتسامة حادة الصد ، قالت إن الغرباء لا يتآلفون مع المدينة بسهولة ، يستمر تحديقها إلى الطريق ، مبدية حزماً ، وعدم مجاوبة ، ربما تعللا بقوانين المرور التى تحرم الحديث تماما خلال القيادة أو لحرصها على ألا تخوض فى حوار يخص أمورا ، أو ظواهر معينة فى المدينة، لكن عندما لاح الميدان ، وظهر المبنى الذى رآه منذ ساعتين تقريبا ، الذى دار حوله صباح اليوم بصحبة المغربى ، لم يمنع نفسه من الانحناء إلى أقصى قدر يسمح به الفراغ الضيق للعربة .

ـ غير معقول !!

تجاوبه ، غير ملتفتة إلى الدهشة :

ـ هذا أخطر مبنى فى الناحية كلها ..

لم ينتبه إلى تشابه ايقاع لفظها مع كلمات المغربى الا عند استعادة تلك اللحظات فى الليل ، قبل نومه ، لكن ماشد انتباهه ، ما لفت نظره إلى حد حبسه أنفاسه ، تغير المعالم ، الميدان المحيط بالمبنى مغاير لما رآه فى الصباح ، ألم يكن مرصوفا بالحجارة ، أنه مفروش الآن بالقار ، المبانى المطلة ألم تبدو أطول ارتفاعا ، الآن .. كلها دون المبنى ، بل ان هذه العمارة المستطيلة ، ذات الشرفات الخشبية فى أقصى الميدان ، لم يكن لها وجود بالمرة منذ ساعات ، يقطع بذلك ، لم تقع عليها عيناه ، فى البداية شك ، ربما جاءه من جهة مغايرة، لكنه دار حوله ونبهه المغربى إلى الداخل والخارج ، أما مالم يدع له مجالا للشك فى التبدل ، التغير ، فالمبنى نفسه ، الطلاء متغير ، نعم .. هذا اللون الأصفر الذى تخالطه خضرة لم يكن له وجود ، كذا وضع النوافذ فى الطوابق الثلاثة ، رآها من قبل متجاورة ، متراصة فوق بعضها ، لكنها الآن متباعدة ، مواقعها متبادلة ، فراغ يعقبه نافذة تحت ، خلو فوق ، عجيب ، أما القضبان الحديدية السوداء على هيئة أغصان تلتقى حول زهرة من نحاس فلا أثر لها ، يلتفت إليها ، يوقن أنها تدرك حيرته ، لا تفصح ، لا تومئ ، لا تبدى إشارة ، لن تشرح ، لن تفسر ، يخفف عنده تأثيرها الانثوى ، يسفر المبهم فيها ، تتجاوز الميدان بسرعة ، يلتفت بحركة لا ارادية ، ياه .. يبدو الميدان والمبنى بعيدا ، كأن الزجاج الخلفى من عدسة هائلة ، تقصى الموجودات برغم قربها ، لا يتناسب ما يراه مع المسافة المحدودة التى قطعتها العربة فى الطريق الذى يميل الى صعود ، السيارة تتوقف قرب ناصية

رمادية، يتوقفان أمام مبنى قديم من حجر ، سلالم مرتفعة تؤدى إلى ممرات بدون حاجز يؤدى إلى درجات أخرى ، تنتهى إلى مصطبة حجرية عريضة تؤدى إلى مدخل المطعم ، قديم ، رائحة طهو طيبة ، الأبواب خشبية غليظة ، والسقف منخفض ، مدجج بأكواب من خزف ، وأخرى من زجاج ، ومن معدن ، أحجام مختلفة ، ومصادر متعددة ، مصابيح يدوية فى الأركان ، وشموع نحيلة فى أطباق من زجاج نقى تتوسط الموائد ، ولأنه جائع فعلا ، ولدنوه من المائدة ، ولطابع العتاقة فى المكان ، عاوده حماس ، وانبثت داخله طاقة رغم حيرته ، تساؤله عن الميدان ، كيف سيجده إذا عاد إليه الآن ؟ ، والطريق التى تطوى بمجرد المرور منها ، وهم ، أو حقيقة ؟ أو شىء ثالث يستعصى عليه ادراكه أو سبر كنهه ، بل .. هذا المطعم ، المكان الذى يوجد فيه الآن ، هل سيجده إذا جاءه غدا فى التوقيت عينه ؟ ، أم ان الهيئة ستتبدل ، والمكان سيتغير ، ربما جرى تحول خفى لا تدركه عيناه ، لا يلم به بصره ، المهم .. هل سيجد الفندق فى موقعه ، غرفته ، حاجته ؟ يتحسس حافظته ، ويلمس حافة جواز سفره بأطراف أصابعه داخل جيبه ، يعود ليلتفت حوله ، الوقت بين الغذاء والعشاء ، رجلان فقط يجلسان إلى منضدة قصية ، أحدهما يرتدى زى البحارة ، لكنه لم يستطع استنتاج.. أسطول حربى أو تجارى ؟. ولم يسأل رفيقة جولته ، أحدهما يضرب المنضدة بقبضته بين حين وآخر ، ماذا يفعل ، كيف يتصرف لو قام أحدهما فجأة وهاجمه طلبا للانثى التى تجلس إليه ، لو تحرش به لاى سبب ما ؟ يدركه خوف الغربة ، والوحدة ، وعدم درايته بفنون العراك ، حتى فى أيام دراسته البعيدة تجنب الشجار ، ونأى عن العنف ، وان لم يحل هذا دون فورات انفعالية تتفجر داخله حيث لا يتوقع .. تسعى به أحيانا إلى هلاك مبين !

يتبادل النادل التحية مع صاحبته ، يعرف كل منهما الآخر ، يبدو نطقها عند حديثها إليه مختلفا ، أكثر تأنقا ، انثويا ، تحدد ما تطلبه ، مشيرة بيديها، ترجع من لحظة إلى أخرى لتتطلع إلى القائمة ، لم تستطلع رأيه ، ربما تخصص المطعم فى صنف واحد ، أو تعرف طبقا معينا تريده أن يتذوقه .

عندما وضع طبقى المقانق ، الأول أمامها ، والثانى ناحيته ، تطلع إلى القطع المبرومة ، المستطيلة ، تذكر باعة السجق الواقفين بعرباتهم عند نواصى الحى القديم ، وفراغ ليلى مزدحم بأضواء شتى وضجيج قومه .

الطبق بيضاوى ، المقانق مرصوصة بالعرض ، عند الحافة قطع صغيرة جدا من جبن له ملمس الزبد ، توسطت المنضدة زجاجة نبيذ وردى اشاعت عنده بهجة ، يعدل النادل وضع كأسين ليتلقيا الشراب، يفاجأ بيدها تلمس يده ، تشير إلى كأسها الفارغة ، من الأصول المرعية أن يقوم الرجل بذلك بعد تذوقه عينة صغيرة وابداثه ايماءه الرضى ، على الفور يبادر ، يصب مقدارين متساويين ، يرفع كأسه مبادرا لشرب نخبها ، بعد تذوقه الحسوة الأولى من المشروب المترف القديم ، تتلاقى نظراتهما ، يقع تماس لحظى مارق ، لكنه لايصل إلى نقطة التواطؤ الخفى ، أو الاتفاق الضمنى على بدء الصلة ، وميلاد العلاقة ، وقوع الخصوصية ، بدت له متوحدة بلحظتها ، تسعى إلى صفو لم تصله بعد ، فيها فرادة ، ود لو فض أسرارها واطلع على دخائلها ، نفذ إلى قدس أقداسها ، يلوح تورد من خلال شحوب وجنتيها ، يحاول المقارنة بين المذاقين ، نبيذ المغربى النادر ، وهذا الذى يبدأ التعرف إليه الآن . يخيل إليه أم مذاق تلك الزجاجة الطف وأرق ، أيرجع ذلك إلى الجودة ، أو .. إلى الصحبة ؟ ، قال القدامى أن المعول كله على النديم ، والنديم مشتق من الندم ، لأن ذلك ما يعقب فراقه وابتعاده ، هل سيندم على فراقها ؟،

كيف سيذكر صحبتها بعد انقضاء الوقت ؟، لا يدرى ، لكن الأمر مشوب بما يحاول نسيانه الآن ، ومن ذلك غوامض المدينة ، ورؤيته مالم يسمع به من قبل ، وبيقينه الخفى أن ثمة شيئا ما سيقع ، ماهو ؟. لا يدرى ، ربما خوفه المحدث من مكروه قد يقع فى غربته فلا يمكنه دفعه ، لماذا اختارته هو بالذات؟!

عند تأهبها لتناول الطعام ، تشير إلى المقانق ، تقول ان هذه نوعية لا توجد إلا فى المدينة ، هذا الحجم ، وذلك المذاق الناتج عن تركيبة خاصة جدا يقوم بتصنيعها معمل عمره ثمانية قرون ، ومازال يعمل بالوسائل اليدوية ، أنه متخصص فى تصنيع اللحوم ، جزء من انتاجه يصدر إلى العاصمة الاتحادية ، يقدم فى المطاعم الكبيرة والفنادق العريقة . لكن المذاق لا يكفى ، لابد من رصها بالعرض ، وتغطيتها بهذا الجبن الخاص .

تتوقف لحظات ، تقطع واحدة إلى نصفين ، تغمسها فى الجبن ، تتذوقها متمهلة .

ـ هكذا .. يجب أكله ..

يتبع خطواتها بحرص ، تبتسم مبتهجة ، تقول إنه يبدو متقنا للتقاليد كأنه من أهالى المدينة ، تقول .. إن البلدية أصدرت لائحة منذ ثلاثمائة وخمسين عاما تنظم أكل المقانق ، بعد ظهور أكثر من نوع ، تفاوتت الاحجام فى السمك ، والطول ، والمذاق ، كثير منها جاء من مدن أخرى ، ولكن رئيس البلدية وقتئذ ، كان محبا للمقانق ، متعصباً لانتاج هذا المصنع ، اقدم على اجراء سخر منه البعض وقتئذ ، إذ أصدر مرسوما بلديا بمنع دخول المقانق ، وسرعان ما ظهر تعبير « المقانق الأجنبية » ، فرض عقوبات على أى بائع أو مطعم يقدمها ، شدد الحراس رقابتهم على المداخل المؤدية لمنع القادمين من

حمل أى صنف من المقانق ، خلال هذه الفترة كثرت الشكاوى الكيدية ، إذ لجأ بعض من يضمرون غيظا من الآخرين إلى ارسال شكاوى يتهمونهم بأكل المقانق الأجنبية أو اخفاء كميات منها ، فى البداية لم تبذل الشرطة أى محاولة للتحرى ، إنما تبادر إلى مداهمة الجهة المشكو فى حقها ، طبعا .. أدى هذا إلى التحرز واتخاذ الحيطة ، حتى تم بالفعل قطع دابر الحقائق الأجنبية، وكان البلاء الحقيقى أن تشتهى امرأة حامل نوعا منها ، عندئذ يضطر الزوج إلى صحبتها إذا كان قادرا ، والسفر مسافات بعيدة لأكل المقانق المرغوبة ، أو البقاء مع دوام الرعب من ظهور قطعة مقانق فى جسم المولود لعدم تلبية رغبة الام ، أحيط هذا الصنف الوحيد برعاية كبيرة ، خاصة بعد مجىء عدد من الرسامين المشهورين وابداعهم لوحات للطبيعة الصامتة ، كانت أطباق المقانق عنصرا رئيسيا فيها ، لكن ثمة اختلاف لا يلحظه الغريب العابر ، ذلك ان اطباق المقانق فى تلك اللوحات تحتوى على الأصابع مرصوصة بالطول ، وليس بالعرض ، ويرجع هذا إلى موقف التزمته إدارة الجامعة وطبقته بصرامة فى مطاعمها ، ومآدبها ، إذ نصت لائحة البلدية على وضع المقانق بالعرض ، والجبن فى الطرف الأيمن ، لكن فى الجامعة قرروا ، رصها بالطول، والجبن فى الناحية اليسرى .

لماذا؟

حفاظا على التميز والاستقلالية ، لكن .. هذا داخل أسوار الجامعة فقط ، وبالطبع كان الفنانون يأكلونها داخل المطاعم الجامعية ، المهم .. طبعت صورها على البطاقات البريدية فى نهاية القرن الماضى بعد ذيوع الصور الفوتوغرافية ، وخصصت لوحات الدعاية السياسية ، طبعا مع صور الفتيات الجميلات ، شاع الأمر ، وقصده الأجانب ، وتضمنت قوائم الشركات

الأجنبية وبرامجهـا تناول وجبة فى المدينة ، وفى الرحلات المرتفعـة التكاليف يذكـر هذا المطعـم بالـذات ، إذ انه أقـدمها ، وأفضلهـا ، ظهر فى المقـاطعات الأخرى ، وفى العـاصمة مطاعـم تخصصت فى هـذا الصنف بالـذات ، يعلق أصحـابها شهادات تثبـت انتماء أصولهم إلى المدينـة ، ومع زيـادة حركـة السائحين القـادمين من أمـريكا انتشرت فى فنـادق البلاد التـى حرصـت فى اعلاناتها على نشر صـورة طاه من أهل المدينة متخصـص ، ويحمل شـهادة خاصة من البلدية تثبت أنه اجتـاز الاختبارات الخاصة باعداد المقانق ، الآن يعتبر أهم طبق يقدم فى العواصم الأجنبية خـلال الأسابيع الاعلامية ، ومن علامات المدينة ..

ـ مثل الكافيار الروسى ، والمكرونة الإيطالية .

والشمبانيا الفرنسية ..

يبتسم .

ـ والفـول الدميـاطى ، والملوخيـة الصعيديـة ، والسمك البـورسعيدى ، والفطير الشرقاوى ..

تتطلع إليه جادة ، مقطبة ، مستفسرة .

ـ أطعمه مشهورة عندنا ..

ـ لم أعرفها .

تعـود على مضغهـا الأنيـق ، المتمهل ، لم يستطـع الـوقـوف على المذاق الخاص ، لا يأكلها إلا نادرا ، لكن ما بدا له مثيراً ، حماسها أثناء اطلاعه ، عند خـروجهما التفتـت فجـأة فى لحظـة هـم فيهـا بتركيـز البصر على رد فيهـا المتناسقين ، المتنـاغمين ، البارزين فى غير افـراط ، ابتسامـة مختصرة تشى بادراكها ما يغمره ، يخجل ، لكنه يفاجأ بقولها :

ـ ترغب فى رؤية بيتى الصغير ؟

يتساءل ، هل تتوالى الأمور بسرعة هكذا ؟

ـ طبعا أرغب ..

يتطلع إلى الفراغ والابنية خارج المطعم ، الضوء النهارى مغاير لما كان عليه عند دخولهما ، طبيعى .. ألم تمض ساعة أو أكثر ، يجلس إلى جوارها ، يربط حزام الامان ، احساسه بالمغامرة ضعيف ، أهى الرغبة الخفية المصاحبة للاقتراب من أى امرأة جديدة ؟ ، تماما كهيبة الوصول إلى أرض غريبة ، أو التأهب لدخول مدينة مجهولة ، أو بناء مبهم ، لم يشرع مرة إلا وتردد ، بل وكاد يحجم ، كيف سيجدها ؟ هل سيمكنه الاستمرار ؟، ماذا لو فشل ؟ ، وكثيرا ما جرى له ذلك فى المرة الأولى ، معظمهن يدركن ويفهمن ، بل يقدمن المعاونة ، مبديات صبرا جميلا ، هل تهيبه هذا له صلة ؟، أم لصحبته هذه المرة من تبدو مستعصية ، غامضة ؟ أم لانشغاله برصد تحولات لا يعلم أهى حقيقة أو متوهمة حتى الآن ، داخله أو خارجه ، يلتفت .. يمتد الشارع راسخا ، متصلا ، يوشك على اليقين أو ما رآه عند اتجاههما إلى المطعم كان بتأثير اضطراب ما ، ربما الارهاق ، تتوقف العربة أمام بناية من خمسة طوابق ، عند نهاية الطريق جسر للسكة الحديدية ، تقول ..

ـ هنا يبدأ الجزء الحديث .

تدور حول العربة ، تنظر إلى العجلات ، تشد مقبض الباب ، تتقدمه تجاه المدخل ، تضغط أرقاما فى لوحة مستطيلة ، تصدر تكة معدنية الوقع ، بسرعة تدفع الباب ، يشم رائحة رطوبة ، لكن عبيرها الانثوى يصله واضحا ، يقوى أو يضعف من أنثى إلى أخرى ، مجمل لروائح شتى ، لايتشابه أبدا مع آخر ، كثيرا ما اثاره ، لكنه الآن هادئ ، متهيب ، لا يوجد مصعد ، سلم ضيق

الأبواب مصمتة ، ما من أصوات أو اشارات تـدل على حركة ما ، عند المنحنى نافذة تطل على المبانى الخلفية ، يلمح أصصا للزهور .

تقف فى الطابق الرابع ، حلقة مفاتيحها مثقلة ، للباب ثلاثة اقفال ، لابد أن هناك مـا يستدعـى هذه الاستحكـامات كلهـا ، الأرقام المعـدنية ، الاغـلاق المحكم، تبتسم ، تدعوه إلى الداخل ، يخطو حذرا ، متطلعا ، مخيفا بأحكام أى بادرة ربما تشى برغبته التى تتأجج الآن بتأثير وحدتهما ، وشبه يقين أنهما بمفردهما فى المبنى كله .

اللـون الأبيض غـالب ، الجدران ، المكتبـة ، المقـاعد ، مـن المدخل يمكـن الاحاطة بالمكان كله ، صالة صغيرة ، حجرة داخلية للنوم ، سرير عليه غطاء من الصوف الملـون ، ألوان متداخله ، ممتـزجة ، تفيض صخبا صـامتا ، إلى جوار الفراش مكتب صغير ، فوقه كتب عديدة ، لم يدقق عناوينها ، وصحف مطوية ، جريدة البلدية ، يعرفها اذ رآها عند الباعة فى السوق ، أطلعه المغربى على عدد منها عندما حدثه عن تجاهـل صحف البلدية للاحتفال الجامعى . فى الصالـة مقعد مستطيل ، يمكن أن يتمـدد فوقه المرء إذا اضطـر إلى قضاء وقت طويـل ، أما الفراش فمن الصعـب اتساعه لاثنين متجاوريـن ، يفيض المكان اناقـة ، وحسن ذوق ، الا ان وحدة عميقة تخيم عليه ، يقـول انه مكان جميل ، تتساءل بسرور ، أحقا ؟، يومئ مؤكدا فى عين الوقت الذى يفكر فيه ، كيف يشرع ، بـأى خطوة يبدأ ؟ ، المهم أن يبـدى هدوءا ورسوخـا ، لا يدرى لماذا طفا على سطح وعيه نغم قديم مصاحب لكلمات تبعث عنده شجاً .

شجنى يفوق على الشجون ..

الح عليـه النغم حتـى شرع فى ترديـده لكنه كـف ، يود أن يلـم بعالمهـا الداخلى، من هى ؟. من أين قدمت ، وإلى أين ؟ ليتها تحدثه عن صاحبها ، عن

عائلتها ، عن أشواقها ، ليتها تخبره .. كيف تفكر ، كيف تراه ، يود أن يفض مغاليقها النفسية والحسية معا .

يسألها عما إذا كانت تمضى أوقاتا طويلة هنا ؟ ، تقول إنها تمضى نهايات الأسبوع هنا ، لا تخرج ، خاصة فى الشتاء ، بعد عودتها من المكتب أو من جولة تأوى إلى عالمها هذا ، تسأله عما إذا كان يفضل الشاى أم القهوة؟، يقول إنه لا يشعر الآن بالحاجة ، تجلس فى المقعد المواجه أمامه ، يستفسر عن أصحابها ، عن أقاربها فى المدينة ؟ تقول إن والديها يعيشان فى الجانب الآخر من المدينة ، صديقتها الحميمة على سفر الآن ، أما صاحبها فيقيم الآن فى الهند لفترة ، يسألها عما إذا كانت تنوى السفر إليه ؟، تتطلع صوبه ، التفاتة حادة مفاجئة ، مصاحبة لتحديق عينيها ، يمنحها هذا تفردا ، وغموضا..

ـ هناك مشكلة !

اجابة باترة ، تقطع عليه محاولة للاسترسال ، تمضى إلى المطبخ ، يتأمل الكتب ، يسند حقيبته الجلدية التى يعلقها دائما إلى كتفه ، يلمح سريرها ، يتخيلها متمددة ، محملقة ، مغمضة عينيها ، فى ثياب النوم ، أو عارية تماما ، لم تلمح أى بادرة استثارة عنده ، خيل إليه أن ثمة رائحة مطهر ما ، يقول دهشا..

ـ هذه كتب عن مصر ..

يجيئه صوتها قريبا .

ـ نعم ..

يقلب الكتاب ، يحمل غلافه ألوان العلم الثلاثية ، دليل سياحى شامل ، على الغلاف الأخير يلمح خاتما مستديرا لمكتبة شهيرة وسط القاهرة ، هل

زارتها ؟ أوشك على الاستفسار لكنه أحجم ، أنها تقف خلفه تماما ، تمد يدها، طبق مستدير به ثلاث كعكات ممتزجة الألوان ، قالت إنه نوع نادر جدا ، لا يمكن أن يتذوقه الا فى هذه المدينة ، يعجن بالعسل الجبلى ، صينى المصدر ..

ـ مثل المقانق ؟

تجيبه بجدية .

ـ لكن هذا يخص الجامعة ..

تقول إن هذا العسل لا يستخدم إلا لتلك النوعية من الكعك ، يفرزه نحل من نوع نادر ، لا يمتص إلا رحيق زهور صينية دقيقة جدا ، ترجع إلى زيارة أمير صينى فى الزمن القديم ، غير الأمير المختفى فى البرج ، أهدى الجامعة أبصال تلك الزهور التى تخضع منذ عصور لرعاية خاصة من أساتذة كلية الزراعة ، كمية العسل الناتجة محدودة جدا ، يوجه نصفها لصناعة هذا الكعك الذى لا يخبز إلا فى نهاية السنة الدراسية ، والنصف الآخر يعلب فى أوان خزفية ويخصص للهدايا الرئاسية .

تتدفق بالكلمات ، عندما تصاعد شروعه الداخلى بسرعة ، لو أرجأ فلن يخطو أبدا ، يمد يديه ، احداهما تتناول الطبق ، الأخرى ترتفع أصابعها إلى شفتيه ، يلثمهما برقة ، غير أنها تنفر إلى الخلف ، تلفظ برفض يصعب تصدعه ، أو النفاذ من خلاله ..

ـ من فضلك !.

منـــاقشـــات أوليـــة

.. يؤثـر المشى ، كعـادته منذ وصـوله ، مـن الفندق إلى مقـر الاحتفال ، يتذوق طلاوة اقبال الصبح ، وبدايات النهارات التى سيذكرها فيما بعد ، لم ينتظر مع بقية المدعوين المتجمعين بعد الافطار فى الصالة الرئيسية .

اليوم ، يرغب فى الانفراد ، استعادة صحبتها أمس قبل تكرار اللقاء ، قبل رؤيته لها بعـد قليل ، لا أثـر لخجل عنـده ، لكن ثمـة حيرة بعد انصرافهـا ، ونزولـه أمام الفندق فـوجئ بمغادرتها العربـة ، اتجاهها نحوه ، تصـافحه بقوة، بيد ضـاغطة ، تجذبه ناحيتهـا ، تقبله ، بمبادرة حادة ، مبـاغتة ، قبلة خاطفـة، محايدة ، مجرد بـرقية غامضـة ، سريعة ، أنحنـى ، أبدى امتنـانا لحرصها على رفقته ، وأسفه لما بدر منه .

ترقرقت ملامحها ، لاحت نيرة ، بسـامة ، غير أن شجنا بدا ، حل به ، لن يراهـا مرة أخـرى ، خطر له هـذا ، لماذا أيقن ؟، بعد ذهـابه انفـرد مستعيدا طلاتها ، وصمتها المفاجئ ، والحزن العالق بشرفتى عينيها ، تأمل بطاقتها ، كان اسمهـا الأول يخلو من الحروف الثلاثـة التى تضاف إلى أهـالى المدينة الاصلاء ، التابعين تماما للبلدية ، الذين لم تربطهم بالجامعة أى صلة ، وهى حروف السين والكاف والياء ..

أما اسمهـا الثانـى فلا يسبقـه حرف التعـريف « الـــ » ، وهذا مـا يميز الجامعيين ، سواء الدارسون ، أو الاساتذة ، أو من كان على صلة وثيقة ، مثل

متعهدى توريد الأشياء الضرورية ، من أغذية إلى أثاث إلى حبر أو ورق .

إلى من تنتمى ؟

إلى الجامعة ، أو البلدية ؟

ربما كانت مغتربة ، ذات أصول أجنبية .

منذ أن فارقها أمس لم يغادر حجرته إلا صباح اليوم ، هاهو يسعى ، بعد ساعة تقريبا تبدأ الجلسة الختامية ، يمشى واثقا ، كأنه عاش عمره كله يجوس تلك الشوارع ويعبر هذه النواصى ، لكنه بعد دقائق يبطئ الخطى. ماذا لاحظ ؟

الا تبدو الاقواس والأعمدة الحجرية أقصر ؟

الا تلوح المفارق اضيق ؟

لن يستفسر ، لن يلجأ إلى أى عابر ، بنفسه سيحاول التأكد من عدم تبدل الثوابت ، من امتداد الطرق فى عين مواضعها ، ومثول المداخل فى أماكنها ، مضى الشوارع إلى ذات الاتجاهات ، تقاطعهما عند المواضع التى سبق له عبورها ، المرور بها ، هذا أغرب وأشق ما مر به منذ وصوله ، لولا اصراره على الوصول بمفرده لتوقف ، لأنثنى راجعا إلى الفندق ، ثمة تبدل مؤكد ، على يقين منه الآن !

هذا عجيب ، صعب ، من الحقائق المفروغ منها أن المكان ثابت ، والزمان متغير ، أما الإنسان فعابر ، وهو طارئ الوجود ، مؤقت المدة .

يسترجع الصورتين المتضادتين ، المختلفتين للميدان ، لمبنى الأمن ، يحار

تحوى المدينة أمورا تستعصى على الادراك ، أو النفاذ عبرها ، كاد يمضى ليلة أمس إلى الميدان ليرى أى هيئة أمسى عليها ؟ ، ليتأكد ، ليثبت ، لكنه خشى فقدان الطريق ، وأخطارا خفية ربما تحدق به ، أرجأ مشروعه .

عند انتقــاله من اليقظــة إلى النوم ، أومــأ برأسه تجاه الفــراغ ، لماذا يهتم وكأنــه مقيم أبـدا ؟، كأن الليــالى والأيام ستكـر عليه هنــا ، ليتبدل الميـدان ، فليتحرك المبنى المهيب ، قاتم الحضور ، ماذا يعنيه ؟

لن يتبقــى من المدينة الا الحيرة ، وصحبة عــابرة واصداء لظــلال بعض المداخــل المهيبة ، العــريضة ، الــرحبة ، خــاصة المنشــآت الجامعية ، ولــون السماء عند العصر ، وصــوت عصفور غــريب وقف مـرة واحدة على نــافذة غرفته ، والبرج ، وسموق الحصن المشيد ، وانتقال خطو الباسقة داخله .

تنتهى الأماكن التى تطول بها الاقــامة أو تقصر بعد مغادرتها إلى أطياف ورؤى لا رابط بينها ، مروقها يثير معنى ، وقد لا يوحى بشىء على الاطلاق .

غير أن هذه المدينــة تخلف عنــده حيرة ، بل .. وخــوف ، فما يبدو لــه كل لحظة محير ، عجيب !

المهــم الآن أن يتأكــد من الطــريق ، يعــرف هــذه الناصيــة ، والعلامــات البيضاء التــى تحدد مسار المشاة ، بعـدها يلـوح البرج فوق المبانــى .. يمد الخطى ، كأنه يخشى اختفاء العلامة الفارقة ، الثابتة التى ألم بها .

البرج ..

إذن لم تتبدل الشوارع ، المؤكد أنها أضيق ، لكن يجب أن يطرح عنه الآن انشغالــه بكل ما يلحــظ ، موعد رحيلــه يقترب ، ليؤجـل انزعاجـه حتى وإلا سيصير إلى ما انتهــى إليه عــالم الفيزيــاء المعروف ، حكــايته تــروى داخل أسوار الجامعــة بمزيد من التــأسى ، يرددها رجــال البلدية بسخريــة ، بل أوعزوا إلى رسام الكــاريكاتير بتناولها فى الصحيفة اليوميــة الأولى ، لكن أثار ذلك عند الناس استهجانا ، وحرر بعضهــم رسائل بدون توقيع فكف ، ذلك أن هذا الاستاذ كان من أبناء المدينة الاصلاء ، ولد بها ، ونشأ ، وتلقى تعليمه

بمراحلـه المختلفة فى مدارسها ، حتـى انتهى إلى الجامعة ، فنبـغ ولمع فى علم الطبيعة مع أنه كان أبكما ، أصما ، لا ينطق ولا يصغـى ، وعندما شاع أمره ، وتليت أبحاثـه أكثر من مره فى المنتـديات والحلقات ومراكـز البحث ، اقبلت عليه وسـائل الاعلام ، إلا أنه اعتـذر عنها ، بـذلت محاولات عديـدة حتى أن التليفزيون الأمريكـى عرض مليون من الدولارات مقابـل اجراء مقابلة لمدة ساعة معـه ، تحاوره خلالها المذيعة المشهورة بـربارة التى يتهافـت رؤساء الدول على المثول أمامها والاجابة على اسئلتها ، مليون له ومليون للجامعة ، ومع ذلك اعتذر وأيـده فى ذلك المجلس الاربعينى للاساتـذة ، مع ان الجامعة كانت فى أمس الحاجة إلى المبلغ لتجديد المعامل التجريبية ، والستائر التى لم تتغير منذ القرن التـاسع عشر ، البلدية شنـت هجوما مستترا ، ثم سـافرا ، فظهور الاستاذ فى البرنامج مـع بربارة وبينهما مترجمة أو مترجم يستخدم لغة الصم والبكم فيـه خدمة لقضية المعوقين ، ليس فى المدينـة فقط ولكن فى العالم كله .

رجال الجامعة أكدوا أن هذا الهدف الإنسانى لا يحرك البلدية ، إنما هناك هـدفين محدديـن الأول استغلال البرنـامـج المقترح فى الـدعايـة لتنشيـط السياحة ، خاصة أن عدد الافواج الأمريكية أقل بكثير مما هو متوقع ، الثانى هو المبلغ المعـروض ، المليونان سوف يحولان إلى البنوك المحلية وهـذا يزيد مـن رصيد العملـة الصعبة فى المدينـة ، ويـوقف الارتفـاع المستمر فى سعـر الدولار ، هذه الأسباب كلها شرحها رجال البلـدية بالتفصيل ، ولكنها قوبلت بصد ورفض حازمين ، من هنا يمكن تفسير الشماتة الشديدة العلنية بعدما جرى لـلاستاذ النابغة ، وتفصيـل ذلك أنه خـلال انشغاله بدراسـة حزام الكويكبات بين الأرض والمريـخ ، وبعد أن أجرى حسابات معقـدة ، أيقن من

احتمال اصطدام أربعة منها بكوكب الأرض خلال المليون سنة القادمة ، خاصة إذا تماست المدارات .

النتائج لاقت اصداء واسعة ، وتردد اسمه فى العديد من عواصم العالم ، وظهرت شروح عديدة ، ورسوم توضيحية ، وتفسيرات شتى ، ولكن ماجرى داخله هو كان مختلفا ، لم يتوقعه أحد ، ذلك أن الحقيقة العلمية التى توصل إليها الحت عليه حتى شغلته تماما ، وصار يفكر فى الانفجار المهول الذى سيقع لحظة الصدام ، وما سيحدث من زلازل وفيضانات ، وانقلابات فى الطبيعة بل ان قوة التصادم إذا زادت على حد معين ربما تؤدى إلى تفجير الكوكب وتحوله إلى حزام جديد من الكويكبات ، عندئذ تفنى الحياة التى لا يوجد حتى الآن أدلة مقنعة على ان ثمة قرينا آخر لها فى الكون الشاسع .

فى نومه ، فى يقظته ، فى حركته ، فى ثباته ، ألح عليه الأمر وطغا ، قل وسنه ، وطال سهره ، وعجزت اشاراته عن التعبير عما يمر به من خوف واضطراب عظيمين .

ولما بدأ أمره فى الشيوع ، عرض عليه زملاؤه دخول المستشفى الجامعى لبضعة أيام فقط .. لاجراء فحوص عادية ، أو لالتماس الراحة .

رفض .. وفى احدى الليالى ألقى الحرس الجامعى القبض عليه عند مدخل القبو الجامعى الممتد تحت الأرض حيث الكنوز والنفائس ، اقتيد إلى التحقيق، فهذا موقف لا تجدى فيه شفاعة زملائه ، ولا شفقة الإداريين القدامى . خاصة انه صرح بنواياه ، عندما قال إنه يريد الوقوف على سرج الحصان الذى ركبه الا سكندر الأكبر عند غزوه بلاد فارس . كذلك الحصول على كأس البللور الصخرى التى دفعها سليمان الحكيم إلى شفتى بلقيس ملكة سبأ وسقاها ماء الورد .

كثيرا ما تردد مصادر الجامعة وجود السرج والكأس ، لكن لم ترد أى تفاصيل عنهما فى قوائم المقتنيات التى يسمح باعدادها ونشرها كل مائة عام مرة . لهذا من غير المسموح به مجرد التفكير فى طلب الاطلاع عليهما ، وادرجا فى المقتنيات المحرمة .

تأسف الناس على الاستاذ النابغة ، ورثاه بعضهم حبا ، وتذكره أصحاب المتاجر ، وعمال المطاعم ، ومحصلو الشركة المحلية للنقل ، والعاملات فى المسرح الكبير ، ودار السينما الصيفية ، كان لطيفا كريما ، خجولا ، سريع البديهة ، يفهم ما يقال من حركة الشفتين ، وتعبيرات الوجه .

أليس أمرا مؤسفا ان ينتهى مثله إلى المستشفى الجامعى ، وأن يوخز بأبر الحقن حتى يمكنه النوم ؟

مصادر البلدية رددت ما يشاع عن مس يصيب الاساتذة فجأة . وذكرت بعض الروايات بمصير الفيلسوف الذى كان أول من نطق عبارة : صباح الخير .

ترى من خطا فوق هذه الأرض قبل ألف عام ؟. من سيعبر هذه الناصية بعد قرن من الآن ؟. أى صور ستتوارد على ذهنه ؟ وماذا سيثيره ذلك الوجود المحيط من تداعيات ؟

يجتاز الباب الرئيسى متسائلا ، هل سيعبره مرة أخرى يوما ما ؟ هل ترقبه الباسقة ، الرقيقة من مكان ما ؟. يمشى متئدا ، متمهلا ، يهفو قلبه إلى لا شىء يمكن تعيينه أو تحديدة ، بعد لحظات سيراها ، سيتوجهان ، خلف المنضدة المستطيلة ، فوقها مطبوعات شتى ..

أين .. أين هى ؟

فتاة أخرى ، أقصر ، اكثر امتلاء . كان ممكنا له التفكير فى احتمال ذهابها

هنا أو هنـاك ، ظهورهـا بعد قليل تفيـض حيويـة ، تتدفق نشـاطا ، تـرتب الكتيبات ، تخاطـب هذا ، تومـئ لذاك ، تنتقـل من أول المنضدة إلى آخـرها ، تفتح الدرج الصغير لتبدل نقودا أو لترد ما تبقى ، تعيد ترتيب الأوراق ، غير أن يقينا خفيا أكد له استحالة ظهورها .

يومئ محييا .

تجاوبه القصيرة بتحفـظ باد ، هل مـن اللائق أن يسألها عـن زميلتها ؟ تردد .. لكنها عندما خاطبته باسمه ، دهش ، خاصة أنها لم تتجه بعينيها إلى البطاقة الصغيرة ، المعلقة إلى صدره ، تتسـاءل عما إذا كان يحتاج إلى خدمة ما ؟ .

ـ أتمنى ابلاغ تحياتى إلى زميلتك ، سنرحل غدا فى ساعة مبكرة .

ـ أى زميلة ؟

يتطلع مبتسما ، يشير إلى حيث تقف ، تنظر مرتابة ، تشير بكلتا يديها إلى صدرها ..

ـ لم أفارق مكانى منذ أول يوم ..

ـ لكنها ..

تشير إلى الحاسب الآلى ..

ـ آسفة .. عندى شغل ..

تلمس المفاتيح الصغيرة ، المستديرة ، يبتعـد متمهلا ، شاكا فيما عنده . مثخنا بالحيرة . يلج القاعة ، المكان كله فى حالة تأهب لاستقبال الأعضاء .

. زجاجات المياه المعدنية المعبأة من النبع الفوار الذى دارت بسببه الحروب وسفكت دماء ، الاطباق المستطيلة التى لا تستخدم إلا فى الجامعة ، كل أطباق المدينة مستديرة ، البيوت ، المطاعم ، المقـاهى ، أقراص الحلوى المصنوعة من

عسل ينتج من مناحل كلية الزراعة ، اشتهر بجودته ، ولسعة مميزة لمذاقه ، تماما كتلك التـى تناولها أمس من يـدها ، يستعيد اصرارها على أن يـأخذ ما تبقى ،. عنده واحدة فى الفندق ، تمثل أمامه ، تقف بسموقها ، بجديتها ، بلين ملامحها ، بصـدها الحازم لمحاولته التقـرب ، اقبالها المفاجئ وتقبيلهـا . لو يعرف الطـريق إلى منزلها لمضى الآن ، لترك بطـاقة تحمل سطـورا وداعية . يذكر صندوق البريد الصغير المعلق إلى الجدار بعـد المدخل ، فتحته ، تناولت خطابات ونشرات اعلانية ألقت بها فى صندوق المهملات المطلى بلون أبيض ، لم تقرأهـا ، مؤكد ذلـك ، لم يقصه إنسـان عليه ، لم يطالعـه فى كتاب ، رأى وسمع ، أين هى إذن ؟ أين ؟

يتـأمل السقـف ، التماثيل الصغيرة ، أطفـال مجنحين ، نساء نصفهـن الأعلى آدمى بـرى ، أما الأسفل فبحـرى ، لهن ألق الهى ، وأوضاع ربـوبية ، هذه القـاعة لـلاحتفالات النـادرة ، فيما يتم تنصيـب رؤساء الجامعـة عبر طقوس مهيبة ، فى مبنى البلدية القديم قاعة مماثلة جرى تجهيزها منذ أربعة قرون لتنصيب رؤساء البلدية . لكنها خصصت لأغراض أخرى ، مثل اقامة المعارض الهامة والاستثنـائية ، مثل معرض الآثـار الفرعونية الـذى استمر ثلاثة أشهـر ، وشهده أربعمائة ألف متفرج ، ومازال رجال البلـدية يرددون هذا الـرقم بفخـر ، وان أرجعه الجامعيون إلى أهميـة الآثار ذاتها ، والـدليل تواضـع أرقام الـزوار المترددين على المعارض الأخـرى ، وبالطبـع لا يخفى الغرض الاقتصـادى من استغـلال المكان وهـذا ما لا يمكـن ان تقبله إدارة الجامعة .

الأعضاء لم يصلوا بعد . اعتاد مثل هذه الاحتفالات والمؤتمرات . الابحاث، التوصيات ، القـرارات ، تكرار وجوه المدعوين ، بعضهم يقـدم بحثه فى أكثر

من اجتماع ، يغير المقدمة ويعيد صياغة بعض السطور ، يتابع ساخرا حماس البعض ، افتعالهم النقاش ، معظم وقته يشرد ، لا يوجد إلا بمثوله الجثمانى ، أما مشاركته الفعالة فلحظة القاء بحثه ، أو ابداء بعض الملاحظات ، يردد أحيانا ، المهم تسديد نفقات الاقامة وبطاقة السفر بالمشاركة ، باثارة جدل ما . لا يهتم بما يدور فى خلفيات الحفل ، أولى اهتمامه لتجميع الدراسات المطبوعة بمناسبة تأسيس الجامعة ، أما رغبته فى التطلع إلى الفسيفساء الملونة فى سقف المدخل الرئيسى فتتجاوز استعداده للمشاركة فى المناقشات أو الاصغاء إلى ما يلقى من بحوث .

كثيرا ما صد النوم وقاوم الاغفاء أثناء الجلسات المطولة .

أمس .. قالت له الباسقة ـ التى لا يدرى أين مسعاها الآن عندما يلتحق أبناء المدينة بالجامعة يمرون باضطراب ، طوال مدة دراستهم ، ولاؤهم جامعى ، حتى إذا تخرجوا وعملوا فى مصالح البلدية ومنشآتها انقلبت أحوالهم ، ولزم جهدهم بما يخالف ما تلقوه عبر سنوات ، يمر الكثيرون منهم بأزمات حقيقية رغم الدورات التمهيدية المكثفة التى تنظمها البلدية بغرض معلن هو التعريف بتاريخ البلدية ونظمها ، ولكن جوهره إزالة أى أثر للولاء الجامعى .

قالت أيضا إن مشاكل عديدة تنشب داخل العائلات ، إذا ضمت الواحدة شقيقين ، أحدهما جامعى ، والآخر بلدى ، لايمكن إلا للأسرة الراسخة احتواء مثل تلك الأزمة .

أشار المغربى فى حديثه إليه .. صحيح ، أين المغربى ؟ لماذا اختفى ؟ الليلة سيجرب رقم الهاتف ، سيطلب من بدالة الفندق الاتصال ، سيحاول الاصغاء إليه ، أو أنه وهم لا وجود له هو الآخر ؟. حدثه عن صلة الجامعة

والبلديـة بالخارج ، صحيـح ان العلاقات بـالدول والمنظمات الأجنبيـة من اختصاص الحكومة الاتحادية ، لكن تراثـا طويلا من الممارسات ليس سهلا تجاوزه . البلدية لها علاقـات وثيقة بمدن العالم ، وللجامعة صـلات قديمة بالهيئات العلمية المماثلة ، وكثير من خريجيها يتولون مناصب هامة فى دول مختلفة ، خـاصة فى البـلاد الناميـة ، وأحيانـا يذكـر لقب الـوزير مقـرونا بتخرجه منهـا ، التنافس قديـم ، مصادر البلدية تـردد دائما أن عدد الملوك والرؤساء الـذين زاروا أو كاتبوا عمدة المدينـة أكثر من أولئك الـذين اتصلوا بالجامعة . لكن الاساتذة يقولون إن عدد الشخصيات العلمية والادبية الذين أقامـوا صلات مبـاشرة أو غير مباشرة لا يمكـن حصرهم ، ثـم يتساءلـون بترفع: مـن يذكر الآن اسم العمـدة وقت قدوم شكسبير ، وحضـوره عرض إحدى مسرحياته على المسرح الـرومانى القديم الذى توجـد بقاياه الآن قرب كلية الفنون الدرامية . من يذكر رئيس البلدية عندما جاء الفيلسوف العربى ابن رشد ، والقى دروسا فى المنطق لمدة سنة كاملة ؟

التفاصيل عديـدة . لو اهتم بكل منها لأفنى وقتـا وجهدا ، ان وجوده هنا عابـر ، إنما جاء ممثلا لهيئته بـدلا من زميل أقعده المرض ، إذا شـارك فمن قبيل المجـاملة ، والحرص .. حتى لا يقـال بعد سفـره أنه لم ينطق حـرفا . الحقيقة أنه يقمع فضولا عنده ورغبة فى الالمام ، خـاصة بعد تحذير المغربى من أخطار ربما تكون خفية الآن ، غير أنها دانية . تظهر فجأة ، لم يكف عن رصد مـا يسمعه ، مـا يمر بـه ، يرجـئ كتابـة بعض السطـور فى مفكرتـه الصغيرة التى اعتـاد حملها فى جيب سترتـه إلى ما بعد اقـلاع الطائرة ، ربما اطلع عليها أحدهم !

ساعة معصمه ، ساعة القاعة ذات البندول الذهبى .

ثمة تأخير . لم تفتح الجلسة فى موعدها . لم يأت بقية أعضاء الندوة بعد ، ثلاثة من ممثلى البلاد الشمالية ، يتهامسون ، فيما يلى ذلك علم أن الخلاف حول البيان الختامى بدأ ليلة أمس ، عند دخوله المصعد لحقه رجل نحيل ، من جزر المارتنيك ، طوال الأيام الماضية لم يتبادل معه إلا الايماءات . سأله عما إذا كان سيحضر الاجتماع الذى سيعقد فى الغرفة رقم أربعمائة وسبعة؟.

استفسر عما يجرى ؟

قال المارتنيكى ان بعض الزملاء اقترحوا ضرورة مناقشة النص الختامى للبيان ، بعضهم حصلوا على نسخة منه ، أما الهدف من اللقاء فاتخاذ هدف موحد .

تساءل : ممن ؟

قال المارتنيكى : من البيان الختامى .

استفسر : من سيتخذ الموقف ؟

قال مبتسما : ممثلو الجنوب .

أضاف مبتسما ، هذا تعبير مهذب يراد به بلادنا التى يعتبرونها فقيرة ، فى تعبير آخر يقولون ، نامية ، وبكلمة أكثر صراحة يقولون ، متخلفة .

قال إنه مرهق ، جال اليوم فى المدينة ، أما ما سيتوصل إليه الزملاء فسيطلع عليه صباحا ، تساءل : ألن تتاح الفرصة لمناقشة البيان فى الجلسة الختامية ؟ أجاب المارتنيكى أن تقاليد الجامعة تتيح ذلك لكن لابد من اتخاذ موقف .

رفع يده باسطا أصابعه الخمس عند وصول المصعد إلى الطابق الثالث ، « نطقها بلهجة أمريكية . لحظتها فكر : أنه لا يحب هذه التحية ، جاوبه

مـومئـا بدون نطـق . علـم بما جـرى فى النقاش الليلى ، لم ينـدد ، ذلـك أن مضمون ما جرى تردد مرتين ، الأولى عقب الافطار ، والثانية فى القاعة ، أول مرة امتـد الحوار إلى ما بعـد الفجر ، بعـض الأعضاء لم يغمـض لهم جفن ، ذهبوا إلى الجلسة الختامية بدون نوم .

قال أحـدهم أنـه لا يتخيل صدور البيـان بدون إضـافة فقـرة مقترحة تتكون من أربعة سطور تضم خمسا وأربعين كلمة ، اغفالها يعنى اهمال كل القضايـا الحيويـة التى تعـانى منها الشعـوب الناميـة ، وعلى رأسـها بقـايا الاستعمار والاستغـلال والقهر . قـال إن المناسبـة لا تتكـرر إلا كل قـرن ، التالية ستحـل والعالم خال من جميع المشـاركين الآن ، بـل لا يدرى أحد إذا كان الكوكب سيكـون سابحا فى مداره !. أخطار عديـدة تهدد البشرية ، منها الأرض ، والكون ، ثقب الأوزون ليس ببعيد وما يترتب عليه من تدفق الأشعة فوق البنفسجية ، وارتفـاع حرارة الكوكب ، الاستـاذ النابغة لم يكن مبـالغا عندما انشغل بخطر اصطدام أحد الجبال الطائرة ، هناك أيضـا المذنب هالى ، كل الحسـابات تؤكد أنه عندما يظهر المرة القادمة سيقترب إلى أدنى مسـافة ، هذا لم يحدث فى المرات السـابقة ، أما الناتج عـن التلوث فأمر ذو مضـاعفات بلا حد .

المهـم ، ان يكون البيـان الختامـى وثيقة شـاملة ، بحيـث تصبح مـرآة ملخصة ، مركزة للعصر .

بعد نطقه المقدمة ببطء وتمهل ، تلا نص الفقرة المقترحة ..

غير أن الأمـر لم يكن بـالسهولـة التى لاحـت فى البدايـة ، على الرغـم ان المجتمعين فى الغرفة يمتـون إلى جانب واحد ، بعد طول جـدل تم الاتفاق على خطوط عامة ، وتحفظ شخص واحد . أنه سفير سابق تجاوز السبعين ، وان

بدا أقل عمرا لسواد شعره ، وهمته البادية ، دبلوماسى قديم ، ومن طبيعته تجنب الانحياز الصريح إلى هذا الجانب أو ذاك ، لكن أحد الحاضرين ذكر أسبابا أخرى منها حرصه ألا يغضب الجامعة ، أو البلدية حتى توجه إليه الدعوة فيأتى مرة أخرى .

تعرف إلى هذا السفير واقترب منه خلال اليومين الماضيين ، بدا هادئا ، حريصا على خفض صوته ، والانحناء مبديا احترامه عند اللقاء . إذا واجه من لا يعرفه يبادر بذكر اسمه ، ثم يقول على مهل : سفير سابق فوق العادة .

لمح فى عينيه حزنا قديما ، خاصة إذ يتحدث عن زوجته الأولى التى عاشرها أربعين عاما ، لم يختلفا مرة واحدة ، ولم يرتفع صوت أحدهما فى مواجهة الآخر ، ثم يكرر جملا بعينها .

« خطفت منى خطفا ..»

« مثلها لا يعوض .. »

« كانت تؤنسنى وتريحنى ..»

صحبته عندما جاء إلى هذه البلاد مطلع الخمسينيات ملحقا أول ، أمضيا فى العاصمة الاتحادية أربع سنوات من أجمل سنى العمر . أنجبا ولدين ، الأول تجاوز الثلاثين الآن بأربعة أعوام ، هاجر إلى كندا ، وخلال إحدى رحلاته إلى المكسيك تعرف بأدريانا ، انجبا طفلة واحدة ، يرسل إليه بطاقة فى رأس السنة تحوى سطرا أو سطرين لا غير .

« يكفينى ذلك ، المهم أن أطمئن عليه .. »

الثانى فى الخامسة والعشرين ، استقر به الحال فى تايلاند ، لا يعرف ان كان متزوجا الآن أم لا ؟ لكنه يدير شركة تصدر العمال إلى دول الخليج ، أنهما مشغولان دائما ، لكن الأصغر يتصل به هاتفيا كل شهرين أو ثلاثة ،

لوطأة الوحدة اضطر إلى زواجه الثانى ، ثم الثـالث ، أما امرأته الثانية فكانت فنانـة تشكيلية مرموقـة ، أقامت معرضين فى أحـد مقاهى باريـس ، سبق زواجها أربـع مرات ، طلبت الانفصال بهدوء ، وعنـدما سألها عـن السبب ، قالت : أنـت مهذب أكثر من اللازم !. قـال إنه لا يفهم ، اجابتـه بحدة : تنام معى وكأنك تقدم أوراق اعتمادك ! قال إن كـلا منهما تجنب الآخر تماما بعد انفصالهما ، أما الزواج الثالث فتم بعـد سنة ، واستمر ستة شهور رغم أنها قريبته .

« كانت قاسية .. قاسية جدا .. »

سأله عما إذا رأى حفيدته ؟

« صورتها .. صورتها فقط .. »

مـلامح السفير ، ايقـاع صوتـه ، حضوره ، استعـاده مرات رغـم قصر العلاقـة ، غير أنه تفهم صمتـه ، وايثاره النأى عـن الآخرين ، كـان يمضى وقتا، كثيرا مـا تذكر هـدوءه وامتثاله وسعيـه الذى لا يرى فيـدركه حنين ممتزج بأسى .

منه علم وألم بما جرى فى الاجتماع الليلى ، حول منضدة مستطيلة تحلق أربعة ، الآخـرون قعدوا فوق السرير ، جـاء ممثل عن الجامعة استـاذ بكلية الطب ، مشهود له بفهم أحوال القلب واجراء الجراحات المعقدة ، خاصة زرع القلوب فى الأجساد العليلة .

جاء شـاب نحيل ، طـويل ، شقـرته بـاهتة ، يبرم طـرف شاربـه الأيمن بأصابعه ، لم يدر أحد وظيفته ولم يعلن عنهـا عندما ذكر اسمه وقال إنه من رجال البلدية ، يمكث دائما فى قاعـة الاجتماعات ملتزما الصمت والتطلع إلى المتحدثين بحدة ، وتدوين بعض الملاحظات فى دفتر حجمه مغاير .

وصل أيضا بعد بدء الاجتماعات بربع ساعة الرحالة التركى ، شاب هائل التكوين ، مترامى الأطراف ، غليظ الرأس ، حلته رياضية بيضاء من قطعة واحدة ، مرصعة بعلامات شتى لهيئات ومؤسسات وعلامات تجارية لمنتجات شتى من السيارات إلى المياه الغازية ، ورموز مدن ومقاطعات ، لصوته صدى مصاحب له وهذا غريب . بدأ رحلته منذ عامين وسينهيها بعد ثلاث سنوات وأربعة أشهر وخمسة أيام ، حيث يصل فى السابعة صباحا من اليوم الأخير إلى مدينة هيروشيما ، هدفه الدعاية لانقاذ الكراكى المهددة بالابادة فى المحيط الهادى ، هيئات دولية عديدة ترعى مشروعه ، وتساهم فى تكاليف سعيه ، يحمل أغراضه على ظهره ، حقيبة من القماش الصناعى المتين ، جيوبها عديدة ، منها المستدير والمستطيل والا سطوانى ، تحوى قائمين من حديد ، يمكن تحويلها إلى سرير ، يثبت أعلاها نموذج للكرة الأرضية يعلوه مصباح كهربائى صغير ضوؤه أحمر ، يدور كالمصابيح المعلقة فوق عربات الاسعاف والشرطة ، وعلى الجانبين بمحاذاة كتفيه تنبثق اعلام مختلفة ، ربما للدول التى مر بها ، أو البلاد التى سيعبرها .

ما حير السفير وصوله بالطائرة إلى العاصمة الاتحادية ، وبالقطار المغناطيسى إلى المدينة ، اين رحيله مشيا إلى هيروشيما ؟

قال التركى أنه كان على مشارف طريق الحرير العظيم عندما وصلته الدعوة لحضور الاحتفال المئوى ، باعتباره رمزا للانسان المدافع عن بقاء الطيور ، بعد نهاية الاحتفال سيرجع ليستأنف رحلته من النقطة التى جاء منها .

بعد أن تلا ممثل الجامعة نص البيان ، تقدم عالم النبات الأفريقى وتلا الفقرة المقترح ادراجها . قال إنه تم ترجمتها إلى خمس لغات حية درءا لسوء الفهم ، وأن التوصل إلى هذه السطور تم بعد مناقشات مطولة .

قـال الطبيب ممثـل الجامعة أنـه لا يرى أى مـانع ، خـاصة أن المعنـى واضح، متوازن .

رفع الاشقر يده ، بدا هادئا لهجته استنكارية ..

ـ تخيلوا ياسادتى وقع هذا على رجال البلدية ..

ثم قال :

ـ الاحتفال لا يتم فى فراغ مكانى أو زمنى ياسادتى !

السفير اطلق عليه « السيد سادتى » ،إذا بدأ حديثه قال « يا سادتى » اذا أجاب يا سادتى عند القاء التحية . « صباح الخير ياسادتى » « كل شىء على مايرام ياسادتى ؟ » .

قال الأفريقـى ، ان تساؤله يفتح بابـا لابد من توضيحـه قبل عبوره أول الطرق إليـه ، فالجامعة لها صورة عـامة ، وأخرى خاصـة ، الأولى فى العالم كله، والثانية فى دول الجنوب ، وهناك بعـد خفى يربط الطرفين أو الجانبين ، فما يتم الآن محاولـة اقرار علاقات متـوازنة ، بعد ان سيطـر الشمال حقبا طـويلة . الخطـر يطل الآن بعـد انهيـار المعسكر الاشـتراكـى وتقدم النظـام الغربى ، إضافة الفقرة أمر مهم للتعبير عـن أوضـاع جديدة لم تدر بخلد أحد قبل سنوات قليلة ..

قال الأفـريقى أنه يجب أخـذ ذلك فى الاعتبـار بغض النظر عـن دعاوى بعض المؤسسات داخل البلاد .

هنا تردد صوت الرحالة التركى الضخم ذى الصدى .

ـ والكراكى ؟

تطلع إليه الجميع ، تساءل الطبيب ..

ـ أى كراكى ؟

ـ كراكى المحيط الهادى المهددة ..

مد الأشقر يده ، بسط أصابعه ..

ـ أصغوا إليه ياسادتى ..

قال التركى

ـ إنما جئت من أجل هذا .

اتجه الأشقر مباشرة إلى الأفريقى ..

ـ لو فتحنا الباب ، لن ننتهى .. كل منا لديه مايرغب قوله ياسادتى ..

بعد صمت قصير قال :

ـ يا سادتى ، مثل العبارة المقترحة ستؤدى إلى تأجيج خلافات حادة نحاول انقاذ المدينة منها بعد رحيلكم ..

تردد مرة أخرى الصوت العميق المصحوب بالصدى ..

ـ اننى مصر على الاشادة إلى وضع الكراكى ..

قام الأشقر بارماً شاربه .

ـ سادتى .. هذا ضار جدا !

مناقشـــات ختــاميــة

.. ثلاثــون دقيقة بعد الموعد ، اكتمـل الحضور ، مناخ خفى مختلـف عن الافتتاح ، ثمـة ترقـب ، تربـص ، رئيس الجامعـة يرتـدى الزى التـاريخى المتوارث .

ذكر بجلال المنــاسبة ، وشكر الضيوف الـذين قطعوا مسافـات شاسعة للمشاركة فى احتفال لا يقام إلا كل قرن .

تمهل قليلا ، قــال إنه سيتلو البيان الختــامى الذى سيصبح مـن وثائق الجامعة .

بالطبع .. لن يلم بكل القضايا التى طرحت أو نوقشت ، خاصة ان التنوع فى الحضور غير مسبوق . لذلك يرجو ترحيب الجميع بما سيقال ، وأن يدرك كل مـن لديه فكـرة أو قضية ملحة أنــه ليس ضروريـا ذكرها بـالتفصيل ، بنصها الحرفى ، هنا أفكار عــامة تتضمن المبادئ العامة . فى البيـان ما يجمع أكثر مما يفـرق ، وما يقرب يفوق ما يبـاعد . أما حق ابـداء الملاحظات فمن التقاليد الجامعية العريقة .

بدا الـرجل مهيبا ، وقورا ، راسخـا مكانه ، ودودا أيضا ، لاحـظ البعض جلوس الأشقـر إلى يمين الطاولـة المخصصة للكتبـة ، رغم تـوافر الأجهـزة الحديثة لكن الطـريقة القديمة حوفـظ عليها ، حيث جرت العادة بتـدوين ما

يلفظ طبقا لطـريقة الاختزال القديمة . أمـا الرحالة التركى فظهـر عند طرف المائدة اليسرى ، لم يحضر الجلسات السـابقة ، أثار مشكلة عنـدما أصر على دخول القاعة حاملا حقيبته التـى يعلوها المصباح الأحمر الدوار . بعد جهد أقنعوه مخالفة ذلك للنظم المعمول بها . اضطروه إلى تركها عند مدخل المبنى.

نبرات رئيس الجامعـة واضحـة ، ثمة نظـام خـاص لتكبير الصـوت فى القاعات ، يعتمد على تصميم المبانى ، نتوءات بمقاسات وارتفاعات محددة ، تجاويف فى الجدران وزوايا تسهل انتقال المويجات وترددها ، لا مثيل لذلك ، ترتيب لاتفصح الجامعة عن هندسته .

إنه مثقـل باغفـاءة تراوده ، يحاول استنفاد قـواه كاملـة ، التركيز على ملابس الاساتذة وألوانها ونقوشهـا ، محاولة قراءة اللافتات الصغيرة أمام الأعضاء ، اسـم الضيف ، درجته العلمية ، البلـد الذى جاء منه ، أو تسـديد البصر إلى نقوش الجدران ، الزخارف المتشابكـة ، الأغصان المورقة ، تتخللها وجـوه اطفال ، عيـونهم واسعـة ، شبه دامعـة ، يستعيد مـا قـرأه عن هـذه التصميمات عن الفنانين الكبار الذين تعـاقبوا على نقشها وابداعها ، درجات اللون البنفسجى التى لم يجر توليدها من قبل ولا من بعد .

يستنفر من خبايا ذاكرته واقعة جرت فى الزمن الصينى المنقرض ، عندما تبارى فنانان أمام الأمبراطور .

شرع الأول فى رسم غصن شجرة ، بعد فراغـه منه حام عصفور وحاول أن يحط فوقه .

قال رجال الحاشية · لا يوجد أمهر من ذلك .

الفنان الآخـر رسم بابا فى جـدار ، كل من يقصده ، يحاول عبـوره لكنه يفاجأ بصد مصمت .

حاد القوم !

مثـل ذلك جـرى فى بلاد فـارس ، إذ أقـدم رسام على تصـوير غصـون وزهور وطيور ، يظن الناظر إليها أنها حقيقة . جاء آخر ، اتجه صوت الجدار الأبيض ، الناصـع .. المواجه ، لم يفعل شيئا إلا أنه راح يصقـل السطح حتى ظهر عليه التعب لما بذله .

حار القـوم به ، لكن .. شيئـا فشيئا اتضحـت معالم لوحـة ، لم تكن إلا المقابلة .. حتـى ليحار الناظر بين الأصـل والصورة ، رئيس الجامعة يـذكر جملة فيها الجذع والغصن . لم يدر ما سبقها .

يوشك الوسن أن يدركه ، يرى مـدخل المطعم القديم ، صعودها الدرج ، رائحتهـا الغريبـة المتفردة ، تمتمـة شفتيهـا ، اشارة أصـابعها ، صنـدوق بريدهـا..

وهم أو حقيقة ؟

أصل أو ظلال ؟

الأيدى تصفق .

لكن الكعكتين فى الغرفة ، ما تبقى من هديتها ، مذاق المقانق لم يمح بعد .

هل غفا ؟

المعانـى هائمة ، عـامة غير مفصلة ، تتوارد عليـه صور عديـدة لحظات مارقـة ، سرعان مـا تنحدر إلى المنطقـة المعتمة مـن الذاكـرة ، عدا مـلامحها المقترنة بقسمات من عيـون حياته ، صدى حضـورهن قربه ، جلـوسها إلى جواره ، فى العـربة ، فى المطعـم ، انفرادهما المؤقـت فى البيت ، الطـريق الـذى يطوى بمجرد قطعه .

واقع أو توهم ؟

مبنـى فرع الأمـن الاتحادى ، الحصـن المشيد ، بـوابـة الغيبـة ، بوابـة

الفلاسفة ، الطرقات التى تضيق اليوم وربما تتسع غدا ، يود مفارقة هذا كله، لو أن زميله لم يرقد مريضا لما عرف طريقه إلى هذه المدينة الغريبة ، المحيرة ، لو يرجع إلى غرفته الآن ، يغفو ، لا يفيق إلا قبل مغادرته غدا ، يضيق الآن بمكثه ، ثمة مالا يريح فى المناخ كله .

يدنو كل ترتيب من ذروته ، لا ينقض إلا الاذن بدخول المصورين ، ثم تبدأ المغادرة .

لكن .. ها هو الا ستاذ الأفريقى يرفع يده ، متبعا الأصول المرعية ، أى خروج عنها أمر مخل لا يقبله المسئولون . مهما كانت شخصية المتحدث .

يمسك رئيس الجامعة بالجرس الفضى ، المزخرف بعروق نحيلة من الذهب ودوائر صغيرة من الفيروز والمرجان . يهزه بحركة محسوبة ، مقدرة، ليرن مرتين لاغير ، يعنى ذلك الاذن بالحديث ، ثلاث تعنى الرفض ، أما إذا اصر الطالب فاربع رنات تعنى الاذن للحرس الجامعى بدخول القاعة وارغام المخالف على الخروج .

وريقات فى يد الاستاذ الأفريقى ، يقربها من عينيه ، يلتفت إلى المنصة ، يبدأ بجملة تتردد كثيرا فى المؤتمرات :

« شكرا .. سيدى الرئيس » .

إنه مضطر إلى ابداء ملاحظة ، يبدو أن خطأ وقع ، قبل التطرق إلى التفاصيل يجب التأكيد على استثنائية الجلسة ، كل كلمة تلفظ ستصبح موضع بحث وتأمل وتفسير من الأجيال المقبلة ..

البيان الذى تفضل السيد الرئيس بقراءته منذ قليل سيتلى فى مقدمة الاحتفال القادم ، أى .. بعد مائة سنة ، كل من سيصغى إليه لم يفد بعد إلى الدنيا ، وكل من سمعه لن يكون موجودا وقتئذ ، ستقوم كيانات ، وتتحلل نظم وتتبدل أوضاع .

يتوقف لحظة ثم يستأنف .

بعد التنبيه ثمة مدخل لابد منه ، تليه مقدمة لايضاح القصد ، واظهار الغاية ، أما المدخل فيتعلق باجتماعين عقدا ليلة أمس وصباح اليوم ، فى الأول تم الاتفاق على صياغة فقرة محددة تتضمن إشارة واضحة إلى أمور جوهرية تمس الشمال والجنوب معا . فى الثانى جرى تفاهم ضمنى على التلميح إلى مضمونها أو الاشارة إليه ، الأمر إذن لا يتعلق بنص معين ، بمحدوديته أو اطلاقه ، لكن .. الصلة وثيقة بشقين ، الأول يتعلق بجوهر ، والثانى متصل بمبدأ .. يتطلع إلى الأشقر ، الشاب يبرم طرف شاربه .

يقول الأفريقى أن أحد السادة الحاضرين جاء قبل الحفل وقال إنه اجرى اتصالات مع جهات ذات شأن لم يفصح عنها ، وأن الرأى أجمع على ابداء كل وجهات النظر مع وضع الفروق الجوهرية فى الاعتبار ، وانه لا مانع من ذكر الفقرة كاملة ولكن بعد تغيير صياغة جملة واحدة ، إذ استقر رأى السادة المجهولين على أن تكون هكذا :

« أما عن العلاقات بين الداخل والخارج .. »

بدلا من الصيغة الأصلية :

« وبالنسبة للعلاقات بين الخارج والداخل .. »

يقول إن عددا من الزملاء أعربوا عن تحفظهم ، الا ان الموافقة على التعديل تمت احتراما للمناسبة وحرصا على درء البلبلة ، لكن وقعت المفاجأة بعد تلاوة البيان التاريخى ، إذ لم ترد من قريب أو بعيد ، وهذا مثير لدهشة جميع الزملاء الذين اختاروه ممثلا لهم ، وناطقا بلسانهم ، اجلالا للحدث التاريخى ..

يتطلع إلى المنصة ، يعود إلى اطراقة عابرة . يرفع رأسه ، صوته متمهل ، وقور ، كأنه بدل تبديلا .

يقول إن سائر أعضاء دول الجنوب وممثلى جامعاتها يوقفون استمرار مشاركتهم الفعلية على ادراج النص ، وفى حالة الاستجابة فأنهم يتمسكون بالجملة الأصلية .

« وبالنسبة للعلاقات بين الخارج والداخل .. »

يتطلع إلى المنصة .

« شكرا سيدى الرئيس .. »

سكون متحفز ، مجلل بالنذر تتبدد عنده أى محاولة للاغفاء ، ينتهى شروده ، كأنه واصل القاعة للتو ، مع أنه لم يفارق مقعده . فيما بعد علم أن سابقة كهذه لم تحدث خلال الاحتفالات السابقة التى تسجلها الوقائع المدونة ، كتبت صحيفة اتحادية معلقة فى اليوم التالى ، ان تناقضات العصر تعقدت وتشعبت بحيث اثرت على احتفال مهيب كان مخططا له ان يكون الأكثر فرادة ، حيث إن الجامعة ستوصف بعده بالألفية .

يميل رئيس الجامعة إلى الإمام ، صوته خفيض لكنه واضح ، يبدى الود ، يقول إنه ليس ممكنا صياغة بيان يأتى مرضيا للجميع ، لكن الاتفاق ليس مستحيلا .

يرفع الرحالة التركى يده .

يرفع ممثل السوق الأوربية المشتركة .

يتجاهل رئيس الجامعة يد الرحالة ، يرن الجرس مشيرا إلى الثانى . يتطلع الجميع إليه . انه بدين ، عمره متقدم ، عليه هيبة ، جفونه غليظة ، مسدلة ، مما أضفى عليه رخاوة ولامبالاة .

قال إنه أصغى بعناية إلى كلمة الزميل الافريقى المحترم ، بداية . يعلن اتفاقه مع الخطوط العريضة بالفقرة المقترح ادراجها ، ولكن .. يتمهل أثناء اتجاه بصره إلى الاستاذ الافريقى .

يشير بأصابعه قائلا ان ثمة ثلاثة أحوال ، فأما تقييد ، وأما تبديل ، وأما اطلاق ، فاذا قيل بالتقييد حذفت الفقرة إلى حين ، بمعنى انه يمكن اضافتها إلى النص خلال المائة عام القديمة ، أما فى المتن وأما فى الحواشى ، واذ جرى تبديل يبقى المعنى مع تغيير الصياغة ، أما إذا وقع الاتفاق على الاطلاق .. فلتبق الفقرة .

صمت لحظات ثم استمر .

إن ما يحيره حقا ذلك السطر الذى أشار إليه الزميل الفاضل ، إذ يثير علامات استفهام عديدة بما حواه من اشارة إلى الخارج والداخل ، لماذا الاصرار على بقاء الصياغة كما وردت ؟

يتطلع إلى المنصة ، نبرات صوته لا توحى بالتوقف ، لم تتغير ولم تهن ، فجأة نطق بعد لحيظات سكوت .

« شكرا .. سيدى الرئيس .. »

يرفع الرحالة التركى يده ، يبدو غاضبا إزاء تجاهله .

تلح عليه فى هذه اللحظات ملامح المغربى ، خاصة نظراته الجانبية والمعانى الغامضة فى عينيه صمته المثقل بالاحتمالات .

ينتبه الآن إلى تطلع الافريقى صوبه فى مواجهته تماما ، لم يتبادلا حوارا طويلا ، التحية وجمل عابرة ، عادية .

ترتفع أربع أياد فى القاعة ، يقول رئيس الجامعة مبتسما انه لا يدرى من طلب الكلمة أولا ؟

يشير الرحالة إلى صدره بيسراه بينما يمناه مرفوعة ، الأشقر يبرم طرف شاربه ، يومئ صوب التركى ،

اصوات تؤكد أنه ممثل أكاديمية العلوم الهندية .

تعلـو نداءات خـافتة مـن نهاية القـاعـة ، غير ان ممثل هيئـة الفيزيـاء السوفييتية تلقى الاذن بالكلام .

« شكرا .. سيدى الرئيس » .

لم يدر أحد السبب ، هل لقربـه من المنصة ؟ . أكد آخرون ان للمتغيرات الجارية فى المعسكـر الاشتراكى دخلا كبيرا . قـال البعض إنما اراد الـرئيس احتواء أمر لامثيل له من قبل . فى البدايـة أبدى مرحا لكن ردود الفعل هددت باهدار تقـاليد حوفظ عليهـا عصورا متتابعة ، أخـذ عليه كثيرون تبسطه . فيما بعد سخرت صحف البلدية من الادعاء بالحفاظ على التقاليد . انتقادات عديدة وملاحظات معادية أبديت . ما جرى فى القاعة صار موضوعا للجدل ، تخطى حدود الجامعة والمدينة والبلاد كلها ، كل حاضر أثار الأمر بعد أوبته ، اما كتابـة واما شفاهة ، كما أدلى الـرحالة التركى بتصريحات معـادية فى كل مرحلة انتهـى إليها ، رغم السماح له بالحديث قـرب نهاية الجلسة بشرط الا يتجاوز دقيقة ونصف . هاجم رئاسة الجامعة وموقفها اللامبالى من حماية البيئة وتجاهلها لافتتـاح معرض ، واصدار طابع بريـد محلى . والاعلان عن مسابقة لتصميم حول ضرورة التكاتف لانقاذ الكراكى .

كل رأى قيل بـرز له مؤيدون ومعـارضـون . ليس المشاركـون فحسب ، إنما من القوى المختلفة فى المدينة ، وفى العاصمة الاتحادية ، وفى البلدان التى ينتمى إليها المدعوون ، بل تردد الأمر فى أقطار نائية لم يمثلها أحد .

فى معظم العواصم الغربية أكـد المعلقون والمراقبون للتيارات الخفية أن اصرار ممثلى الجنوب على ايراد الفقرة بنصها إنما يعكـس جوهر الأزمة بين الشعوب المقهورة والدول الغنية المسيطرة .

أشار النـاطق بلسان البيت الأبيـض إلى دور مؤكد للمنظمات الارهـابية

خاصة العـاملة فى منطقة الشرق الأوسط ، وانتهـز الفرصة ليهاجـم منظمة التحريـر الفلسطينية مؤكـدا ان ما قدمتـه حتى الآن من تنـازلات لا يعكس الموقف المطلوب منها .

فسر البعض مقاومـة الدول الغربية للسطر القـائل بعلاقات بين الخارج والداخل ، على أسـاس الرغبة القوية فى اعـلان موقف موحـد ضد الحركات الأصـولية فى الشرق ، واشـارت وسائل الاعـلام الغـربية إلى اتفـاق الاتحاد السوفييتى مع الغرب بوضـوح وصراحة وبدون مواربة .

قيل فى المدينـة ، وفى منتديـات العاصمـة الاتحادية ، وأنـدية البليـاردو الشهيرة فيها ، ان الصراع القديم ، الكامن أيضا . فكلمة الداخل تعنى البلدية، أما الخارج فتشير إلى الجامعـة ، هذا معنى متفـق عليه ، مستقر منـذ القرن الثامن عشر ، وازداد رسوخا بعد تأسيس الـدولة ، وأصبح مفروغا منه بعد الحرب العالمية الأولى . صحيـح ان البلدية مرتبطـة باتفاقيات تـآخ مع مدن شتـى ، وعمـدتها دائم السفـر لتلبيـة الدعـوات ، ولكـن ينظـر إليهـا دائما باعتبارها من الشئون الداخلية . أما الجامعة فشهر تها عالمية ، وطلابها من جنسيات شتـى ، وعند ورود ذكرها فى أى مكـان بالعالم ، إنما يعنى كيـانا قائما بذاتـه ، حتى قيل ايهما ينسب إلى الآخر ، الجامعة الاعـرق ؟ أو الدولة القوية الأحدث ؟

هذه نقطة تمثل حد الخطر ، مناقشتها أو اثارتها علانية يتضمن محاذير شتى ، صحيح أن البلاد فيهـا أكثر من عشرين جامعة ، وفى العـاصمة كلية شهيرة لدراسة المنـاظير الضوئية ، يقصدها علماء أمـريكا واستراليا ودول الحزام الأمنى ، برغم ذلك فان سمعة الجامعة تطغى على هذا كله وتتجاوزه ، وعندما يدعى أحد اساتذتها إلى دولـة ما يجرى الاعلان عن وصوله قبل مدة

كافية ، وتنشر اعلانات عديدة عن المحاضرة التى ستلقى ومكانها ، ويجرى التنافس للحصول على دعوة ، وتتولى السفارات المجهود الأتم . باعتبار وصول الاساتذة فرصة دعاية نادرة للدولة الاتحادية خاصة منتجاتها الزراعية والصناعية . أما زيارات اساتذة الطب العاملون بالمستشفى الجامعى التاريخى ، فيجرى الاعداد لها وتجهيز الحالات المرضية قبل موعدها بخمسة أعوام .

برغم ارهاقه ، وحاجته إلى اغفاءة ما بعد الظهر . إلا أن حيوية أينعت ، ورغبة فى الاصغاء استعرت ، وان تجاهل نظرات الاستاذ الأفريقى الحاثة له على المشاركة ، فى لحظة معينة خطر له أن يرفع يده طلبا للحديث ، لكن رئيس الجامعة أعلن فى تلك اللحظة انه سوف يتحدث بصفته أستاذا للمنطق ، وليس رئيسا لهذه المؤسسة العلمية العريقة .

بالفعل .. قام ، ابتعد عن مقعده ثلاث خطوات ، أولى ظهره للمنصة ، استقبلها مرة أخرى بعد حسر غطاء رأسه ، يوجه كلماته إلى القاعة بصوت هادئ . يقول إنه يتحدث أيضا باعتباره مواطنا يعيش فى هذه المدينة الجميلة، العريقة ، ان ما يرجوه التوصل إلى حد أدنى من الاتفاق ، واستحالة التعبير عن وجهات النظر كلها أمر لا خلاف عليه ، فإذا قال نفر بابقاء السطر ، وقال آخرون بتحويره ، فيجب الا يؤدى ذلك إلى وقوع العناد ، وإذا كان الجميع قد تصافحوا فى بداية الحفل ، فما يرجوه أن يودع كل منهم الآخر بدون ضغينة .

يقف .. ما رغب قوله كأستاذ للمنطق .. انتهى . يعود الآن إلى صفته الرئاسية ، يتجه إلى الموضع الذى استدار عنده ، يرتدى غطاء الرأس . يرجع إلى مقعده .

مرتـان أخريان تخلى عـن صفته الرئاسية ، عنـدما أعلن انـه سيتحدث كأستاذ لغويات ، وأفاض فى شرح الفرق بين معنى الداخل والخارج ، لكنه لم يبد رأيه صراحة حفاظا على تقاليد موقعه ، حتى أثناء حديثه كأستاذ للمنطق فى المرة الأولى ، وللغويـات فى الثانيـة ، وبصفته زميـلا فى الأكاديميـة الطبية السويدية ، لم يعـرف أحد سبب اختياره هذا ، مع انه عضو عـامل بعدد من الأكاديميات البارزة ، ومراكز البحث الطبى المتقدمة . علل البعض ذلك بحياد السويـد كدولـة . ولمح آخرون إلى جهـوده غير المعلنة للحصـول على جائزة نوبل ، خاصة عندما قال انه سيعلـن نبأ لا علاقة له بالنقاش الجارى ، لكنه يمس كـل إنسان ، إذا تمت المرحلة الأولى مـن مشروع علمى ضخـم انجز فى تكتم ، محوره امكان تحديد الأجل الذى يمكـن للفرد من النوع الإنسانى أن يعيشـه فى هذه الحياة الدنيا .

تطلع الجميع بدهشـة ، وسمـع الجالسون الرحالة التركـى يردد بصوت خافت ان هـذا كفر وعبث ، بينما نظر إليـه الاشقر مومئا معلنـا موافقته لما تمتم به خفيه .

قال رئيس الجامعة ان الابحاث يمكن ان تبدأ عنـد اليوم السابع من مولد الطفـل ، وبعـد فحوص معينـة ، واجـراء تجارب خـاصـة ، يمكن متـابعـة وتطورات الجهـاز العصبي ، ليست الناتجة عـن تفاعلات داخليـة فحسب ، أنما تلك الناتجة عن هجوم ميكروبى خارجى نتيجة وهن ، تحديد الأمراض المتوقـع اصـابته بها ، وتغيرات الدم والأنسجة والغدد جهاز المنـاعة ، سيتم تقسيم العمر إلى مراحل ، وتحديد المرض الذى يبدأعند كل منها . وصولا إلى اللحظة التى يكتمل فيها مشروع الوجود الإنسانى !. حيث تكف الصور عن التدفـق عبر المخيلة البشرية ، وتنتهى الصـور ، وتنطفئ اللمعات المتـوارثة ، والمكتسبة ، وتفسد المخيلة إلى أبد أبيد .

قال إنه لا يؤخذ فى الاعتبار طبعا الحوادث القدرية مثل الحوادث والكوارث وبغتات الوقت الخارجة عن طوع الارادة الإنسانية .

ثم قال إنه سيتم توزيع ملفات على السادة المشاركين يتضمن كل منها تحليلات طبية أجريت بواسطة المستشفى الجامعى ، متبعة وسائل جديدة تماما لاتعتمد على أخذ عينات ، أو اجراء قياسات ، إنما تستند إلى المراقبة ، والآثار المتبقية ، هذا ما جرى طوال الأيام الماضية بدون أن يشعر أحد .. أنها مفاجأة ، لكنه يرجو أن تكون سارة .

بعد انتهائه مباشرة ، دخل القاعة ثلاثة يحملون ملفات أنيقة ، يحمل كل منها اسم عضو مشارك ، عدا اثنين ، الأشقر والرحالة ، أبدى التركى غضبه وقال إن الموقف ضد الكراكى صار سافراً ، ولكن أحد رجال الإدارة قال إن التجارب اجريت على الذين التزموا ببرنامج الاحتفال ، خاصة أماكن الإقامة، مؤكدا ان الرحالة نزل ضيفا فى استراحة البلدية ، وانه لم يكن يأتى إلى الفندق الا لتناول الوجبات الثلاث . حيث حصل على دفتر الاذونات الموزع على الجميع ، ويسمح له بدخول المطعم فى أوقات الطعام المقررة ، مع ان استراحة البلدية تتضمن مطبخا يقدم الوجبات الجاهزة !

ينقل البصر بين الرحالة الذى استنفرت ملامحه فى اتجاه الغضب ، وبين الملف الموضوع أمامه منذ ثوان .

اسمه مكتوب بحروف آلة حديثه جدا ، البعض شرع فى تقليب الأوراق ، يبدون الدهشة ، لم يقدم على فتح حلقه ، أرجأ ذلك ، لكم تخيل قدرة الإنسان على ابصار مالا يعلمه ، وسبر كنه المجهول ، وان لم يدر ، كيف ستمضى الحياة فى تلك الظروف ، عندما يعلم الإنسان انه مفارق إلى الأبد ، عند حد معين . فرق شاسع بين رحيله بعد خمس ثوان مع جهله بذلك ، وبين

عيشه مـائة عام آخـرى مع علمه انـه راحل فى لحظـة محددة ، إذا اطلع على لحظة اكتمال الدائرة وقعت الاحاطة ، إذا تماست البداية بالنهاية كان العدم ، لاراد عندئذ ولا ناجح ، المعرفة الأتم باعثه على القلق ، واحيانا .. الحيرة ، قيل قديما ، لو أطلعتم على الغيب لأخترتم الواقع .

يطيل التحـديق إلى المنصة . رئيـس الجامعة يبتسـم مرهقا ، كـأنه أراد بتوزيـع الملفات والاعـلان عن هذا المشروع العلمـى الغريـب أن يفصل بين المتناقشين إلى حين ، أو يطوى الخلاف كله .

يستدعـى إلى ذهنه ، أو تتوارد عليـه لحظات تجواله فى ممـرات الحصن المشيد ، صحبة البـاسقة ، تقدمها بخطـو واثق ، ما البنيان كلـه إلا محاولة تقترب فى جوهرها من هذا المشروع ، درء خطر الموت ، اكتشاف أبعاده ، وان اختلفت الوسيلة وتباينت المقاييس .

فى لحظة معينة أقدم على المشاركة ، طوال الساعات المنقضية تتبع النقاش لاغير ، مضمرا رأيه فى هذه الحجة أو تلك ، بعد اتضاح طرفى الخلاف ، مرات عديـدة تطلع إليه الأستاذ الأفـريقى ، حاثـا أياه على المشاركة ، بـاعتبارهما يمتان إلى قارة واحـدة .. ربما ! ، أحد الأسباب المؤكدة كراهيـة مفاجئة تجاه الأشقر ، لم يكف عن برم شاربه خفيف الشعيرات .

طرح لامبالاته جـانبا ، وسـخريته من احتدام الجدل حـول معنى السطر الذى تركـز الخلاف حوله ، بل أوشك على كتـابة ورقة يطلب مـن الأفريقى الملاينة ، فالتاريخ لن يتوقف ، والواقع لن يتبدل ، نتيجة ترتيب كلمة الخارج والداخل ، عليه الانتباه إلى تبدل المعنـى عند ترجمة الجملة إلى لغات أخرى ، سيصبح الخارج داخلا ، والداخل خارجا .

هكذا .. فى لحظة معينة ، رفع يده ، وبعد سماعه الجرس ، نطق : « شكرا.. سيدى الرئيس » ..

يحرص على ضبط نبرات صوته ، خروجها متسقة ، هادئة ، متناغمة ، مع تصعيد بطيء .

يقول إنه سيوضح هدفه مباشرة ، اذ يرى ضرورة الابقاء على الفقرة كاملة بالصيغة التى طرحت بها صباح اليوم قبل بدء الاجتماع الختامى ، واستبعاد أى احتمال للمساومة ، وبالتالى ابقاء عبارة ـ الخارج والداخل ـ كما هى .

يتوقف لحظات .

الأشقر يعبث بشاربه فى عصبية وحدة ، هنا يقرر تصعيد حدة لهجته حتى يزيد توتره . يشير بأصبعه ، يمعن فى ايراد التفاصيل ، الأثار المترتبة على الموقف المضاد ، تأثير ذلك على العلاقات الودية ، تأويل المواقف بين الظاهر والباطن . بين مفارقات الوقت ، ومتضادات الفهم ، ينحى باللائمة على ممثل الأكاديمية السوفييتية ، يقول ما تحرج الأفريقى من نطقه . يلمح إلى زمن قريب كانت فيه المنظومة الا شتراكية تناصر أحلام الشعوب المستضعفة وتؤازرها .. هنا يرفع العضو السوفييتى يده محتجا . لكن رئيس الجامعة يسمح باستمرار الحديث ، فيمعن فى شرح مضار حذف الفقرة ؛ أو تغيير الجملة ، ومحاسن الجمع بينها وبين البيان .

«شكرا .. سيدى الرئيس » ..

بعد توقفه ، ساد سكون ، يحاول السفير السابق أن يتوارى بحضورة ، الابقاء على ملامحه محايدة ، أما الرحالة التركى فيتبادل نظرات حادة ، سريعة مع الأشقر .

كما أدرك فيما بعد ، كان الموقف كله معلقا بنطقه فطبقا للتقاليد لابد أن يتكلم الجميع ، إذا لزم شخص واحد الصمت يستمر النقاش حتى شروعه .

يومئ الأستاذ الأفريقى راضيا ، مبتسما ، ممتنا ، استاذة مغربية تفارق مقعدها ، أنها دقيقة الحجم ، منمنمة الملامح ، تقترب منه ، تميل عليه ، تحييه بحرارة ، تهمس قـائلة أنها تعجبت من صمتـه مع ألمامها بمواقفـه القديمة ، لكن بعد نطقـه تدرك الآن أن كمونه تضمـن قدرا من الحذق والصيانـة ، أما هدوءه البادى فيخفى تأججا ، حقا .. أنها تحييه .

تميل ، تقبله مرتين .

يدركه خجـل ، يود أن يسـألها عما إذا كانـت تعرف المغربى المقيـم ، لكنه أحجم ، فى عينيهـا شروع فى قربـى ومودة ، الا أن دافعـا عنده لم يتحـرك ، وحافزا لديـه لم ينبض ، ربما لانشغاله باختفاء البـاسقة ، أو . لفتوره وبدء انزوائه ، تراجعه إلى منطقـة اللامبالاة التى بدأت عنده منـذ سنوات قريبة ، اثر توالى الخيبات العظمى ، وتكاثف الركود ، وتحلل العناصر ، حتى انه يسر كثيرا ويسرى عنـده ابتهـاج دفين ، لأنه لم يقـض فى الحرب زمـن اشتراكـه واقدامـه غير هياب ، غير مبال بـالخطر ، بمـواجهة الموت من أجـل معنى أو قضية . غير ان الأحوال مضت بعكس ماقدر لها ، أصعب ما عرفه ، ما عاناه ، وأضنى مرقده ، وقوع النفار بينه كفرد ، وبين اتجاه خاطئ لمجريات كبرى ، مع إدراكه الأتـم لمكامن الخطر ، وقلـة حيلته ، ومحدودية تاثيره . هـذا وعر صعب ، يدركه الكمد إذا شرع التفكير فيه ، كل استعـادة لموقف قديم دنا فيه من الخطر بمثابة مردعة له عـن تكرار ذلك . يدرك الآن ان حديثه بعد صمت كان محاولة للثأر من شجون طال تراكمها .

يسعـى إليـه الأستاذ الأفـريقـى ، ممثلـو الـدول الجنوبيـة ، وحـوض الكاريبى، أقطـار الانديز ، جنوب شرق آسيا ، يسعى إلى الانفـراد فى غرفته ، منبتا عنهم، مـع أنهم تطلعوا إليه حائرين ، متعجبين مـن صمته المكين الذى تفجر عن حسم لم يتوقعه أحد ، ولم يدر بذهن ..

اللحظة وتداعياتها ..

.. عند استعادتها مرغما ، لايمكنه تحديد ما قبلها أو بعدها حتى لتبدو منفصلة عن كل سياق . منفصلة ، منقطعة ، منتظمة ، تلك لحظات تمثل علامات فارقة ، لا تنسى ولا تمحى ، تؤطر ما قبلها وتحدد ما بعدها ، تشطر الوقت والخطة وتقلب المشروع .

بعد يقينه من حلولها . من اكتمالها ، بدأ هبوط عنده حتى أقعى .

بدت ملامحه موسومة بالواقعة ، ثمة غامض ، خفى ، لا يبين ، يغادره إلى الأبد ، وطارئ مجهول لم يعهده يحل به ، اذن .. وقع ما خشيه دائما ، ما احتاط منه ، ما أقصاه بالمخيلة حتى عن هواجسه ، لكنه يعود ليبحث من جديد ، ربما فات بصره ، يحدث أحيانا أن تغيب عن دائرته أشياء محط عناية قصوى ، مع أنها قائمة ، ماثلة ، لكن فرط الاهتمام يحجبها وهى ف المتناول.

يرتب محتويات الحقيبة ، يتطلع هنا .. هناك ، ينفض الأغطية ، يدور مطلا على الزوايا والأركان ، يقف متوسطا الحجرة مثقلا بالسقف والجدران المتقاربة ، وسكون الجماد ، وانتفاء الصديق .

يبذل محاولة للثبات ، لاستيعاب ما جرى ، لاستعادة التفاصيل ، لبدء تصرف أمثل يمكنه من تجاوز المحنة .

عبثا يحاول استعـادة آخر لحظة وقعـت عيناه عليـه ، بالتأكيـد كان فى حقيبتـه عندمـا اطلعت عليـه الباسقـة فى المطعـم العتيق ، بعـد أن تأملتـه ، ودهشت لكثرة التأشيرات إعادته إليه مرة أخرى ، نعم .. هذا مؤكد .

ما تلا ذلك ؟

لا يعرف ، لا يدرى ، يصعب عليه استعادة مـا كان ، مع أن الوقت دان ، واللحظات لم تنأ بعد ، يمنعه من استعادتها ، من تدقيق تفاصيلها ، شىء لم يقدر على تحديده بالضبط ، كأنه يلغى كل القسمات ، يجتهد ، يسعى ..

لسبب ما تلح عليه قسمات ابيه الراحل منذ عشرين عاما ، إذ يتذكره يرى ملامحه الباقية فى الصور المعلقـة فى البيت ، أو التى يحتفظ بها بين أوراقه ، صور ملتقطـة خلال الأعوام الأخيرة من حيـاته ، لايستعيد حضـوره الذى كان ، لمحات ، شـذرات هنا ، هناك ، لكن تعجـز ذاكرته عن اقتنـاص موقف يطول أكثر من دقيقة واحدة عبر حياة امتـدت أكثر من سبعين عاما ، عايشة وأحتمى به وسعى إليـه أكثر من ثلاثين ، وعندما قضـى فجأة فراه الأسـى ، لكنه الآن عاجز عن التشبث بملمح ولو عابرا .

هل وهنت الصلة ؟

هل تقطعت الأسباب ؟

أو يمعن فى الايغال نأيا عن الأصول ؟

لماذا يلمح عليه أبوه المندثر الآن ؟، ألفقدانه الهوية؟

بالقطع ، لم تفارقه الحقيبة فى القاعـة . أحد المشاركين هندى ، تطلع إليه كأنه يتساءل عن جدوى حمل الحقيبـة خلال لحظة يفارق فيها المكان ، إلا يعنى اعلانا منه بعدم الثقة فى الآخرين ؟ لكنه فكر وقتئذ ، عليه ألا يعبأ .. أن يلازم أوراقه . هل كان الجواز داخل الحقيبة عندئذ ؟

لايمكنه القطع ، صعب الجزم ، هنا يبدأ الشك ، يجتهد فى وقف اضطرابه، تخلخله ، تهمى عليه صور نائية لا تمت إلى ما يجتازه بصلة .

رجل يجلس القرفصاء فوق جسر قريب من قريته ، ناصية حارة قديمة ، مصباح قديم يرسل ضوءا واهنا متعبا ، نزول مطر ، رائحة تدفق مياه فى جدول إلى أرض زراعية ، خطى أقدام فى شارع مزدحم ليلة عيد ، فتاة تتطلع إليه ، انفها رومانى ، ملامحها غلامية ، لكن قدها شرقى الأنوثة فى تكوينه وتأوده ، شخص ما يقول ان كل إنسان ينتج زمنه الخاص ، عليه أن يوجه وقته ، يقف فى مكان ما ، ميدان قديم ، لم يستطع تحديده ، ينتظر العبور إلى الناحية الأخرى .

إلى أين ؟

لا يدرى !

كل ما يتعاقب على ذهنه يرتبط بأبيه ، حضوره ، سعيه ، يحاول اقصاء الواردات الغريبة ، لا يدرى مصادرها أو بواعثها ، يبدو أن ذلك كان ضروريا ليفصل بين لحظة اكتشاف ضياع هويته ، وبين محاولته ترتيب ردود أفعاله ، ومواجهة الآنى والآتى ، بل يتجاوز حالة حيادية كأن ما جرى وقع لغيره ، لا يخصه .

يفارق غرفته بعد تيقنه الفقد ، يجتاز الممر صوب المصعد ، منتبها إلى الرائحة الفندقية المتكررة فى أسفاره ، رائحة مفروشات ، وأثاث واصداء ، وطعام ، وأسرار شتى .

يتجه إلى موظف الاستقبال ، باختصار شديد يقول انه فقد جواز سفره ، وبطاقة الطائرة .. ما يريده ، اتخاذ الاجراءات القانونية. موظف لم يره من قبل ، شاب ، هادئ ، مهذب ، دبلوماسى الملامح ، يتساءل بثبات عما إذا كان يتهم شخصا من العاملين بالفندق ؟.

يقول انه لا يعرف بالضبط ، لكن هناك اجراءات معينة يجب اتخاذها ، ثم ان الوقت المتاح له مجرد ساعات .

يتطلع إليه متسائلا عن اسمه ؟

ينطق مجيبا بالنص الثلا ثى الكامل .

ينظر إليه متمعنا ، كأنه يستوثق أمرا ما ، يضغط أزرار الحاسب الآلى ، حركاته بطيئة ، وجهه كأنه قد من شمع ، يفكر .. هذا الشخص الذى لا يعرفه ، سيمضى بعد انتهاء عمله إلى بيته ، إلى صاحبته ، إلى امرأته ، إلى ركنه المفضل ، إلى مدينته ، مكانه ، حيزه ، سترته ، غطاؤه ، أما الاغتراب فعورة، تجريد من كل واق ، يرفع عينيه تجاهه ، يتساءل :

ـ أنت ضيف الجامعة ؟

يومئ ، يتابع ..

ـ ضيافتك تنتهى غدا ، يجب تسليم الغرفة قبل الثانية عشرة ..

كأنه لم يصغ ، لم يدرك ، لم يفهم ، كل ما يعنيه حد الاقامة ، يعيد ما قاله، يؤكد على ضرورة بدء الاجراءات المتبعة حتى يمكنه الاتصال بسفارة بلاده فى العاصمة الاتحادية .

يجيبه باقتضاب ، ان الخطوة الأولى ، ابلاغ الشرطة ، الرقم .. فى الدليل .

يصغى إلى صوت غليظ ، بمجرد اصغائه إليه قال : « أهلا » كأنه يتوقعه أو ينتظره ، يقول ان مثل هذه الحالات مسئولية القسم الخاص ، مواعيده صباحية فقط .

يقول إنه مسافر غدا .

تكة صغيرة تعنى اغلاق الخط .

فى قـاعـة الطعام يلمـح استـاذا جـامعيـا ، نشطـا ، قيل عنـه انـه مـن الشخصيات الهامـة التى تلعـب دورا وسطا بين البلـدية والجامعـة بهدف تهدئة الأمـور واحتـواء الأزمات ، تـردد أنـه مهـدد بـالاغتيال مـن احـدى الجماعات الارهابية المتطرفة العاملة بالمدينة ، بسبب آراء يرددها أثناء القائه محاضراته ، لم يفصل احد طبيعة هذه الآراء .

يصغى صامتا ، يجيب بكلمة واحدة .

« مشكلة » ..

ينصح بالذهاب إلى القسم الخاص صباح اليوم التالى ، انه الاجراء الوحيد الذى يعلمه ، تلك حادثة غير مسبوقة ، لكنها ..

« مشكلة » ..

يعود إلى غـرفته ، يتصـل بعاملة البـدالة ، يملى عليهـا الرقـم ، يقول ان صديقـا مغربيا كتبه ، وانـه يقيم فى المدينة ، تؤكـد العاملة ان هذا الـرقم لا يوجد فى سائر الولايات ، العاصمة الاتحاديـة خلو منه تماما ، لابد انه فى بلد آخر.

إذن .. فى الأمر شىء ، لكنـه يعى تماما اللحظات التى أملى المغـربى فيها ارقـام الهاتف ، لم يخطـئ كتابتهـا ، يحاول اقصاء مـلامحه الملحة عليـه ، غموض ابتسامته ، يفتـش ملابسه من جديد ، محتـويات الحقيبة ، متمنيا ، راجيا ، بزوغ اللون الأخضر للغلاف وحافة البطاقة مطلة منه ، يدركه نصب، يجلس إلى حافة الفـراش مكتمل الوعى بالفقد ، بالانقطـاع ، بوقوع العثرة .. يردد بصوت مرتفع .

« اين سأكون غدا ، مثل هذه اللحظة تماما ؟؟.. »

مفتتح إجرائى ..

.. أدلج فى النعاس بيسر ، بسرعة رحل من اليقظة إلى النوم ، عكس لياليه المماثلة السابقة على سفره ، يذكر أرقه ، انتفاء هجوعه ، جلوسه فى الفراش يأسا وانتظارا لانبلاج الصبح .

الليلة .. اختلف الأمر. نوم كمد أوغل فيه كالهرب .

لم يتناول افطاره ، مباشرة .. إلى القسم الخاص ، الإدارة من الشرطة التى يقع مقرها فى مبنى البلدية ، المدخل من الباب الجانبى ناحية الغرب ، أطلت نذر وضعه الجديد ، عندما طالبه موظف الاستعلامات بما يثبت هويته .

يقول انه جاء ليبلغ عن فقد جوازه ، الأمر عاجل ، ساعات قليلة جدا تفصله عن موعد سفره .

يردد الموظف كلمة واحدة ، بلهجة مقاربة للاستاذ الجامعى عندما لفظ كلمة واحدة .

« مشكلة .. » .

استفسر عما إذا كان لديه أى اثبات للهوية ، أى بطاقة محلية حتى ؟ . عضوية نقابية ، رخصة مرور ، اشتراك نادى .. أى ورقة عليها اسمه وصورته .

عند سفره يكتفى بجواز سفره ، لا يحتاج شيئا من هذا ، يطلب منه الانتظار ، يرفع سماعة الهاتف ، يدير رقمين فقط ، من الصعب الاصغاء ، ليس لنطقه اللهجة المحلية الصعبة ، إنما لقدرته على الهمس ،، يعجب .. كيف

يمكن سماع صوته عند الطرف الآخر ؟، هذا مخالف لخصاله ، يتحدث دائما بصوت مرتفع حتى ليسمعه من يقف على مسافة ، ينتهى الموظف ، لا ينظر إليه ، يراجع أوراقا ما ، ثمة رائحة مجهولة المصدر ، مرتبطة بالمكان ، تشبه فراغ المستشفيات ، مطهرات ، محاليل ، طلاء الجدران الأبيض ، لكنه هنا رمادى ، قاتم ، يقف فى مواجهة عجوز ، لابد انه أحيل إلى التقاعد منذ زمن ، من اين جاء ؟ ، كيف ظهر فجأة ، ملامحه موصدة ، يشير إليه موظف الاستعلامات أن يتبعه .

عجوز صامت ، بين الحين والآخر يتطلع ، يومئ ، الأبواب على الجانبين مغلقة .

يوما أرسلوا فى استدعائه ، حددوا الوقت والمكان ، مبنى إدارة المباحث العامة ، قرب ميدان لاظوغلى ، عمارة قديمة ، مستطيلة النوافذ ، كابية الظلال، كل العاملين يرتدون الملابس المدنية ، غير ان شيئا ما لايبين يوحى بهيئتهم الوظيفية ، فجأة .. عند منحنى أحد الممرات ظهر اثنان منهما ، يمسكان شخصا معصوب العينين ، موثق اليدين من خلف ، يتعمدان دفعه فى اتجاه الجدران ، بعد اصطدامه ، أثر تحقق البغتة يعيدان وجهته صوب الفراغ ، يأمرانه بجفوة أن يمشى ، ألايتوقف ، يمضى رافعا رأسه شأن من لا قدرة لهم على الابصار ، حقا .. لماذا يرفع المكفوفون رءوسهم دائما ؟

لايدرى .. لكنه جفل يومها ، رؤية القهر أصعب من وقوعه ، سماع الانين أوعر من صدوره .

كل خطوة يتوقع فتح أحد الأبواب ، أن يصدر صراخ ما ، أن يبدو شخص موثق ، لكن .. لم يحدث شىء ، وان جثم حضور المبنى عليه . فى المواجهة ساعة قديمة ذات بندول ، لم يتبق على موعد القطار سوى ثلاث ساعات

وعشر دقائق ، بدأ سفر المشاركين منذ السادسة صباحا ، حتى الثانية عشرة لن يتبقى واحد منهم ، يعى وضعه لحظة اثر الأخرى ، أمام غرفة مغلقة ، يفتح الباب .

ضابط شرطة أو موظف مدنى ؟

لا يدرى ، لم يستفسر ، لا محل لذلك ، بعد اصغائه إلى ما قال ، امسك قلما من رصاص ، دون ملاحظات ما ، سأل عن الاسم الرباعى وليس الثلاثى ، عن جهة الميلاد ، محل الاقامة الدائم ، الجهة التى يعمل بها ، تاريخ دخوله البلاد ، اسم شركة الطيران الناقلة ، البلاد التى زارها خلال السنة الأخيرة فقط ، حالته الاجتماعية ، رقم الجواز .. جهة اصداره ، وتاريخه .

يحفظ البيانات كلها عدا تاريخ الاصدار هذا ، لم يكن واثقا ، السادس والعشرين أو السابع والعشرين ؟. أبدى ترددا ، فطلب منه أن يستوثق ، أى خطأ ضار جدا .

لم يفصح عن ضيقة وتحفظه من طريقة توجيه الأسئلة ، كأنه موضع اتهام ما ، آثر ألا يجزم .

ـ إذن .. لا تعرف ..

ـ نعم ..

يستفسر عن وسيلة وصوله إلى المدينة ، ما موعد القطار ، القيام ، الوصول ، أى درجة استقل ؟ هل تحدث إلى شخص ما أثناء الرحلة ؟ كيف انتقل من المحطة إلى الفندق ، هل يذكر رقم عربة الأجرة ؟

ـ لكن الجواز كان معى بعد وصولى ..

بجفاء يقول إنه يطلب الاجابة بدون تعليق ، السؤال الذى قد يبدو له بلا معنى ، ربما يكون هاما جدا بالنسبة للاجراءات ، ان كل النقاط لم تحدد

عبثا ، بعد لحظات قال إنه غير ملزم بتقديم مثل هذا الايضاح لكنه يقدر ظرفه .

ـ إذن .. لم تأت هنا من قبل ؟

قال انه لم يزر المدينة إلا هذه المرة ، لكنه عبر مطار العاصمة منذ سبع سنوات ، لم يخرج من المطار .

سأل عن علاقته بالجامعة ، كيف بدأت ؟ متى ؟

يصغى باهتمام إلى اسم زميله الذى لم يحضر بسبب مرضه المفاجئ ، يستفسر عنه ، هل يتشابه تخصصهما ؟ لماذا تم اختياره هو بالذات ؟ هل وصلته دعوة بديلة ؟ كيف ؟ بالبريد العادى أو المسجل ؟ أو البرق ؟ ، هل تربطه علاقات شخصية بأحد الاساتذة ، خلال اقامته فى المدينة .. بمن التقى ؟

يتطلع إلى رقم الهاتف الذى أملاه عليه المغربى ، يقول باختصار ان مثل هذا لا يوجد ، يطلب ذكر أوصاف المغربى ، خاصة طوله ، يسأله عما إذا كان مارس الحب مع الباسقة عند زيارتها فى البيت ؟

يطلب منه التأنى والتدقيق .

يكف ، يتوقف عن الإجابة ، يردد ضرورة سفره اليوم ، المشكلة ليست بطاقة الطائرة ، معه ما يكفى للسداد مقابل أخرى جديدة ، لكن الجواز لب المشكلة ، لابد من اجراء بلاغ رسمى ، والحصول على صورة معتمدة لتقديمها إلى السفارة فى العاصمة الاتحادية ، بعد الاعلان عن الفقد فى احدى الصحف المحلية ، ثم يمر أسبوعان ، فاذا لم يظهر مردود ، يحق له استخراج وثيقة سفر مؤقتة ، قال إنه يعرف الترتيبات لخبرته السابقة فى السفر ، لو امكنه الحصول على صورة المحضر الرسمى اليوم يمكنه اختصار الوقت ،

سيتوجه مباشرة إلى السفــارة ، لعلهم يبدون مساعدة خاصــة بعد اطلاعهم على مركزه العلمى .

يرفع الموظف أو الضابط ـ لا يدرى ـ عينيه ، فيهما سخرية ؟

ـ كيف سيعرفون موقعك وانت بدون أوراق ؟

يقول انه ربما التقى بمن يعرفه ، ان الصحف تنشر عنه احيانا .

يهز رأسه ، يقول ان الأمر ليس بهذه البساطة ، ثمة اجراءات عديدة حتى إذا ظهر الجواز الآن فوق هذه المنضدة .

يفتح الباب ، يلتفـت ، يراه مغلقا ، سمع فتحه .. هذا مـؤكد ، باب أم لا؟، لكنه احجم ، خاصة عندما قال بتأن رسمى .

ـ نحتاج وقتا ، السفر ومغادرة المدينة اليوم إلى أى جهة أمر مستحيل ..

مــا طبيعة الاجـراءات التى يجب اتبــاعها فى حــالة العثـور على الجواز ؟

يجيب بلهجة رسمية ، محايدة ، انها مسئولية القسم ، المهم أن يتجه مباشرة إلى إدارة الجامعة ، أن يستخرج منها خطابا رسميــا يثبت انه كان مدعواً إلى المهرجان أو الحفل كما يطلقون عليه .

هــذا الخطــاب ســوف يثبـت للشرطة أهــم نقطـة الآن ، شخصــه الــذى لايعرفون عنه شيئا ..

عــود غير مرغــوب

إلى من ؟

إلى من يتجه بالضبط ؟

يمشى مسرعا ، مقر الجامعة غير بعيد ، إلى درجة ما .. يعرف الآن المعالم الرئيسيـة ، ما يـرجوه ألا تتبـدل ، الا تختفى ، الا تتغير مـواقعها ، يعجـب للخاطر ، لكنه يوقن الآن ما من شـىء ثابت هنا ، مامن أمر مؤكد .

يبدأ عنده حـذر ، وخشية ، أن يقع له ضرر أثناء عبور الطـريق ، أن يفقد وعيه فجأة ، كيف يستدلون عليه ؟

يبتعد إذا حـاذى أحد المارة ، يتجنب النظـر إلى العيون خوفـا من تحرش مفـاجئ لا يـدرى مداه ، يسعـى عبر هامـش غير مرئى يحيـط به نفسـه . مصدرهـا ، من الفنـدق أو الجامعة ؟، لا يهم ..، يكتـب سطورا معـدودات . اسمه ، وظيفتـه ، كيفية فقده الهويـة ، عنوانـه فى القاهرة ، رجـاء الاتصال بسفارة البلاد فى العاصمة الاتحادية .

يضعها فى جيبـه ، يتذكـر الأطفال الصغـار ، الفقراء ، المتخلفين عقليـا ، الحفاة ، فـوق ثيابهم سطور بخطوط غليظـة توضح الاسـم والعنوان ، يهز رأسه تـأسفا وحسرة ، لكنه سرعـان ما يخفـى انفعالاته ، ربما لمحهـا من لا يعرفه فيفسرها بما لا يدريـه ، أبواب الاحتمالات لا حصر لها الآن ، انه واثق من سماع صـوت الباب فى غرفة التحقيـق الكابية ، كيف جـرى ذلك ؟ ، ألم

يحذره المغربي من عصابات المافيا ، تخصص بعضها فى سرقة الجوازات لاستخدامها فى أهداف شتى . لكن أين هو ؟ لماذا أعطاه رقما غير حقيقى ؟ ، هل قابله فعلا ؟

يبدو السور الخارجي فيشتد كمده ، لم يتوقع أمس العودة مرة أخرى ، وفى مثل هذا الظرف ، حتى الأمس كان ضيفا يقابل بترحيب ، يصغى إليه إذا طلب ، يهتمون به إذا سعى ، الآن .. يخشى الفراغ المحيط به ، انه مجرد ، مكشوف ، مهدد بما يجهله ، بما لا يدرى كنهه ، عرضة للفقد النهائى ، بلا وسم ،بلا رسم ، أما اسمه فلا دلالة له ،

الحادية عشر .

ساعة وتحل لحظة مغادرته الفندق . حقيبته فى الغرفة ، مهيأة مغلقة ، توحى لمن يراها بتأهبه ، مع اقترابه من مبنى الإدارة يتهيأ للحظات محورية .

يبدو عسر الأمر منذ البداية .

عند البوابة الخارجية أوقفه الحرس الجامعى . ثمة خط فاصل بين الباب والطريق ، غير مسموح بتجاوزه رغم تراص البراميل الحمراء على جانبى الشارع حتى الناصية بما يعنى تبعيته للجامعة ، لكن خروج الحرس الجامعى من البوابات فى الزى الرسمى من الأمور التى لا يمكن التهاون فيها، كذلك دخول شرطة البلدية إلى الحرم الجامعى .

بعد جدل لم يستمر طويلا ، تساءل الحارس ، الضيوف رحلوا والمؤتمر انتهى .. لماذا بقى إذن ؟ كيف يتأكد من شخصه إذا لم يكن لديه ما يثبت شخصيته .

قبل الحارس دخوله إلى الحجرة الخشبية المجاورة للباب . يتطلع إلى الساعة ، القطار تحرك الآن ، فارق رصيف المحطة ، بطلت بطاقة العودة إذن.. البقاء محتوم ، كيف .. أين ؟

هذا مالا يدريه حتى الآن .

يدخل رجل مهيب ، يرتدى الزى العادى للجامعيين ، فوق العباءة شريط أحمر صغير ، يعنى هـذا انه من رجال الإدارة . انـه مسئول عن نشـاط ما ، يبدو وكأنّه يرتدى قناعا ، ملامحه الحقيقية مستترة ، أما استفساراته فأشد حدة من رجل الشرطة الذى استجوبه .

مرة أخرى ، روى كل التفاصيل .

سأل الجامعى عـن أول خطوة قام بها عند اكتشافـه فقدان الهوية ؟، إلى من توجه ؟ من أبلغ ؟، اذن .. مـن دله على مقر القسم الخاص ؟ من استقبله هناك ؟ هـل يمكن أن يصفه بـدقة ؟ كيف عومـل ؟ ما الأسئلة التـى وجهت إليه؟.

أجـاب بهدوء ، لم يبـد اعتراضـا ، لا بالملامـح ولا بـالنظـر ، ولابنغمات الصوت أو درجاته حتى !

يعود إلى الا ستفســار عن الشخـص الذى وجـه الاسئلة ، يطلـب منه أن يتذكر بدقة ، هل كان يـرتدى رباط عنق أم لا ؟ حاول أن يستعيد اللحظات ، بكل ذهنه ، لا يدرى ، لا يمكنه الجزم .

منذ أعوام بعيـدة سخر أحد طلبته من سـؤال أدرج فى اختبارات القبول المبدئى حول تمثال رمسيس الثانى ، أى قدم إلى الامام ؟ اليمنى أو اليسرى ؟

رغم مروره اليومى بالميدان ، ورؤيته التمثال إلا انه عجز تماما ، قال إنه رآه بمخيلتـه متقدمـا باليمنـى ، ومرة بـاليسرى ، أكـد الطالـب أن اجابتـه الصحيحة كانت مصـادفة .

لكن .. الآن فى المجازفة مخاطرة ، انه حريص على الاجابة بدقة مهما بلغت غرابة السؤال ، يؤكد الجامعى أهمية هذه النقطة بالذات ، ليحاول ..

يهز رأسه ، قـامعا رغبتـه فى السؤال عـن ضرورة مثل هـذا الاستفسار السخيف ، يصمت ، بينما يستمر الرجل متوجها إليه بسؤال مباشر .

هل تربطه أى علاقة بأحد رجال البلدية ؟

ينفى .

هل تعرف إلى أحدهم أثناء اقامته المحدودة هنا ؟

مؤكد ان ذلك لم يقع .

هنا يسدد سؤالا بلهجة محقق ، مدقق ، مستريب .

ـ اذن .. لماذا توجهت إلى البلدية ؟

مـوظف الفنـدق ، سأل عما يجب أن يفعلـه ، نصحـه وذكر الاجـراءات المتبعة، يمط الجامعى شفتيه ، يقلب بين أصابعـه قلما من طراز قديم ، يؤكد تعقد الأمر . يرتفع صوته فجأة محتدا ..

ـ من استضافك هنا فى هذه المدينة ؟

ـ الجامعة ..

يبسط يديه فى اشارة مبهمة .

ـ إذن .. كان يجب ان تجىء إلينا أولا ..

يوشك على تبرير وشرح ، لكن الرجل يرفع يده طالبا الكف ، الموقف تعقد الآن ، لا يوجد بين المسئولين الآن من يمكنه البت فى موضوع كهذا ، أو منحه تلك الورقة التى تطلبها شرطة البلدية .

يتمهل لحظات ، يرقق لهجته ، انه متفهم تماما للموقف الحرج ، لكن أهم شىء الآن ـــ بعد أن أصبـح الموقف بين يـدى البلديـة ـ الأوراق . مـا يثبت شخصيته أمام الشرطة، فى المطار ، ليس هنا فقط ، إنما فى بلاده أيضا .

ـ راجعوا البطاقة التى أعدت لى هنا وعلقتها إلى صدرى ..

يقـول ان جميع البطـاقـات التى تـم جمعها أمـس عقـب انتهاء الحفـل الختامى وضعت فى صندوق متين ، لن يفتح قبل مائة سنة ، لإعلان اسماء من حضروا وعرضهـا فى لوحة خاصـة ، كذلك وثائق الحفـل كلها ، نقلت إلى المخزن التاريخى ، تلك ترتيبات لا يمكـن ايقافها أو تعطيلها أو المساس بها ، الأمر متصل بتقاليـد أقدم من أى حضور هنا ، بشريا كـان ، أو عمرانيا ، أو اجتماعيا . هنـاك محاولات قديمة ، قويـة ، من جانب بعـض الجهات لخرق التقاليد الجامعية بشكل مباشر أو غير مباشر ، أو احداث أى تراجع .

البعض يتساءل ، وماذا لو تغير هذا الترتيـب الضئيل ؟، لكن أقل تنازل سوف يؤدى إلى ماهـو أفدح ، بل ربما وصل الأمر إلى نفى وجـود الفلاسفة الأربعين .

ـ أنا لست فى موقع يمكننى أن اعدك باجراء ما ..

يتطلع إليه بثبات ، يتخلى تقريبا عن لهجته شبه الرسمية .

ـ اننى مدرك وضعك ، بل اننى مشفـق عليك ، اننى الاحظك منذ وصولك وبداية مشاركتك ، حيرنا صمتك ، وانهماكك فى رسم اشكال غامضة ، حيرت الآخرين حتـى تهامس البعض حول سلبيتـك ، ثم فوجئوا بمـوقفك النهائى الذى حسم الموقف ، هذا كله أثار تساؤلات حولك ..

يـلاحظ الآن اطيـاف شبه فى مـلامحه بموظـف ـــ أو ضابـط ـ القسـم الخاص، طولهما متقارب ، نحافتهما متوازيـة ، ايقاع الكلمات ، حدة الأنف ، طريقة الكف عن الحديث فجأة .

يستعيد ما عرفه عن خصائص جثمانية تميز رجال الجامعة عن غيرهم ، من ذلك تثاقل حركتهم بعد سنـوات معدودات من التدريس ، خاصة التمهل عند النطق ، ورفع أحد الحاجبين أحيانا ، أو هز الرأس أثناء الاصغاء ، وبعد

تنصيب رئيس الجامعة وعمداء الكليات لا تظهـر الابتسامة على وجوههم إلا نادرا ، أمـا كبار المسئولين فى البلديـة فان احمرارا خفيفا يكسو وجـوههم ، يتزايـد مع الايغال فى المناصـب ، وطول المكث بها ، كما تظهـر على معظمهم أعراض البـدانة ، من بروز بطـن ، وغلظ رقبة ، وظهور ثنيـات بها ، وارتفاع صوت التنفس عند الحديث ، يؤكد الجميـع انها علامات فارقة ، ولكن الشبه مؤكد بين هذا الرجل وموظف البلدية .

ـ فى حـالة العثـور على أى اوراق تخصك ، لابـد من اثبـات العلاقـة بين الكينونة المادية ، وتلك الأوراق ..

إن ضيقا يجثم عليـه ، يقول ان سوء الحظ القى به هنـا ، لو أن زميله لم يمرض لما جاء أصلا ، ولكـن هذا أمر يخصه هو ، ما يجب مراعـاته انه جاء ضيفا على الجامعـة ، اذن .. هناك مسئـولية اخلاقيـة وقانـونية عنـه حتى مغادرة المدينـة حتى سفـره من العـاصمة ، لقـد تكبد مشـاق الرحلـة رغم تضعضـع صمته و ..

يقاطعه بحدة .

ـ الجامعة مسئولة عمن ؟

يقول باختصار .

ـ عنى ..

تتشابك أصابع يديه

ـ أنت من ؟

يردد بتأن اسمه الثلاثى ، مسبوقا باللقب العلمى ، متبوعا بالمركز الذى يحتله .

يخبط الرجل المائدة بقبضـة يده ، تدنو ملامحه تماما من موظف البلدية ،

بل ان الرائحة المنبعثة بالحجرة تعيد إليه فراغ المكان الآخر .

ـ اثبت لنا ذلك ..

ـ ماذا أثبت ؟

ـ انك أنت من دعوناه ..

يتطلع مباغتا ، مفاجئا .. يؤكد الجامعى .

ـ نعم .. أثبت لنا أنك أنت .. أنت ..

تضعضعـــات يقينيــة

.. يخرج من البوابة ذاتها ، هل الأشجار فى أمـاكنها ؟، هل ضاق الطريق الممتد ؟، البراميل الحمراء قائمة ، لكن المسافات الفاصلة أوسع ، ما من شىء يقينى هنا ، ربما ينظـر إلى بناء شاخص أمام عينيه ، يحيـد عنه لحظات ، إذ يعاود الرؤية تتغير الموجودات .

يسأل نفسه معابثا .

« أحقا أنا .. أنا » ..

يمضى حـذرا ، شاكا فى أمـره ، على خشية من ارتكـاب خطأ مايعـرضه للاحتكاك بـالآخرين ، انه فى حاجة إلى الهدوء ، إلى الاتـزان . إلى المساعدة .. ، هل أدركه اليأس تماما من لقاء المغربى ؟، لماذا لا يبذل المحاولة ؟، الم يحدثه عن نفوذه فى البلاد ؟، يذكر ثقته البادية ، تراثه ، اركان بيته المدجج بالتحف ، مازال النهار فى أوجه ، عليه الا يبدد أى لحظة ، اقتراب الليل يخيفه .

عندما نزل عـاصمة بلاده شابا ، سعيا لطلب العلـم ، منفردا عن الأهل ، سكن غرفـة واحدة فى الحى العتيق ، كان أفول الضـوء وتواريه الهادئ يثير عنده حزنا غامضا ، البيوت متقاربة حتى ليمكنه سماع المتحدثين فى الغرف المجاورة ، ومحاولات اشعـال المواقد ، أو سقوط شـىء ما فجـأة ، اصطدام أوان ببعضـها ، نداءات مجهولة ، الأصـوات الأخيرة للنهار المبتعد . حرص فى هذا الزمن البعيد ألا ينزل عليه الليل فى غرفته الضيقه ، يخرج .. يلوذ بزحام

الشارع القريب . يسعى منفردا ، لكنه مؤتنس بآخرين لا يعرفهم ، بحركة بيع وشراء لا صلة له بها ، وجمع في المقاهى لايعرفهم ولا يعرفونه ، حتى إذا اكتمل الليل ، وارتفع صوت القارئ يتلو قرآن الثامنة الذى يسبق نشرة الأخبار الرئيسية ، ينسحب راجعا إلى مأواه ، مثقلا بالشجى ..

خوفه الآن أوعر ، ليل غريب مقبل ، لا علاقة به أو بمن يشملهم ، ينزل عليه وغربته مكتملة ، هويته مبددة ، يلتمس أدنى عون ، تعاوده خشية اغماء مفاجئ فى الطريق أو تمام الأجل ، يتخيل السطور التى ستذكر عثورهم على شخص بلا أوراق ، مجهول تماما ، كيف سيتصرفون ؟ أى اجراءات تتخذ عندئذ ؟. يلح عليه حضور ابيه المندثر ، عبثا يحاول استخلاص الملامح ، غمام كثيف يحجب عنه ما كان ، ما سعى يوما .

ما أوهى الصلة كما تبدو الآن !

لينتبه ، ليبذل المحاولة بحثا عن المغربى ، سيبدأ من الفندق ، يستنفر علامات رآها ، يتتبعها ، لكن .. هل يجدى هذا فى مدينة تتغير ثوابتها ، وتتبدل مبانيها ؟

ما من بديل .

لحظة وصوله إلى الفندق لم يتجاوز المدخل ، يدير ظهره للبناء قديم الواجهة ، حديث المضمون ، يمضى باتجاه الميدان ، تماما كما اتجهت للسيارة التى أقلته . الأقواس لم يدركها تغيير بعد ، عند وصوله إلى الميدان الفسيح ، أطال النظر إلى البناء الضخم ، القديم ، الغامض ، مركز العمران ، الحد الفاصل بين القديم والجديد . فى موضع ما منه ، يجهله ، أوراق تحوى اسمه ، صفاته ، مالا يعلمه !

لابد أن موضوعه يبحث هنا الآن ، لا يدرى إذا كان فى لحظة معينة

سيضطر إلى ولـوجه ، لكـن .. من أين ؟، عنـد الضرورة سيتقدمـه أو يتبعه أحدهـم ، ربما عصبوا عينيه لحظة اجتيـاز أماكن محرمة على الغـرباء ، لهم اجراءاتهم ، للجاهعة تقـاليدها ، للمدينة حركتها وأسرارهـا ، هذا كله محيط به، محدق الآن ، عليه المحاولة والامتثال .

هل جرى تغيير ما ؟

صعب المقارنة ، لكن المؤكد ان لون الطلاء تغير إلى حد ما ، طغى الأخضر على الأصفر الغامق ، أما الستائر فلا تدع مجالا للشك ، عندما رآها بصحبة المغربى كانـت بيضـاء ، انها بنية قاتمة الآن ، وماذا عن النـوافذ ؟، القضبان الحديدية المتقاطعة كما هى ، لكن الزهرة المعدنية الصفراء لا وجود لها ، ثمة تغير فى الـزوايا ، يتـابـع بحرص أثنـاء مشيه ، لا يتـوقـف ، يخشى اثـارة الشبهات ، الاقتراب منـه إلى حد معين غير مسمـوح ، ربما تعرض لمتـاعب لا يدرى كنهها إذا ارتكب خطـأ ما بغير قصد ، خاصة هنا ، يتطلـع حوله اثناء وقوفه عند الناصية المؤدية منتظرا توقف العربات .

العربة دارت بـه هنا حيث ترتفع الأرض قليلا ، يسـدل جفنيه مطلا على الصور الداخليـة المتبقية عنده ، نعم .. نعـم ، مؤكد من هنـا ، يمشى واثقا ، حريصا على ابداء الجدية ، والعزم على التـوجه إلى قصد محدد ، مازال قريبا من المبنـى المخيف ، الباعـث على الرهبة ، بصمتـه ، باحجاره ، بنـوافذه ، فى التسكع مخاطرة ، لكنـه بعد حوالى عشرين خطـوة يتوقف . امامـه مباشرة الدرج الحجرى المؤدى إلى مطعم المقانق ، لم يتوقـع الوصول إليه . موقن انه قطع بصحبتها مسـافة أطول بالسيـارة ، كيف يصل إليه بسرعـة ؟، يقوى حضـور الباسقـة غير المرئى ، أسفرت عـن رشاقتهـا هنـا عندمـا تقدمتـه كراقصة باليه ، أين هى الآن ؟ الطريق الذى يطوى عند النظر إليه قريب .

يصعد السلم ، غير انه لا يؤدى إلى المطعم ، ينتهى إلى حديقة معلقة ، حشائش مبسوطة ، وشجيرات لم يرها من قبل ، يتوقف ، الم ير المطعم منذ لحظات ؟. انه واثق ، لا يشك أبدا .

لا .. انه يبدد وقته ، الحديقة مباغتة له ، الوقت يمر بسرعة ، لم يحدثه عنه أحد باعتباره من عمل الفلاسفة الأربعين ، لا يستبعد الآن أى أمر أى طارئ.

كلما تطلع إلى ساعة معصمه ، إلى أخرى عامة ، أو فى واجهة بيت ، يخطر له : المفروض الآن اقتراب القطار من منتصف المسافة ، من العاصمة ، الطائرة فى الأعالى الآن ، تقلع من القاهرة صباحا ، وترجع ليلا ، تطير بدونه ، سيبقى مقعدة خاليا ، أو يحتله أحد المدرجين على قائمة الانتظار ، ها هو يضرب فى المدينة مرغما ، يجتاز شارعا بعد شارع ، وطريقا اثر طريق ، لكم يشعر أنه قصى ، بعيد ، ينظر إلى الواجهات القديمة التى تخفى تكوينات حديثه ، لكل شىء ظاهر وباطن ، فى لحظة معينة يتحول ، يتغير ، يتموه ، يخشى ان يضل ، يشرع فى العودة إلى الفندق ، بالتأكيد ثمة من يتفحص وضعه الآن ، بعضهم يهتم بأمره وان لم يبد ذلك ، قبل مفارقته الجامعة هدد الرجل الذى حاوره بالاضراب عن الطعام علنا أمام الجامعة ، لم يبد عليه أى تأثر بما سمعه ، لكنه قال بهدوء : ليس هذا من سلوك أهل العلم .

بدت لهجته مغايرة ، غير انه تركه يذهب ، لو استطاع الوصول إلى هذا المغربى.

يدخل مقصورة عامة للهاتف ، الحامل المعدنى ، ثلاثة أجزاء متوسطة ، كل منها مغطى باعلانات ملونة عن متاجر ومطاعم ، يلفت نظره أن الدليل يحوى قسما منفصلا لأرقام تليفونات الجامعة ، ليس الادارات والكليات

فقط ، إنما منازل الاساتذة والعاملين ، كل من له صلة ، الترتيب يوحى كأن الجامعة فى مكان آخر ، الأرقام الأولى متشابهة حتى مع اختلاف مواقع سكنى هيئة التدريس ، هكذا بمجرد أن يبدأ أحدهم فى املاء رقمه حتى يكشف عن هويته ، اسماء الجامعة بالتحديد طبعت بحجم أصغر ، البلدية تدير مركز الاتصالات المكون من عدة دوائر .

يقلب الصفحات متمهلا ، متأنيا ، يدقق ، لكن ما من اسم له ملامح عربية ، كيف لم يستفسره عن اسمه ، صحبه وقتا ، جلس إليه فى بيته ، كيف؟، هو لم يطلعه ، وفى خطابه الأول خط سطرين وقعهما ـ صديقك المغربى ـ ، لكن .. ر بما ذكر اسمه ولم ينتبه ، هل نسيه بتأثير النبيذ ؟

لا يدرى .. مامن وضوح ، ما من ثبات ، مامن يقين عنده بصحة ذلك ، يفارق مقصورة الهاتف نادما على ما انفقه من وقت فى البحث ، محاولة فاشلة ، ضيع وقتا ثمينا كان يجب ان يقضيه فيما هو أجدى ، لكن ما الأجدى فى حال كهذا ؟

فى مواجهته تقوم مجموعة من المبانى الحديثة وان احتفظت بالخطوط القديمة ، لا تنافر بينها وبين العمارات الأخرى ذات الأقواس ، أنها خالية تماما من السكان ، سنوات عديدة لم يقربها أحد كثرت الأقاويل حولها ، ثمة من يقول أنها تستخدم فى رصد ما يجرى داخل الجامعة ، خاصة أنها تشرف على المنطقة المحددة بالبراميل الحمراء ، لكن يرد آخرون ، ما حاجة البلدية إلى هذه الوسيلة البدائية من التجسس ، وهناك من البدائل المتاحة ما يفوق الحصر ، الحقيقة انهم شيدوا المبانى فى زمن الاسعار الرخيصة ، ويبقونها خالية لبيعها بعد تضاعف قيمتها ، ذمم المسئولين فى البلدية خربة ، انهم يحصلون على عمولة معينة مقابل السماح بدفن الميت . يؤكد آخرون ان

بعض كبـار المسئولين بنوا هـذه العمارات . وخصصوا شققها لابنـائهم الذين مازالوا صغارا ، وللأحفاد المحتمل مجيئهم . يحدث هذا بينما أزمة الا سكـان فى تزايـد مستمـر ، ويسوء الـوضـع جـدا فى الحى الصينى . هـذه العمارات محور أزمـة مستمرة مكتـومـة مـع السلطات الاتحاديـة ، ولكـن الوضع باق على ماهو عليه ، يلاحظ ارتفاع المبانى القديمة المجاورة .

هل تتغير الارتفاعات ليلا ؟، هل تعود اقصر مع ضوء النهار؟

لم يعد يدهشه شىء ، يقولون انه بعـد نزول العتمة تمتد طرق جديدة ، تتوارى مع انبـلاج الصبح ، تتبدل ميادين ، وتنشأ احياء بأكملهـا . فى يوم معين من كل سنة ، فى نوفمبر ، يلتزم أهالى المدينة الصمت ، حتى الجامعيون بمن فيهم الغربـاء الذين جاءوا من بلاد قصية للدراسـة ، منذ الفجر وحتى منتصـف الليل يكـف الجميـع عن النظـر ، لاتتحـرك عـربات ، ولا يسمـح للطائرات بعبور المجال الجوى ، كما ينهر الأطفـال الصغار بشدة إذا عاطوا أو صاحـوا ينتظر الجميع تردد أصـوات الموتى ، فى الشوارع ، عند مـداخل البيوت ، فى الحجرات المغلقة ، فى المتاجر ، المقـاهى ، الحانات ، الاسواق ، من الآبار والسـواقى التى جفت ، مـن جذوع الأشجار وأغصانها ، مـن حيث لا يتوقع الإنسان يمكن أن يصغى إلى صـوت حبيب رحل ، أو صاحب ، أو جد سمع عنـه ولم يدركه ، أو مجهولين لا يعـرفهم أحد . بينما ينكمـش آخرون خوفـا من تردد أسرار ظن الجميـع انطواءها ، أما الجامعيـون فيستنفرون قواهم لرصد الأصوات القديمة والتـى ينطق بعضها بلغات لم تعد متداولة ، على أمل التقاط حوار دار يوما ، أو جزءا من مناقشة ، أو خطة أثناء اعدادها ، أو خطبة مـا ، ربما ساعـد ذلك فى كشف اسرار التـاريخ الأقصـى ، وأهمها موقع مقبرة كبير الفلاسفة.

إن المحاولات لا تتوقف منذ قرون عديدة ، من الجامعة ، من البلدية من الأمن الاتحادى ، الرئاسى ، الخاص ، الفرعى ، صباح اليوم التالى يسعى رجال البلدية جاهدين لمعرفة ما توصل إليه الجامعيون أثناء اصغائهم إلى الموتى ، جهات شتى تسعى ، بعض الأفراد .

تذكر المدينة هذا البحار الفنزويلى الذى ورث ثروة كبيرة ، وانتقل إلى الحى الصينى ، اتخذه مقرا ، حصل على اذن من البلدية بعد دفعه رشاوى وهدايا طائلة ، منها عصا مارشالية صنعت من الياقوت الخالص ، تستقر الآن فى إحدى خزائن بنوك سويسرا ، حيث اخفاها رئيس البلدية السابق ضمن ثروته التى تمكن من تهريبها ، ثم مات قبل أن يخبر أحد ابنائه برقم حسابه السرى ، ان اسرته كلها تجتمع وتصغى يوم الموتى بأكمله لعل وعسى . أما البحار الفنزويلى فانفق آخر قرش يمتلكه على تكاليف ما قام به من جهود وحفائر ، أصبح مادة مثيرة للسخرية فى الصحافة المحلية وأحيانا الاتحادية ، لم يفارق المدينة ، يشاهد أحيانا ساعيا فى طرقاتها ، لا يدرى أحد اقامته .

ضريح كبير الفلاسفة .

مطمح الكل ، وغايتهم ، لو أمكنه الوصول إليه ، كل المراجع ، جميع الاشارات تؤكد انه مطمور فى مكان ما ، بما يحويه من أسرار مكتوبة تحوى علوما جمة من معارف الأقدمين ، ومجوهرات وتحف وذخائر ، ولفافات بردى تحوى علوما جمة من معارف الأقدمين ، تفسرالكثير مما يجرى الآن ، وما يحدث من ظواهر فى المدينة ، كل مقابر الفلاسفة الآخرين اكتشفت ونهبت فى قرون شتى عدا ضريح رئيسهم .

يسرع الخطى ، لكن .. فى غير هرولة ، حتى لا يلفت أنظار الآخرين ، وان

بدا كل منهم مشغولا بذاته ، منقطعا عن الآخرين ، غير انه عند تأهبه لاجتياز شارع عريض يؤدى إلى ميدان صغير تتوسطه نافورة مياه قديمة ، اطال النظر وحد البصر إلى لافتة معلقة فوق بناء مواجه .

ثلاثة طوابق ، واجهة دقيقة الخطوط ، منمنمة النقوش ، لها لون الحلوى الممسوسة بالفستق ، كيف لم ينتبه إلى البناء ، لم يحدثه المغربى عنه ، ولا الباسقة .

« فندق العربى » ..

هكذا ، فى مركز المدينة وهو لا يدرى .

يفسح الخطى ، يتقدم .. لايخشى شبهة .

مربط الفرس ..

.. هذا مبنى قديم بقى على حاله ، لم يلحقه الا تغيير طفيف ، عمره حوالى سبعة قرون ، انشئ كمحط لخيول البريد ، وفندق لرجاله، والتجار المسافرين العابرين ، والرحالة ، والأغراب ، ثم مات آخر مالك له فى بداية القرن التاسع عشر ، أهمل شأنه ، وبان الخراب عليه ، دبت فيه الهوام والجرذان ، كما نهبت محتوياته ، منذ سبعين عاما أبرز أحد رجال البلدية أمام القاضى الفرعى وثيقة تؤكد انحداره من أسرة آخر الملاك ، أظهر أوراقا قديمة ، بها توقيعات شتى ، بعضها واضح والآخر باهت ، أظهر حججا مكتوبة على جلد غزال ، وأوراقا مصنوعة من كتان ، ورسالة ممهورة بطرة عثمانية ، وأخرى مدموغة بختم بابوى ، وثالثة مكتوبة بلغة مندثرة ، غير منطوقة الآن .

اقتنعت المحكمة فاصدرت حكما نهائيا بتمكينه فوضع يده على المبنى وثبت ، بسرعة بدأ العمل ، انفق أموالا جمة على التنظيف ، وإزالة المخلفات ، والاعداد ، والفرش ، وخلال سنوات قليلة أصبح من أشهر فنادق البلاد ، وأغلاها ، تميز بمطعم يقدم الوجبات الشرقية المعدة جيدا .

نزل به مشاهير واثرياء وسياسيون وكتاب حصلوا على جوائز عالمية ، كما أقام به الفيلد مارشال مونتوجمرى أثناء عودته إلى بلاده بعد انتصاره فى معركة العلمين ، وتفصيل ذلك يطول . منذ سبعة وعشرين عاما نزل

البلاد أمير عربي، ومجيء اثرياء الدنيا إلى العاصمة الاتحادية أو إلى الشواطئ الشمالية أمر معتاد ، لقضاء الاجازات ، أو لعقد صفقات ، أو للقيام بمهام سياسية ، لكن وصول هذا الأمير بدا مختلفا ، إذ طالت مدته ، واشتهر أمره بعد استئجاره طابقين كاملين فى أعرق فنادق العاصمة ، كان ايجارهما لمدة شهرين يكفى لشرائه بيت من طابقين أو ثلاثة تحيطه حديقة ، لكنه لم يقدم ولم يعرف أحد سبب ذلك .

كانت تصحبه حاشية قيل ان عددها مائة وأربعون شخصا ، وزعم آخرون أنها تتجاوز المائتين ، أفراد عائلته ، وحرسه الخاص ، والقائمون على إدارة أعماله ، والطباخون ، والسعاة ، وسائقو العربات ، وشخصيات لاتعرف طبيعة عملهم بالضبط ، منهم ثلاثة أو أربعة يقفون عاقدين ايديهم، متطلعين إليه ، وسكرتيرة انجليزية شابة ، ذات بهاء خاص ، ويقال أنه تعلق بها ، ولزمها لجمالها ، ولخاصية غريبة لم تعرف لدى أى امرأة عداها ، ذلك أنها ترتد بكرا بعد كل مضاجعة !

تنقل فى الولايات حتى نزل المدينة ، ويبدو أن هواءها ناسب أحواله الصحية ، إذ نصحه الاطباء المرافقين باتخاذها مقرا لاقامته ، ولم يعرف السبب بالضبط ..، المهم .. وصل إلى المدينة فى يوم مشهود ، خرج فيه الناس وطلبة الجامعة واساتذتها للفرجة على طرز السيارات الحديثة ، الفارهة ، المزود بعضها بأجهزة تليفزيون وهواتف بعيدة المدى ، ودورات مياه ، ونظم دفاع ذاتية ، تم تخصيص الشارع الجانبى غرب الفندق لوقوفها ، مقابل رسوم ضخمة تدفع إلى البلدية ، لكن الناس تحدثوا عن مبالغ طائلة تقاضاها بعض المسئولين عن الادارات ، وهدايا من احجار كريمة ، وساعات صنعت كلها من الماس ، ومعاطف من فراء المنك ، والسمور ، وسيارات

تتجدد فى المناسبات المختلفة ، من هنا زادت الاعياد التى تحتفل بها البلدية بعد وصول الأمير وبدء اقامته ، كما تكرر الاعلان عن مرض عمدة المدينة أو بعض مساعديه ثم شفائهم بعد أيام قلائل وفى رسالة أعدها أستاذ مادة الاحصاء توصل إلى أنهم يمرضون بشكل دورى ، ويتناوبون مناسباتهم السعيدة ، حتى ان احدهم احتفل بعيد ميلاد ابنته الوحيدة ثلاث مرات فى سنة واحدة ، اقامة الامير طالت الجامعة أيضا ، لكن فى شكل هبات علنية ، أعلنت الصحف عن تبرع الأمير بمليون دولار كاملة لتجديد بعض المنشآت الجامعية ، كما تبرع بمائة ألف لصالح جمعية مرضى الصدر التى تشرف عليها إدارة المستشفى الجامعى ، وعشرين ألفا لترميم البرج وصيانته ، وعشرين أخرى لتمويل الأبحاث الخاصة بالكشف عن أسراره ، وعشرة آلاف لدعم أعمال لجنة البحث عن قبر كبير الفلاسفة .

هذا ما أعلن عنه ، وما نمى إلى علم الناس .

استأجر الفندق كله ، علقت الإدارة لافتة كتب عليها «مغلق للخدمة الخاصة » ، لم يعد مقصدا لأحد بسبب الرد الثابت الذى كان يتردد عن الهاتف ، « نأسف الحجرات كلها مشغولة » ، توقفت شركات السياحة عن التعامل معه .

فى الأسابيع الأولى كان المارة يتطلعون إلى النوافذ المغلقة دائما ، أى تغيير ولو طفيفا يتناقله الكثيرون ، كظهور شخص ما فى إحدى الشرفات ، أو ظهور بعض قطع الثياب منشورة فى الهواء أمام النوافذ ، أو وصول عربات نقل تحمل صناديق مغلقة ، كتب عليها اسم الأمير .

عرف الجميع انه على خلاف مع اشقائه ، وأن ثمة خلافا جرى ، تدخل كبار السن رأوا ضرورة مغادرته البلد مع احتفاظه بجميع حقوقه وأنصبته

المادية فى العائدات الهائلـة ، والحق انه تلقاها بـانتظام مما اثار انتعـاشا فى فرع البنك الاتحادى بالمدينة ، ودفع المسئـولين عنه إلى التدخل لدى الجهات الأمنية لردع بعض الجماعات المتطرفة التى قررت تنظيم مظاهرة احتجاجية ضد اقامة الأمير ، ومظاهر الثراء الاستفزازية ، ولكن .. لم يقع ذلك .

حتى الآن ، لم ير أهل المدينة وجـه الأمير ، أو أحد ابنائه ، أو حريمه ، ولا الانجليزية التى ترتد بكرا بعـد كل مجامعة . كان المارة يتطلعون إلى الطوابق الثلاثـة ، المعروف انه مقيم فى الأخير ، يقـال انه احضر أغطية ومفـروشات خاصة به ، واطقم طعام ومقعدا خاصا لجلوسه . أما رياضة المشى اليومى المقررة من الأطبـاء فيمارسـها مطلع كل نهار فى الحديقة الخلفيـة ، تم تعلية أسوارها وبث خوازيق مدببة ، وزجـاج مشطوف وسلك كهربائى لاعاقة أى محاولة للتسلـق ، يمشى فى ممـراتها جيئة وذهابـا محاطا بحـراسة الألمان الاشداء .

لم يتحدث أحد من العاملين علانية عنـه ، حتى بعد مرور سنوات عديدة على اقامته ، لم يدل أى منهم بتفصيلـة ولو ضئيلة ، رغم محاولات واغراءات الصحافـة المحلية ، والاتحاديـة ، وعندمـا اختلف أحـد الطباخين مـع إدارة الفندق تردد أنه سينشر مذكراته ، لكنها لم تطبع قط .

المؤكد ان الأقســام المختصة فى البلدية تعلـم كل شىء ، حتى محتـويات الصنـاديق المغلقـة التـى تصل بشكـل منتظـم ، تعكـس ما يخص البعثـة التعليمية الامـريكية التـى لم يسمح بـدخولها ، أو الاطـلاع على محتويـات عربـات النقل الضخمة التـى تصل مـن الميناء أو البلدان المجـاورة مباشرة بدون أن يعترضها أحد ، حتى رجال الأمن الاتحادى .

حدث أن سرت إشاعات تقول بوفاة الأمير منذ عدة سنوات ، وأن جثمانه

أرسل سرا إلى بلاده ، أما المقيمون فما هم إلا ابناؤه واحفاده الذين لايقدرون على العودة لخلافات ورثوها ، لكن ثبت عدم صحة ذلك.

اذ قام الأمير بزيارة عمدة المدينـة ، ورئيس الجامعة فى يومين متعاقبين ، بعد منحه لقـب المواطنة الشرفية لمرور ربع قرن وقتئـذ على مكثه ، وان كان هذا لا يعنى منحه الجنسية الاتحادية .

مرة واحدة خرج إلى مكان عام ، بعض المعمرين يؤرخ بها ، يقولون مثلا ، قبل ذهـاب الأمير ، أو : بعد خـروج الامير ، ذلك ان أحـد رجالـه مضـى إلى مقهى البوابات السبـع ، وانفرد بصاحبه ، طلب منه اخـلاء المكان كله ليلا ، وان تعويضا مجزيا سوف يدفع له .

قبل السابعة وصل ثلاثة من الحرس الخاص ، تفقدوا المقهى ، مخارجه ، ومـداخلـه ، وفحصـوا اجهزة الموسيقـى ، واعـداد المشروبـات والمأكـولات الخفيفة، ثم بقوا حتى قدوم سموه ، استقل العربة الرمادية ، عتيقة الطراز ، عرف الجميـع انها تخصه ، وان ثمـة علاقة حميمـة تربطـه بها لأسباب لم يعرفها أحد .

جلس بمفرده فى الشر فة المطلة على الصهريج السابع ، وقف رجال أربعة على بعد قليـل منه ، حـدق طويلا إلى الفـراغ ، عدل غطـاء رأسه مـرة ، أوماً مرتين، ادار ابهامـي يديه حـول بعضهما عندما احـاط مقدمة ركبتيـه اثناء تراجعه إلى الخلف .

قام فجأة وعلى وجهه شجى دفين ، ركب عـربته ولم يره إنسان بعد ذلك فى مكـان عام ، وجـوده أصبح معتـادا ، بـل ان كثيرين نسـوا أمره ، أبطـل معظمهم التطلع إلى النوافذ والستائر المسدلة عند مرورهم ، غير ان آخرين لم يكفوا عن ابداء الفضـول .

رسميا .. احتفظ الفندق بـالاسم القديم ، « مربط الفـرس » ، لكن الناس عـرفوه بفنـدق العربـى ، دخل الحوار اليـومـى عند وصـف الطرق وذكـر العلامات الدالة ، وفى العام الأخير علقت لافتـة عريضـة تحمل الاسم الشائع بين الخلق .

أحيانا يرى المارة رجـالا نحافا ، طوال القامة ، اشـداء ، يرتدون ستـرات ياقـوتية غامقـة ، وسراويل واسـعة ، واحـذية جلـدية لامعة ، يقفـون بجوار العربات المصطفة ، يديـرون محركاتهم للتسـخين ، يتفقدونـها ، معظمـها باق فى مـواضع الانتظـار منذ قـدوم الأمير ، وان تغير بعضـها اثـر ظهور طـراز جديـد، الزجاج كله معتـم ، لايمكن رؤية الـداخل ، فوق كل سيـارة هوائى هاتف ، وثان للمذياع ، وثالث للتليفزيون ، وآخر لا يعرف أحد وظيفته ، يحل جديـد مكان القديـم « يستمر الانتظار الذى بـدأ منذ سبع وعشريـن سنة ، الشباب مـن طلبة الجامعـة وأهالى المدينـة يقفون على مسـافة للفـرجة على العربات الحديثة يتأملون ، يقارنون بما اطلعوا عليه من صور فى الصـحف ، والاعلانات المرئية .

الاقتراب ممنوع ..

يقف حارس مـن القسم الخاص ، يتبدل ثلاث مـرات ، يمنع الفضوليين والمتسكعين وأرباب المقاصـد ، وذوى النوايا ، أما دخـول الفندق فمستحيل بالنسبة للغرباء ، فقط .. يسمح لأصحاب العلاقة .

مجـــريــــات ..

.. ما من دثار .

ما مـن ستر ، أو سقف واق ، مـا من حيـز يضم ، يصــون ويلملم ، انما انفراط وتذريـة ، وديمومة فقد ، وقـع التحول والتبدل لما عاش زمنـا موقنا استحـالة تغيره ، حـل وقت المنعطفـات والنتوءات المفـاجئة ، كـل ما يحيـد بالخطة ، ويخترق السياق .

كثيرا ما رأى فى مناماته دخوله مسجدا ، وعند فراغه من الصلاة يكتشف فقد حذائه ، يقف حائرا ، وجلا ، يتطلع إلى القوم خلسة ، كيف سيطأ الطريق حافيا ؟، كيف سيسعى مجردا منقطعا عن كل عون ؟

قبيل مفارقته موطنه ، قبل اقلاعه من وقته ، لو اطلع على رؤيا فيها مجرد اشارة إلى بعـض مما يمر بـه الآن لسخر مـن ذاته ، لردد قـائلا « اضغاث احلام » .

كانـت أمه فى الـزمن الآفـل ، المكتمل ، تقـول إذ يواجههـا ضـيق ، « أيـن انتظرنى هذا كله ؟».

أين ؟

نوافذ مغلقة ، أبـواب موصدة ، ستائر مسدلة لاتشـى ، طرقات لاتفصح عن أسرار قديمة ، اشارات غير دالة ، تقصيه ولا تدنيه ، أما الاضواء الخافتة، وذبذباتها غير المرئية ، فتضنيه ، تكده ، كذا مـداخل البيوت العريضة ، بقايا

ظلال ، مواضع لاتصلها الشمس ، توحى بـالكنة ، بالدفء ، بالدعة ، غير انه لايبلغها ، كل لحظة .. منفى يتجدد ويلوح .

بمجرد عبوره الطريق إلى الفندق اعترضه الحارس الواقف قرب العربات، المنتظرة منذ سنوات ، قال ان الفرجة من بعيد ، فلما ابدى دهشة ، وأطلع الجندى على غرضة ، اطال النظر إليه ، قال :

ـ أنت غريب ؟

ثم قال كأنه يردد أمرا يعرفه الكافة : هذا المدخل لم يقترب منه انسان منذ زمن طويل الا فى ثلاثة أحوال ، أن يكون من طاقم الخدمة ، أو من الحاشية ، أو ضيفا من رجال البلدية ، أما إذا كان جامعيا فلابد من حصوله على تصريح من القسم ، لابد من اخطار مسبق باسمه وأوصافه معتمد من السكرتيرة الانجليزية للأمير ، وهذا لايحدث إلا نادرا .

أومأ محييا الحارس الذى بدا مرحا ، يمر بنشوة غامضة ، مضى مبتعدا وعنده خشية أن يلحق به طالبا منه الاطلاع على مايثبت هويته ، يمشى متئدا ، مثقلا .

هل يمشى وراءه أحد ؟

هل يتعقبه شخص ما ؟

إذا صح ذلك ، إلى أى جهة ينتمى ؟

قالوا له ان العارف باحوال المدينة المدقق يمكنه ان يميز ملامح الوجوه ، بيسر يتبين له رجل البلدية من الجامعى .

قال الاستاذ الأفريقى همسا ان رجال البلدية واساتذة الجامعة ، يجتمعون ويتزاورون سرا ، وما يقال عن صراعات إنما أمور مدبرة لأغراض خفية لا يعلمها أحد .

لا .. لن يلتفت خلفه حتى لايثير شبهة .

شبهة؟

شبهة من ؟

الليل شاسع ، المدى بلا حد ، الأمر بلا ضفاف ، تفد إليه أجزاء من مدن نائية ، جاس خلالها ، أمضى أوقاتا ، هل سيبلغها مرة أخرى ؟، كل من أقلع أمس عاد إلى دياره ، الأفريقى فى موطنه الآن ، كافة من جاء وا ، عادوا ، يتدثرون بحيواتهم عداه !

لكنه مازال يسعى ، قادرا على المواجهة ، تبدو البنايات بعيدة ، متفرقة ، بعد ان كانت متجاورة ، مضمونة ، الشوارع فى الليل منقطعة عن بعضها البعض ، الأقواس الحجرية معلقة ، غير متصلة ، فى النهار تضفى على الطابع بعدا طقوسيا ، يستعيد قناطر شتى عبرها فى حياته ، قنطرة حجرية مشى فوقها طفلا ممسكا يد أبيه ، تغمرها رائحة تين عسلية ، أخرى وطئها فى شبابه عند سفره إلى بلدة نسى ملامحها وموقعها ومخارجها والمداخل المؤدية إليها ، يجتاز إحدى البوابات السبع .

فكرة تومض فجأة ، كيف لم ينتبه من قبل ؟

عند استعادته مواقع البوابات فوق الخريطة ، عند تذكره تفاصيلها المعمارية ، كل منها تواجه الأخرى رغم تباعد المسافات ، لو امتدت خطوط مستقيمة تتقاطع عند موضع محدد . بالضبط .. قرب البرج .

إذن .. هل يستقر ضريح كبير الفلاسفة هنا ؟

هل يمكن هذا ؟

الضريح فى باطن الأرض ، أما البرج المائل فمجرد شاهد هائل الارتفاع فوقه ، لم لا ؟

حدس ، تخمين ، استنتاج ، شبهة يقين ، من أى مصدر واتته تلك الاشراقة المباغتة ، تفسير يدفق عنده طاقة ويبدد وحشة قصوى ، إذا حلت مشكلة ، يعلنهم بما فكر فيه ،. يدعوهم إلى بدء البحث ،

لكن هذا يستدعى اليقين ، والأمر واهن هنا ، يقولون ان الوصول إلى الحصن المشيد يصير مستحيلا فى أيام معينة من السنة ، فكلما اتجه إليه من يقصده مسافة يتراجع بنفس القدر ، لم يعاين ذلك ، فهل سيراه ؟

هل ستطول مدته حتى يطلع على ذلك ؟

الأمر صعب !

يعبر مدخل الفندق الذى خشى أن يضل طريقة إليه ، يتجه إلى موظف الاستقبال ، انه الشاب الذى ابلغه ليلة أمس بفقد الجواز ، يقدم إليه البطاقة الصغيرة التى يسلمها مقابل المفتاح ، مدون عليها رقم الغرفة ، يفاجأ بلهجة الموظف الحيادية ، غير المعنية .

ـ اقامتك انتهت يا سيدى ..

أى جديد مختبئ؟ ، أى كامن لم يسفر بعد ؟ ، لم يعد واثقا من عبور لحظتين متتاليتين فى ذات الحال .

ـ أخبرونى فى الجامعة أنهم مدوا اقامتى يومين ..

يتطلع إليه مرة أخرى ، وكأنه بعيد اكتشاف مثوله أمامه ، ينظر إلى لوحة الحاسب الآلى ، يضغط مفاتيح عديدة .

ـ صحيح .. من فضلك .. جواز سفرك ..

ـ الا تعرف انه مفقود ؟ أنت أول من ابلغته أمس ..

ـ صحيح .. صحيح .. ألا يوجد خطاب من الإدارة ؟؟

يهز رأسه نفيا ، يشير إلى أعلى .

ـ أنا مقيم ، وبيانات هويتى مدونة وحقيبتى فى الغرفة ..

يقول إن هذا كله صحيح ، لكن المدة الأولى انتهت ظهر اليوم ، لو اتصلت إدارة الجامعة قبل الثانية عشر لأعتبر ذلك مداً لكنهم اخطروهم بعد الواحدة والنصف ، بعد انتهاء اقامته طبقا لقوانين البلدية وتعليماتها الصارمة .

ـ الآن .. لابد من تدوين البيانات من جديد ، يعنى

ـ الآن من الاطلاع على الهوية ..

لا يدرى .. هل حاول قمع ضيقه ، تهدئة انفعاله ؟ أم أن هدوا بداخله أدى إلى اقترابه ، إلى ميله قليلا ، إلى تضييق الفراغ الفاصل ، إلى نطقه راجيا ، طالبا العون والمساعدة .

إنه يرجوه بشكل خاص ، يعرف محنته ، هو أول من اطلع عليها النهار كله يبذل الجهد ، ثمة بحث جدى يجرى الآن بلا شك ، الجامعة والبلدية أحيطا علما ، إنه متقدم فى السن ، معطوب الشرايين ، فليساعده الليلة فقط ، وغدا تنجلى الأمور ..

ـ هل تقبل أن أسجن ؟

ـ لا ..

يشير إلى الخارج

ـ على الجامعة أن تساعدك ..

يطلب حقيبته ، يقول الموظف أنها فى الامانات ، لكن تسليمها إليه صعب .

ـ الهوية .. ما يثبت انك أنت ..

تلك لحظات فارقة ، أيقن من استعادتها مرارا فيما بعد ، هل سيقدر له حكيها لاصحابه فى موطنه ؟

يخرج إلى ليل أليل بمفرده ، خلوا من كل عون ، مفتقدا الوجهة والقصد ،

ما يدهشه صفـاء مفاجئ يحل به ، لا يذكر مـن القائل : عند اكتمال الشوط يستعصى الدمع ، والا .. هل رأى أحد محتضرا يبكى ؟

مع تبـادل الخطى يـرحل مـن صورة إلى أخـرى .. من فكـرة إلى فكرة ، يستعيـد تجوالـه فى مدينتـه القصيـة ، الآن تـوشـك سبله أن تنقطـع عـن مصادرها عصـابة تنبت عن ينابيعهـا ، يتشظى وقته الآفل ، أيـامه الاسرية التـى لم تدم طـويلا ، خلـوة ليليـة ، جلسة حميميـة ، اكتمال ألفة ومـودة يستعيد ما أتم كينونته يوما ، يرى مالم يبصره فى حينه ، تفد عليه دهشة بكر لا يعرفها إلا أطفال مازالوا بعد فى مفتتـح المواصلة ، كل ما ينطبع فى افئدتهم مثير للعجب كأنه يكتشف البديهيات من جـديد ، مع كل شهيق يفض بريدا من الوجد والشجى .

يقوى حضور البعـد على القرب ، يطغى مالا وجود على مـا يمكنه لمسه ، يمشى متئدا ، مثقلا بهبوب الحنين وعـرا إلى مدينته ، إلى حضورها الآن أول الليل ، نواصيها ، مبانيها ، شوارعهـا ، مقاهيها ، أصيلها ، أزمنتها الخريفية انبثاق مآذنها ، تفتـح ازاهير أشجارها ، توزع عمره عليها ، ضـوء نجومها ، تردد أحـلامه فيهـا ، انبثاق ايامـه فى دروبها وعند منعطفـاتها ، حواريها ، ميادينها ، أفقها البادى من أعلى ، شـب فيها وغض ، وحماه السعى فيها من نوبات القتامة فمن يصله بها الآن .. من؟ ..

١٩٨٩ـ١٩٩٠

صدر لجمال الغيطانى
عن دار الشروق

ـ الزينى بركات .

ـ رسالة فى الصبابة والوجد .

ـ كتاب التجليات ـ الأسفار الثلاثة فى مجلد واحد .

ـ منتهى الطلب إلى تراث العرب ـ دراسات ـ

رقم الإيداع : ٧٦٦٦ / ١٩٩١
I.S.B.N 977- 09 - 0077-0

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣